من أعلام الإحياء الإسلامى

الإمام الشيخ: محمد رشيد رضا

الإمام الشهيد: حسن البنا

الإمام الشيخ: محمد البشير الإبراهيمى

الإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت

إمام الفقه والقانون الدكتور: عبد الرزاق السنهورى

د. محمد عمارة



من أعلام الإحياء الإسلامى

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

من أعلام الإحياء الإسلامى

- الإمام الشيخ : محمد رشيد رضا
- الإمام الشهيد : حسن البنا
- الإمام الشيخ : محمد البشير الإبراهيمى
- الإمام الأكبر الشيخ : محمود شلتوت
- إمام الفقه والقانون الدكتور : عبد الرزاق السنهورى

د. محمد عمارة



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عمارة، محمد

من أعلام الإحياء الإسلامى/ محمد عمارة.

ط١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.

٢٩٦ ص، ١٧ × ٢٤سم.

تدمك: 8 -1831-09 -977

١- رجال الدين الإسلامى.

٢ ـ الإسلام ـ حركات الإحياء والإصلاح والتجديد.

أ ـ العنوان ٩٢٢,١

رقم الايداع ١٩٢١٠ /٢٠٠٦م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1831- 8

الفهرس

ـ٣ـ

الإمام الشيخ : محمد البشير الإبراهيمى

-٤٠-

الإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت

ـ٥ـ

إمام الفقه والقانون الدكتور : عبد الرزاق السنهورى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

[الإحياء]: مصطلح قرآنى، يعبر بدقة متناهية عن آثار العطاء الشامل الذى جاء به الإسلام، ليهب المؤمنين به «الحياة الحقيقية» فى كل ميادين الحياة؛ سواء أكان ذلك فى المعاش الدنيوى، أم فى المعاد الأخروى - بعد هذه الحياة . .

وإذا كانت النفخة الإلهية التى نفخها الله - سبحانه وتعالى - من روحه فى الهيكل الطينى لآدم ﷺ هى التى جعلت هذا المخلوق - من طين، حمأ مسنون - أكرم خلق الله على الإطلاق، والمفضل حتى على الملائكة المقربين - الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . حتى لقد سجدوا له بأمر الله . . فإن الإسلام، بمنهاجه الشامل، هو الذى ضمن - ويضمن - الإحياء الكامل والتحرير الدائم لجميع ملكات هذا الإنسان وطاقاته - المادية منها والروحية - فى سائر ميادين حياة هذا الإنسان . . حتى ليرتفع الإنسان بهذا الإحياء الإسلامى إلى حيث يكون «الإنسان الربانى»، الذى إذا أقسم على الله أبرّه الله ! . .

إنه الماء: الذى إذا نزل على الأرض الهامدة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ! . . وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فرسالة الإسلام، وثمرات الإيمان به، والإقامة لفرائضه: هى الإحياء لهذا الإنسان.

* وفى تفسير هذا المعنى لمصطلح [الإحياء] - الوارد بهذه الآية الكريمة - يقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [١٢٩٦ - ١٣٩٣هـ / ١٨٧٩ - ١٩٧٣م] - فى تفسيره [التحرير والتنوير]:

«إن الإحياء . . هو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان . فيعم كل ما به ذلك الكمال ، من :

- إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح .

- والخلق الكريم .

- والدلالة على الأعمال الصالحة .

- وإصلاح الفرد والمجتمع .

- وما يتقوم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة .

فالشجاعة حياة النفس .

والحرية حياة .

واستقامة أحوال العيش حياة . . »[1] .

* وإذا كان الإسلام علما ومعرفة قبل أن يكون عبادات ومعاملات . . وبعبارة إمام دار الهجرة - مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ / ٧١٢ - ٧٩٥م] ﷺ : «**إن ديننا هذا علم ، وإن علمنا هذا دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم**» . . فلقد روى مالك - في [الموطأ] : «أنه : بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال : «**يا بنى ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الله الأرض الميتة بوابل السماء**» . .

* وإذا كان «التوحيد» ، الذى يبلغ فى الاعتقاد الإسلامى أعلى مستويات التنزيه والتجريد . . والذى تعلنه شهادة «أن لا إله إلا الله» ، هو جوهر الإسلام ولبّه . . فإن هذا التوحيد - الذى يفرد الذات الإلهية بالعبودية - هو الذى يحيى جميع ملكات الإنسان المؤمن ، وكل طاقاته ؛ وذلك عندما يحرر هذه الملكات والطاقات من كل ألوان الشرك والعبودية لكل الطواغيت . . فقمة العبودية لله الواحد - بالتوحيد - هى قمة الحرية والتحرير والإحياء لكل الملكات والطاقات فى الإنسان . .

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور [التحرير والتنوير] مجلد ٥ جـ ٩ ص ٣١٣ - طبعة تونس .

وصدق الله العظيم عندما وصف هذا الإسلام . . والإحياء الإسلامى ، وتحريره للمؤمنين بأنه : ﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ [الأعراف : ١٥٧] . .

فهو [الإحياء] الذى يحطم الأغلال عن الملكات والطاقات . .

* وهذا التحرير والإحياء ، الذى يمثله الإسلام فى جميع مناحى الحياة ، كما يكون فى الفرد ، يكون فى الاجتماع . . وكما يكون فى الفكر ، يكون فى الممارسات والتطبيقات . .

ولقد أدرك المفسرون القدماء ـ للقرآن الكريم ـ هذا المعنى الدقيق والعميق . . معنى : أن الحرية ، التى تحرر ملكات الإنسان وطاقاته ، وتحييها ، هى «حقيقة الحياة» . . بينما الرق ـ الذى يستعبد الإنسان لغير الله ـ هو «الموت والموات» . . فقال الإمام النسفى [٧١٠هـ ١٣١٠م] . فى تفسيره قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة ﴾ [النساء : ٩٢] . وفى تعليل هذا الحكم ـ «التحرير» مقابل «الإماتة» ـ قال :

«إنه [أى القاتل] لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء ؛ لزمه أن يُدْخل نفسًا مثلها فى جملة الأحرار ؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق : أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكما ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ [الأنعام : ١٢٢] . .»(1) .

فالكفر : رق وموت . . والإسلام : تحرير وحياة وإحياء . .

* وكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات ، فى ميادين الاستقلال للأوطان ، والتحرير للهويات ، والثقافات والحضارات . .

فالذين يَجْبنون ويخضعون لرق الاحتلال لأوطانهم ، ويذوبون فى عدوهم ، قد غدوا أمواتًا ؛ حتى ولو كانوا يأكلون ويشربون ! . .

حتى إذا تحرَّروا من هذا الجبن والرق ، فاستردوا استقلال أوطانهم ، وحرية ضمائرهم من الاحتلال والقهر والاستعمار ، عادت إليهم الروح والحياة ؛ التى تبعث الإحياء فيما لديهم من طاقات وملكات . .

---

(١) النسفى : تفسير [مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل] جـ١ ص ١٨٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ .

ولقد لمح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] هذا المعنى لمصطلح [الإحياء].. ونبَّه عليه، وهو يفسر قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤]..

فقال ـ في تفسير هذه الآيات:

«تلك سنَّة الله تعالى في الأمم التي تجبن؛ فلا تدفع العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها، في عرف الناس جميعهم، معروف.

فمعنى موت أولئك القوم هو: أن العدو نكَّل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة ـ بأن تفرق شملها ـ وذهبت جامعتها، فكل ما بقي من أفرادها خاضعين للغالبين.. ضائعين فيهم.. مدغمين في غمارهم.. لا وجود لهم في أنفسهم؛ وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم.

ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم!..

إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة، هي الحياة الملِّية ـ [الوطنية] ـ المحفوظة من عدوان المعتدين..

والقتال في سبيل الله.. أعمُّ من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل ـ أيضا ـ الدفاع عن الحوزة، إذا همَّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة، كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتَّفق الفقهاء: على أن العدو، إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»[1].

***

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢.

* ولأمر ما - بل لعله لهذا الأمر وهذا المعنى على وجه التحديد - أطلقت أمتنا - فى عصرها الحديث - على التيارات الفكرية، والمدارس الدعوية، والحركات والجماعات، التى جاهدت وناضلت لإخراج الأمة من «الموات الحضارى» لعصور التخلف والتراجع والانحطاط.. وعملت على إعادة الأمة إلى مكانتها الطبيعية، التى بوأها لها الإسلام - مكانة الريادة والقيادة والإمامة - أطلقت الأمة على هذه التيارات والدعوات والحركات مصطلح [**الإحياء**].. فسلكتها جميعًا تحت عنوان «**تيار الإحياء.. والتجديد.. والصحوة.. واليقظة**»، عندما انتظمت جميعها تحت رايات الإسلام، وانطلقت من مرجعية الإحياء الإسلامى.. والإحياء بالإسلام..

***

* ولقد كان لصاحب هذا القلم شرف الاهتمام الملحوظ بأعلام هذا التيار الإحيائى فى تراثنا الإسلامى - القديم منه.. والوسيط.. والحديث.. والمعاصر.. بدأ هذا الاهتمام منذ أربعين عامًا.. عندما جمعتُ وحققتُ ودرستُ ونشرتُ سلسلة الأعمال الكاملة لعدد من أبرز علماء مدرسة الإحياء والتجديد.. من مثل:

- **رفاعة رافع الطهطاوى** [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م].
- **جمال الدين الأفغانى** [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م].
- **الإمام محمد عبده** [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م].
- **عبد الرحمن الكواكبى** [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م].
- **على مبارك** [١٢٣٩ - ١٣١١هـ / ١٨٢٣ - ١٨٩٣م].

وحتى **قاسم أمين** [١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ / ١٨٦٣ - ١٩٠٨م].

* وغير هذه السلسلة من الدراسات المطولة، والتحقيقات لمشاريع الإحياء هذه، كانت الكتابة - للكتب أو الفصول - عن العديد من أعلام هذه المدرسة الإحيائية التجديدية - سواء فى تراثنا القديم.. من مثل:

- **عمر بن الخطاب** [٤٠ ق هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م].
- **على بن أبى طالب** [٢٣ ق هـ ٤٠ هـ / ٦٠٠ - ٦٦١م].

ـ عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١هـ / ٦٨١ ـ ٧٢٠م].

ـ الحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨م].

ـ عمرو بن عبيد [٨٠ ـ ١٤٤هـ / ٦٩٩ ـ ٧٦١م].

وغيرهم..

أو فى تراثنا الوسيط.. من مثل:

ـ الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م].

ـ ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م].

ـ العز بن عبد السلام [٥٧٧ ـ ٦٦٠هـ/ ١١٨١ ـ ١٢٦٢م].

وغيرهم..

أو فى تراثنا الحديث.. من مثل:

ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م].

ـ الإمام محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ/ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م].

ـ مهدى السودان محمد أحمد [١٢٦٠ ـ ١٣٠٢هـ/ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م].

ـ عمر مكرم [١١٦٨ ـ ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢م].

ـ خير الدين التونسى [١٢٢٥ ـ ١٣٠٨هـ/ ١٨١٠ ـ ١٨٩٠م].

وغيرهم..

أو فى تراثنا المعاصر.. من مثل:

ـ الإمام: عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ ـ ١٣٩٠هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م].

ـ الإمام الأكبر: الشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م].

ـ الأستاذ: أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ/ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م].

ـ الشيخ: محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م]

. . وغيرهم، وغيرهم من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد[1].

* * *

* والآن . . وفى هذا الكتاب . . نقدم للباحثين والمثقفين والقراء ـ خمس دراسات متميزة عن خمسة من الأعلام المتميزين فى مدرسة الإحياء والتجديد . .

دراسات عن السيرة الذاتية، والمشاريع الفكرية الإحيائية، والجهود العملية لهؤلاء الأئمة؛ الذين انتقلوا بمشروع الإحياء والتجديد من «**مرحلة الريادة**» ـ التى مثلها الأفغانى ومحمد عبده ـ إلى مرحلة «**التفصيل لمعالم المشروع الإحيائى الإسلامى، والممارسة والتطبيق**» . . ومن مرحلة «**الصفوة والنخبة**» إلى مرحلة «**الأمة والجماهير**» . .

ولقد حرصنا على أن تمثل ـ فصول هذا الكتاب ـ السمات والقسمات التى تؤلف جماع ميادين الإحياء والتجديد . . وفق شمولية الإسلام وعالميته . . ووفق وحدة المرجعية الإسلامية . . ووحدة دار الإسلام وأمة الإسلام . . حتى يكون بمثابة «**ديوان الإحياء**» من خلال هؤلاء الأعلام . .

١ ـ **فالإمام الشيخ: محمد رشيد رضا** [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] وهو الذى حمل رسالة الرواد ـ الأفغانى ومحمد عبده ـ وقدمها ـ عبر مجلة [المنار] ـ إلى شعوب الأمة الإسلامية وأوطانها على امتداد نحو أربعين عامًا . . فأقام «المدرسة» التى تخرّجت منها تيارات الصحوة الإسلامية المعاصرة وحركاتها . .

وهو الذى اقترب بهذا المشروع الإحيائى من الأمة والجماهير . .

٢ ـ **والإمام الشهيد: حسن البنا** [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] وهو الذى تسلم الأمانة من جيل الرواد ـ عبر رشيد رضا ـ ليضع شمولية الإسلام فى الممارسة والتطبيق . . وليستدعى الأمة والجماهير لتحمل هذه الأمانة مع الصفوة والنخبة

---

(١) لقد ضم كتابنا [مسلمون ثوار] ـ طبعة دار الشروق ـ واحدًا وعشرين فصلاً عن واحد وعشرين علمًا من هؤلاء الأعلام . . كما ضم كتابنا [شخصيات لها تاريخ] ـ طبعة مركز الراية ودار السلام ـ خمسًا وأربعين دراسة عن خمسة وأربعين علمًا من أعلام الإحياء والتجديد.

والعلماء ـ بعد عموم بلوى الاستعمار والتغريب . . وليقيم «الحركة» التى حملت المشروع الإحيائى إلى مختلف أنحاء العالم الذى نعيش فيه! . .

٣ ـ والإمام الشيخ : **محمد البشير الإبراهيمى** [١٣٠٦ ـ ١٣٥٩هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] وهو الذى انتقل بهذا المشروع الإحيائى ـ مع رفيقه الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس ـ من المركز ـ مصر ـ إلى المغرب العربى ـ وخاصة الجزائر ـ لإحيائها من موات الاستعمار . . والبدع والخرافات . . فبرهن على عالمية المشروع الإحيائى ، النابعة من عالمية الإسلام . .

٤ ـ **والإمام الأكبر الشيخ : محمود شلتوت** [١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م] وهو الذى مثل ـ بعقله الفقهى المتميز ـ قمة التجديد الفقهى فى القرن الرابع عشر الهجرى ـ العشرين الميلادى ـ وذلك عندما واكب فقهه للأحكام فقهه للواقع الجديد ، فكانت اجتهاداته الفقهية «أصولية دائماً . . ومتجددة أبداً»! . .

٥ ـ **أما إمام الفقه والقانون الدكتور : عبد الرزاق السنهورى باشا** [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] فإنه الفقيه الذى أعاد اللقاء بين فقه الشريعة ـ كما تبلور فى تراثنا ـ وبين القانون الحديث ـ بما تميز به من فن الصياغة والتقنين . ـ فأزال الفصام النكد الذى صنعه الاستعمار والعلمانية ، بين فقه الشريعة وبين القانون الحديث . . حتى لقد أطلق عليه أساتذته الفرنسيون ـ فى باريس سنة ١٩٢٦م ـ وهو يدرس القوانين الأوروبية ـ لقب «الإمام الخامس» فى فقه الإسلام! . .

فكان تفرُّده ـ عالميا ـ «بوضع» القانون المدنى «وشرحه» مقارنا لعمله على بعث الشريعة الإسلامية لتتخطى أعناق القرون . . وعلى التجديد لفقهها ، حتى تكون المصدر الوحيد للقانون الموحد فى وطن العروبة وعالم الإسلام . .[١]

***

نعم . . تلك هى رسالة هذا الكتاب ، الذى تُقدم فصولُه الخمسة مرحلة متميزة من مراحل [الإحياء الإسلامى] . .

والتى تؤكد ـ هذه الفصول كذلك ـ على تكامل السمات والقسمات فى هذه الظاهرة الواحدة المتحدة . . ظاهرة الإحياء بالإسلام . . «**لأنه هو السبب المفرد لسعادة**

(١) انظر كتابنا [إسلاميات السنهورى باشا] ـ فى مجلدين ـ طبعة دار الوفاء سنة ٢٠٠٦م.

الإنسان» . . كما قال ـ رائد الإحياء الإسلامى ـ جمال الدين الأفغانى . . قبل قرن ونصف من الزمان! . .

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب . . وأن يُعين على نصرة دينه . . وأمّة نبيه محمد ﷺ ودار الإسلام . .

إنه ـ سبحانه ـ أفضل مسئول . . وأكرم مجيب .

د. محمد عمارة

القاهرة فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٤٢٧ هـ

٣٠ مايو سنة ٢٠٠٦م

(١)

الإمام الشيخ

محمد رشيد رضا

[١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م]

- ١ -

بطاقة حياة

* هو «السيد» محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين منلا على خليفة القلمونى [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] - نسبة إلى بلدته «القلمون» . . إحدى قرى نواحى «طرابلس» الشام . .

* ولقد نزحت أسرته إلى «القلمون» من بغداد - فهو بغدادى الأصل - . . أما لقب «السيد» الذى اشتهر به، واعتز به - فلأن أسرته «شريفة»، يرتفع نسبها إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهما . .

* ولد رشيد رضا بقرية «القلمون»، فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥م . . والمشرق العربى خاضع للدولة العثمانية . . و«طرابلس» الشام ولاية من ولاياتها . .

* وفى المحيط المتدين للأسرة: بدأ رشيد رضا يتلقى دروس تعليمه الأولى بقريته، على عادة عصره، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ بأسباب التعليم التى تؤهله كى يكون عالـمًا من علماء الإسلام . .

* وفى «طرابلس» - عاصمة الولاية - التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية . . كما درس فى «بيروت» . وانتهى به المطاف - بعد أن درس علوم: القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، واللغة العربية، والفقه - إلى نيل شهادة «العالمية» من طرابلس، بعد أن حصّل ما يشابه علوم الأزهر الشريف فى مصر . .

ولقد تتلمذ في تعليمه هذا، على نفر من علماء سورية وأدبائها البارزين، مثل الشيخ حسين الجسر [١٢٦١ ـ ١٣٢٧هـ / ١٨٤٥ ـ ١٩٠٩م] والشيخ عبد الغني الرافعي [١٢٣٦ ـ ١٣٠٨هـ / ١٨٢١ ـ ١٨٩١م].

* ولقد كان تحصيله ثمرة لمنهاج دراسته، يغلب عليه الطابع السلفي، الذي يهتم «بالمنقول»، مع فضيلة التدقيق في «الأسانيد»، دينية كانت ـ علوم هذا «المنقول» ـ أو تاريخية.

* ومن الكتب التي طبعت فكره ووجهت سلوكه ـ في المرحلة الأولى من حياته ـ كتاب [إحياء علوم الدين] لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م].. فلقد مال به إلى الزهد، وسلكه في سلك الصوفية، فأصبح واحداً من «المريدين» في «طريقة النقشبندية» الصوفية الشهيرة.

واشتغل بالوعظ والإرشاد في قريته والقرى المجاورة لها، حتى لقد كانت نزهاته التي يروّح بها عن نفسه في القرى المجاورة مجالا لعظات يلقيها على الناس، مستعيناً بكتب المواعظ السلفية، من أمثال كتب [الزواجر عن اقتراف الكبائر]..

* ولقد تهيأ له ـ في هذه الفترة ـ أن يتدرب على الخطابة الدينية فأجادها. كما طمح إلى الكتابة، فألّف كتابا عن [الحكمة الشرعية].. ونشر في إحدى الصحف مقالا طويلا عن الأخلاق، وكيف أنها هي والوجدان مصدر عمل الإنسان.. كذلك صاغ بعض أفكاره شعراً منظوماً..

* ولقد تصادف أن ولّت الدولة العثمانية على طرابلس «متصرفا» كان من أنصار الحرية، هو حسن باشا سامي.. وفي أحد الاجتماعات ـ التي حضرها ـ خطب الشيخ رشيد خطابا تحدث فيه عن طبقات الأمة، حاكمين ومحكومين، وحبذ أن يكون العمل هو معيار التمايز بين الطبقات.. وهو فكر استاء منه البعض، وخشي عليه أصدقاؤه مغبته.. لكن «المتصرف» التركي أعجب به، فعين الشيخ رشيد ـ عقب ذلك ـ عضوا في «شعبة المعارف» بطرابلس!..

* وفي سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ ـ ١٨٩٣م) ـ وكان الشيخ رشيد في الثامنة والعشرين من عمره ـ حدث لفكره وسلوكه تحول عظيم.. فبينما هو يقلب الأوراق في محفوظات والده، إذا به يعثر على بعض أعداد مجلة [العروة الوثقى] التي أصدرها

فيلسوف الإسلام، وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] من باريس سنة ١٨٨٤م ـ لسان حال الجمعية [العروة الوثقى]. والتى توقفت بعد ثمانية عشر عددا.. فقرأ الشيخ رشيد هذه الأعداد، التى أحدثت مقالاتها فى عقله ووجدانه انقلابا شاملا.. فأخذ يبحث عن بقية أعداد المجلة، فوجدها كاملة فى مكتبة شيخه حسين الجسر، فنسخها، وأكب على مطالعتها وفقهها مرات ومرات، فتغيرت صورة الإسلام فى فكره، ومن ثم تغيرت صورة المسلم النموذجى، ورسالته فى الحياة.. فلم يعد الإسلام هو زهد [إحياء علوم الدين]... ولم يعد المسلم هو السلفى العاكف على إصلاح العقيدة وحدها.. وإنما تبدى له الإسلام ـ مع ذلك ـ الدين الذى يوازن بين الدين والدنيا.. والفرد والمجموع.. والحضارة والشعائر.. والتمدن وتطهير القلوب.. الإسلام المجاهد فى سبيل إصلاح دنيا المسلمين، التى هى السبيل لإصلاح أخراهم وسعادتهم فيها!..

* ولقد تحدث الشيخ رشيد عن هذا الانقلاب ـ الذى أحدثته مقالات [العروة الوثقى] ـ فى حياته ـ وهو لما يزل طالبا للعلم فى طرابلس ـ فقال:

"..ثم إنى رأيت فى محفوظات والدى بعض نسخ [العروة الوثقى] فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال، والحرارة والاشتعال؛ ما قذف بى من طور إلى طور، ومن حال إلى حال.. كان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية، ويليه تأثير المقالات السياسية فى المسألة المصرية. والذى علمته من نفسى ومن غيرى ومن التاريخ: أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر، ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا..»!!..

لقد تعلم من [العروة الوثقى] أن الإسلام ليس روحانيًا أخرويًا فقط؛ بل هو دين روحانى جسمانى، أخروى دنيوى، **من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق، ليكون خليفة لله فى تقرير المحبة والعدل!.**

وهو يمضى مصورًا معالم ذلك الانقلاب الذى حدث له، فيقول:

«ولقد أحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين؛ فقد كان همى قبل ذلك محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم فى الدنيا.. فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات، وجميع مقومات الحياة، فطفقت أستعد لذلك استعداداً..».

* ومنذ ذلك التاريخ، وهذه التحولات فى الفكر والتوجهات، تاقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين جمال الدين الأفغانى ـ الذى كان يعيش يومئذ بالآستانة ـ والإمام محمد عبده ـ الذى كان قد عاد من منفاه إلى مصر ـ فكتب الشيخ رشيد إلى الأفغانى كتابا بليغا، امتلأت عباراته بشحنات الإكبار والإعجاب والتمجيد..

ثم سنحت له الفرصة، فلقى الشيخ محمد عبده مرتين، لقاء عابرا:

المرة الأولى: عندما ذهب الأستاذ الإمام لزيارة «المدرسة الخاتونية» بطرابلس..

والمرة الثانية: عند زيارته لطرابلس، مصطافا، وبصحبته القانونى المصرى البارز أحمد فتحى باشا زغلول [١٢٨٠ ـ ١٣٣٢هـ / ١٨٦٣ ـ ١٩١٤م]..

وفى هذين اللقاءين: عبّر الشيخ رشيد للأستاذ الإمام عن إعجابه به وبالأفغانى، وعن تأثير [العروة الوثقى] فى التحول الذى حدث له، وكيف انتقلت به من طور إلى طور، **فأخرجته من قوقعة «التنسك الصوفى» إلى رحاب «الإسلام المصلح»** ـ على نحو ما صنع الأفغانى بالشيخ محمد عبده عندما تقابلا ـ بمصر ـ فى مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر!..

* ولم يفكر الشيخ رشيد فى السفر إلى الآستانة ليتتلمذ على الأفغانى.. فلقد كان يعلم أن المناخ هناك ـ من الناحية الفكرية ـ قاتل للإبداع والطموح.. وأن الأفغانى ـ فى الآستانة ـ يحيط به من جواسيس السلطان أكثر مما يحيط به من التلاميذ!..

* فلما توفى الأفغانى سنة ١٣١٤هـ / سنة ١٨٩٧م، توحدت وجهة الشيخ رشيد، فنشأت لديه فكرة الهجرة إلى مصر؛ كى يتخذ من الشيخ محمد عبده أستاذاً، وليكون موقعه منه كموقع محمد عبده من جمال الدين!.. فأخذ يعد عدته للسفر،

فادخر من أجره عن تحرير «الحُجج» و«العقود» نفقات رحلته ـ كما يقول ـ . . ثم تسلل إلى إحدى السفن الذاهبة إلى الإسكندرية، فوصلها مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥هـ / أول ديسمبر سنة ١٨٩٧م ـ . ومن الإسكندرية قام برحلة إلى «طنطا»، «فالمنصورة»، «فدمياط»، «فطنطا» ـ ثانية ـ . . ثم وصل القاهرة يوم السبت ٢٣ رجب سنة ١٣١٥هـ / ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٧م ـ . . وفي اليوم التالى ـ مباشرة ـ ذهب لزيارة الأستاذ الإمام . .

* وفى القاهرة وضع الشيخ رشيد قدمه على طريق تحقيق ما بنفسه من طموحات وآمال . . ووفق عبارته:

«فلقد كنت أعتقد أن استعدادى كله يبقى ضائعًا إذا بقيت فى سورية، وأنه لا يمكن أن يظهر هذا الاستعداد بالعمل إلا فى مصر، لما فيها من الحرية المفقودة فى البلاد العثمانية . . »!

* ولقد كانت عينه ـ وهو يفكر فى تحقيق طموحاته المستقبلية، والدور الذى تطلع إليه ـ على ذلك الحدث الذى هزّ كيانه، وحوّل اتجاهه، وهيأ له الاكتشاف الصادق لحقيقة الإسلام ـ حدث [العروة الوثقى] ـ فهو يريد إصدار مجلة تحل محل [العروة] وتواصل رسالتها . . وتحمل هذا الإسلام الشامل ورسالته الإصلاحية إلى عالم الإسلام والمسلمين . .

وإذا كانت [العروة الوثقى] قد جاءت ثمرة لصحبة محمد عبده للأفغانى، وتتلمذه عليه، وزمالته له . . فلتكن [المنار] ـ وهى المجلة التى يطمح فى إصدارها ـ هى [العروة الوثقى] الجديدة، وليكن هو «ترجمان أفكار» الأستاذ الإمام . . فلا بد للإصلاح من زعيم تثق به الأمة . . وهو الآن محمد عبده، ولا بد لهذا الإصلاح من «ترجمان»، فليكن هو هذا الترجمان . . ولتكن [المنار] هى الامتداد الجديد، والمتطور [للعروة الوثقى].

* وفى لقائه بالأستاذ الإمام ـ فى ٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ / ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٧م ـ عرض عليه مشروعه ـ مشروع إصدار مجلة [المنار] ـ فباركه الأستاذ الإمام، بعد أن استوثق أن المجلة «**ستبحث فى موضوع مرض الأمة وضعفها، وفى معالجتها**

بالتربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التى فشت، كالجبر والخرافات..». وأن لدى صاحب المشروع - الشيخ رشيد - القدرة المالية على الإنفاق عليه عاما أو عامين، حتى يستقر ويجلب الأرباح التى تضمن له الاستمرار.. وفى هذا اللقاء قال الأستاذ الإمام للشيخ رشيد:

- إن كان هذا، فهو حسن، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها. وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة؛ فإنى أساعدها بكل جهدى.

فأجابه الشيخ رشيد:

- إنى أعاهدكم على أن أكون معكم: كالمريد مع أستاذه - على نحو مما يقول الصوفية - ولكنى أحفظ لنفسى شيئًا واحدًا أخالفهم فيه، وهو: أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله، ولا أقبل إلا ما أفهمه، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته.

فقال له الإمام:

- هذا ضرورى لا بد منه!

* وفى لقاء تال - فى ٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ/٦ يناير سنة ١٨٩٨م - طلب الأستاذ الإمام من الشيخ رشيد:

١ - أن لا تتحيز الجريدة لحزب من الأحزاب.

٢ - ولا تهتم بالرد على ذامٍّ أو منتقد.

٣ - ولا تخدم أحدًا ممن يسميهم الناس «كبراء».. تستخدمهم نعم.. لكنها لا تكون فى خدمتهم!

فوافق الشيخ رشيد على ما طلب الأستاذ الإمام..

* وفى ٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ/١٧ مارس سنة ١٨٩٨م صدر العدد الأول من جريدة [المنار] لتواصل رسالة [العروة الوثقى] مع مراعاة الزمان والمكان والظروف والملابسات.. ومع مراعاة تميز منهاج الأستاذ الإمام فى أولويات الإصلاح عن منهاج أستاذه الأفغانى فى هذه الأولويات.. صدرت [المنار] لتركز على الإصلاح الدينى.. وربط الشريعة بالواقع المتطور.. وتطهير العقيدة من الخرافات.. وتحرير العقل من

الجمود والتقليد.. وعقد المصالحة بين الدين والعلم.. والعقل والنقل.. والإسلام والتمدن.. إلخ... إلخ..

ولقد بلغت ـ في ذلك ـ على امتداد عمرها، الذى امتد حتى وفاة الشيخ رشيد سنة ١٣٥٤هـ سنة ١٩٣٥م، ما لم يبلغه منبر إسلامى شهدته الأمة فى ذلك التاريخ.. فكانت، بحق، «ترجمان أفكار» الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. أى المنار لأعظم تيارات التجديد الإسلامى فى العصر الحديث.. وكانت «المشكاة» التى أضاءت من خلالها أنوار العبقرية التجديدية للشيخ محمد عبده.. ولولاها لخبت فى عقل هذا الرجل نيرانه وأنواره على حد سواء!..

ففضل الشيخ رشيد بتعدى حدود التعبير عن حركة التجديد التى مثلها الإمام محمد عبده، إلى الإسهام فى قدح زناد هذا الفكر المجدد للإمام، وتفجير ينابيعه، وتهيئة السبل والمناسبات وخلق الدواعي لاستمرار تدفقه.. هذا إلى الإسهام الجاد والخلاق فى هذا التجديد.. ثم ـ وهذا هام جدا ـ حمل هذا الفكر التجديدى والإصلاحى إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى على امتداد ما يقرب من أربعين عامًا!..

وعن مكانة الشيخ رشيد من فكر الأستاذ الإمام.. يقول الأستاذ:

«إن الله بعث إلىَّ بهذا الشاب ليكون مددًا لحياتى، ومزيدا فى عمرى. إن فى نفسى أمورا كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما يشغلنى عنها، وهو [رشيد رضا] يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد، وإذا ذكرت له موضوعًا ليكتب فيه؛ فإنه يكتبه كما أحب، ويقول ما كنت أريد أن أقول، وإذا قلت له شيئًا مجملاً، بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهو يتم ما بدأت، ويفصِّل ما أجملت»!.

* ولقد كان طبيعيًا أن يحارب [المنار] معارك الأستاذ الإمام ضد خصومه.. وأن تصيب صاحبه السهام المصوبة إلى الأستاذ الإمام.. حتى لقد حاول هؤلاء الخصوم التفريق بين الرجلين، فلما فشلوا.. هموا بإخراج الشيخ رشيد من مصر، وأوعزوا إلى الدولة العثمانية أن تستدعيه بحجة أنه متخلف عن تأدية الخدمة العسكرية!!.. وكادوا ينجحون لولا أن أثبت الرجل بالوثائق أنه قد تمتع بالإعفاء من الجندية لطلبه العلم أولا، ثم لبلوغه مرتبة العلماء المشتغلين بتدريس العلم بعد ذلك!.

* وعندما حانت منية الأستاذ الإمام سنة ١٣٢٣هـ/سنة ١٩٠٥م، كانت قد رسخت في الأذهان حقيقة سلم بها الجميع، وهي أن مكانة الشيخ رشيد من الأستاذ الإمام هي مكانة الإمام من أستاذه الأفغاني.. وأنه هو رأس حركة الإصلاح الإسلامي بعده، وأبرز تلاميذه العاملين في هذا الميدان.. بل لقد عبَّر الأستاذ الإمام - تلميحا - عن هذه الحقيقة في الأبيات التي نظمها وهو على فراش الموت، عندما صوَّر رسالته الإصلاحية ومكان الشيخ رشيد، باعتباره «مرشدا رشيدا» يأمل الأستاذ الإمام أن يواصل السير بعده على طريق الإصلاح الديني والإحياء الإسلامي، الذي مثلته هذه المدرسة الإحيائية في عصرنا الحديث.. عبر الأستاذ الإمام عن ذلك، فقال:

«ولست أبالي أن يقال محمدٌ أبلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يُرَجّون نيلها إذا متُّ ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رُجعي قريبة إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلما وحكمة ويُشبه مني السيف، والسيف صارم»!

* وبعد وفاة الأستاذ الإمام، مضى الشيخ رشيد ناهضا بالريادة في ميدان الإصلاح الديني.. وكانت علاقاته قد توطت وتوثَّقت بتلاميذ الإمام محمد عبده من أقطاب الفكر والصحافة والسياسة بمصر.. وأيضا بكوكبة من أبرز الزعماء والمفكرين والمصلحين العرب والمسلمين، الذين اتخذوا مصر موطنا لنضالهم، بعد أن لجئوا إلى الهجرة فرارا من اضطهاد آل عثمان - بالمشرق - أو الاستعمار الفرنسي - بالمغرب..

* ولكن انفراد الشيخ رشيد بالعمل في الحقل الإسلامي - بعد وفاة الأستاذ الإمام - قد طبع فكره وممارساته بقسمتين لم تكونا ملحوظتين عندما كان يعمل في ظل شخصية الشيخ محمد عبده وفكره:

١ - فالتكوين السلفي النصوصي المبكر للشيخ رشيد، والذي يهتم «بالمنقول» أكثر من «المعقول»، والذي كان قد توارى فترة صحبته للأستاذ الإمام، قد عاد إلى البروز مرة

أخرى! . . . ولقد ظهر ذلك فى الأجزاء التى فسرها من القرآن الكريم، مواصلا تفسير أستاذه الإمام. . لقد غلبت «الرواية». على «الدراية». . وغلب «المنقول» على «المعقول»، فى تفسير هذه الأجزاء. . وإن ظل للعقل مكان ملحوظ فى عطائه. .

٢ ـ كذلك زاد انغماس الشيخ رشيد ـ بعد رحيل أستاذه ـ فى السياسة والعمل السياسى. . فأفاض فى معالجة علاقات العرب والأتراك. . والمسألة الشرقية. . والتدخل الاستعمارى الغربى فى الشرق العربى والإسلامى. . كما كان فى طليعة الذين أبصروا خطر المشروع الصهيونى على فلسطين والعرب والمسلمين. .

وفى الممارسة السياسية، وجدناه قطبا من أقطاب [حزب اللامركزية] الذى تألَّف من مجاهدى المشرق العربى لإبراز الكيان العربى فى الإطار العثمانى، وهو الحزب الذى تألَّف بالقاهرة [سنة ١٣٣٠هـ سنة ١٩١٢م]. . ووجدنا العلاقات الوثيقة بينه وبين حركة الشريف حسين بن على [١٢٧٢ ـ ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٦ ـ ١٩٣١م] لتأسيس دولة عربية مستقلة عن العثمانيين. . حتى لقد ذهب إلى سورية عندما أعلن أهلها استقلالها تحت حكم الملك فيصل بن الحسين [١٣٠٠ ـ ١٣٥٢هـ/ ١٨٨٣ ـ ١٩٣٣م]. .

وانتخب رئيسًا للمؤتمر السوري فيها، ولم يغادرها إلا عندما أجهض الاحتلال الفرنسى هذا الكيان العربى [١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م].

* كذلك وجدنا الشيخ رشيد، داعية من دعاة الإصلاح الدستورى للدولة العثمانية، يزور الشام، ويخطب للإصلاح من فوق منبر الجامع الأموى بدمشق، عقب إعلان الدستور العثمانى [سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م]، حتى لقد فجرت خطبته «الصراع بين أعداء الإصلاح وأنصاره» الأمر الذى اضطره إلى العودة إلى مصر! . .

* كما رأينا رحلاته إلى الحجاز، والعراق، والهند، وثيقة الصلة بالإصلاح السياسى ممزوجا بالإصلاح الدينى. .

* وذلك غير رحلته إلى حج بيت الله الحرام سنة ١٤٣٤هـسنة ١٩١٦م. .

* ناهيك بعلاقاته الوثيقة بالحركة الوهابية، وزعيمها الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٧ ـ ١٣٧٢هـ/ ١٨٨٠ ـ ١٩٥٣م]. . وكتابه عن [الوهابيون والحجاز] شهير وشاهد على هذه العلاقات. .

* لقد برز الطابع السياسى فى دعوته الإصلاحية، وأخذت السياسة الدولية، بصراعاتها ونوازلها، وتوازنات قواها، تجد لها مكانا بارزًا على صفحات [المنار].. من الثورة البلشفية إلى المسألة الليبية!.. مرورا بالهند ومراكش والحجاز.. إلخ.. إلخ.. وهو طابع لم يكن بهذا الوضوح على عهد صحبته للأستاذ الإمام.. بل إن الشيخ رشيد يكتب عن هذا التحول فى افتتاحية المجلد الثانى عشر من [المنار] سنة ١٣٢٧هـ/ سنة١٩٠٩م ـ أى بعد أربع سنوات من وفاة الأستاذ الإمام، فيقول:

«سالمنا السياسة: فساورت وواثبت! وأسلسنا لها: فجمحت وتقحمت! وكنانهم بها فى بعض الأحيان، فيصدف بها عنا الأستاذ الإمام! ولم ننل منها ما نهواه، إلا بعد أن اصطفاه الله»!!..

* وإذا كان التراجع الجزئى من الشيخ رشيد عن «المعقول» إلى «المنقول» وعن «الدراية» إلى «الرواية» ـ بعد حياة الأستاذ الإمام ـ مما يحسب عليه.. فإن تزايد الاهتمام عنده بالسياسات هو مما يحسب له..؛ لأنه كان فى ذلك مستجيبا لتزايد حدة التحديات السياسية التى نزلت بالعرب والمسلمين بعد حياة الأستاذ الإمام.. وبتزايد مخاطر العلمانية والتنصير والإلحاد على حركة الإصلاح الإسلامى، تبعا لتزايد التغريب والغزو الفكرى المصاحب لعموم بلوى الاستعمار لعالم الإسلام.

* وإذا كان [المنار] قد ظل الميدان الأول لفروسية رشيد رضا الفكرية.. فإن مؤلفاته وتحقيقاته قد كانت ميادين أخرى، هامة ونافعة لهذه الفروسية الفكرية.. ومن هذه الآثار الفكرية النفيسة لهذا الإمام الجليل:

[تفسير المنار] ـ فى اثنى عشر مجلدا، فسّر فيها اثنى عشر جزءاً من القرآن الكريم.. وضمّنه تفسير الإمام محمد عبده لما فسر من القرآن..

و[تاريخ الأستاذ الإمام] ـ فى ثلاث مجلدات.. و[الوحى المحمدى].. و[شبهات النصارى وحجج الإسلام].. و[عقيدة الصلب والفداء].. و[المسلمون والقبط والمؤتمر المصرى].. و[محاورات المصلح والمقلد].. و[الوهابيون والحجاز].. و[ذكرى المولد النبوى].. و[الخلافة.. أو الإمامة العظمى].. و[نداء الجنس اللطيف] و[يسر الإسلام وأصول التشريع]..

* كما أشرف على طبع الآثار الفكرية للأستاذ الإمام.. وأعاد ـ فى [المنار] ـ نشر أغلب مقالات [العروة الوثقى].

* وكذلك أشرف على تحقيق العديد من الكتب التراثية المتميزة، مواصلا بذلك جهود لجنة إحياء الكتب العربية ـ التى كونها أستاذه الإمام محمد عبده ـ من مثل كتب: [تفسير ابن كثير] و[تفسير البغوى] و[العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ] للمقبلى، و[شرح عقيدة السفارينى] لابن قدامة، و[المغنى فى شرح مختصر الخرقى] و[دلائل الإعجاز] للجرجانى، [وإنجيل برنابا].. إلخ.. إلخ..

* لقد امتدت حياة هذا الإمام الكبير ثلاثة وثمانين عاما.. منها خمسون عاما امتلأت بالفكر والممارسة على طريق الإصلاح، وخاصة منذ أن جاء إلى مصر، وصحب أستاذه الإمام محمد عبده.

* حتى إذا حان الأجل، لبَّت نفسه الزكية نداء بارئها، فى حادث سيارة، كانت عائدة به من مدينة السويس إلى القاهرة، ففاضت روحه فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ / ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٥م.. وذلك بعد أن أدت حق الله ورسوله ﷺ فى تجديد الدين، وطلب القوة والمنعة والسعادة للإسلام والمسلمين؛ **وذلك حتى تتحقق «للإنسان السيادة فى الأرض بالحق، ليكون خليفة لله فى تقرير المحبة والعدل.. ولينهض المسلمون ليحافظوا على ملكهم، متسلحين بالمدنية، سابقين الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة».**

فذلك هو الإسلام.. كما كشفت [العروة الوثقى] عن وجهه المشرق للشيخ رشيد.. فوهب له حياته.. ومات فى سبيله.. عليه رحمة الله[1].

* * *

---

(١) انظر فى ذلك:

رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ١ ص ٨٤، ٨٥، ١٠٠١، ٩٩٦، ٣٠٣، ٨٤، ٨٥ـ٨٧، ٣٩٠، ٩٩٨، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م.

والإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ١٣٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

ـ ٢ ـ

منار الإحياء والتجديد

لا نبالغ إذا قلنا: إن [المنار] كانت الإنجاز الأعظم للإحياء الإسلامى على امتداد العمر الفكرى للشيخ رشيد رضا.. والإنجاز الأعظم لفكر هذا المصلح الإسلامى الكبير.. فحتى كتبه ورسائله ومعاركه الفكرية؛ بل ومشروعاته العملية قد بدأت وظهرت أولا على صفحات [المنار]..

لقد مثلت مجلداتها ـ الخمسة والثلاثون ـ ديوان تيار الفكر الإحيائى.. ذلك أنها قد صدرت:

* لحمل رسالة مدرسة الإحياء الدينى والتجديد الإسلامى إلى كل أقطار عالم الإسلام..

* وتزكية الخيار الإسلامى الوَسَطى سبيلا للنهضة الإسلامية والشرقية.. رافضة الجمود الذى يقلد السلف، والتبعية التى تقلد النموذج الحضارى الغربى..

* وإعادة نشر مقالات [العروة الوثقى].. ومقالات الإمام محمد عبده التى سبق نشرها فى [الوقائع المصرية] ـ باعتبار [المنار] الامتداد لهذا الاتجاه.

* وديوان تجديد وإبداع الإمام محمد عبده فى تحرير العقل الإسلامى من أغلال الجمود والتقليد..

* وتنقية العقيدة من شبهات الشرك الجلى والخفى.. ومن البدع والخرافات.

* والدفاع عن الشريعة الإسلامية وعلومها.. وعن اللغة العربية وعلومها وآدابها وفنونها..

* ونشر الفتاوى المعاصرة، التى تفقه الأحكام وتفقه الواقع الجديد، لتعقد القران بين فقه الواقع وفقه الأحكام . .

* ولتبصير الأمة بالفروق بين الدين الإلهى المقدس والمعصوم والملزم، وبين العادات والتقاليد والأعراف . .

* والدفاع الواعى عن وحدة الأمة والجامعة الإسلامية، التى هى جنسية الشرقيين على اختلاف قومياتهم ومللهم وأوطانهم . .

* والتأييد ـ البصير . . والناقد ـ للدولة الإسلامية الجامعة ـ يومئذ ـ وهى الدولة العثمانية . . مع الدعوة إلى إصلاح مفاسدها، وتلافى عيوب إدارتها، وشد أزرها فى مواجهة أعدائها من الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية . . ومن النزعات الانفصالية . .

* والتحذير من تقليد الحضارة الغربية الغازية . . مع الدعوة إلى تعلم علوم الغرب، وخبراته فى التقدم ـ التى هى مشترك إنسانى عام ـ . .

* والدعوة إلى الإصلاح الاقتصادى، الذى يحرر اقتصاديات العالم الإسلامى من النهب الاستعمارى الغربى؛ وذلك ليكون الاقتصاد المتحرر دعامة للاستقلال الحضارى والسياسى . .

* ومحاربة التنصير، ومطاردة دعاته، ودحض ادعاءاته عبر عالم الإسلام . . وتسليح المسلمين بأدوات مقاومة شبهاته ومفترياته . . وتأليف الكتب . . والجمعيات والمؤسسات ـ العلمية . . والخيرية . . والاجتماعية ـ لتكون جهود الأمة فى الإصلاح أفعل وأجدى وأدوم . .

* والتأكيد على منهاج التدرج فى الإصلاح؛ لأن صياغة الإنسان صياغة إسلامية، وتكوين الصفوة ـ من العلماء والمفكرين ـ وتهيئة الواقع لتقبل المنهاج الإسلامى، لا بد فيها من التدرج .

* والإلحاح على ضرورة ترتيب الأولويات فى الإصلاح . . فإصلاح مناهج الفكر، والمؤسسات التى تصنع العقل المسلم، وتصوغ الوجدان الإسلامى، هى أولى درجات

سلم الإصلاح . . وتربية الأمة، مقدمة على الاستيلاء على «الدولة» . . وسياسة التربية سابقة على تربية السياسة . .

* والنظر إلى السياسة بمنظار عالمية الإسلام، وعالمية الأمة الإسلامية . .

* ولقد حملت [المنار] إلى العالم الإسلامي منهاجًا جديداً وفريداً في تفسير القرآن الكريم، تمثل فيما دونه الشيخ رشيد رضا من دروس الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن، على امتداد ست سنوات ـ من شهر المحرم سنة ١٣١٧هـ (مايو سنة ١٨٩٩م) وحتى وفاته سنة ١٩٠٥م . . حملته أعداد المنار إلى القراء على امتداد اثنى عشر عاماً ـ من شهر المحرم سنة ١٣١٨هـ (مايو سنة ١٩٠٠م) وحتى جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ (مايو سنة ١٩١٢م) . . ثم أخذ الشيخ رشيد في مواصلة هذا التفسير . .

ولقد كان هذا التفسير . . الذى اشتهر [بتفسير المنار] فتحًا جديداً في عالم التفسير للقرآن الكريم . . وفى تاريخ هذا التفسير . . وبعبارة الإمام محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] . .

«فلقد كان تفسير الأستاذ الإمام للقرآن: المنهاج المعجزة فى التفسير، المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع . . أبلغ من تكلم فى التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله فى القرآن، وبين آياته فى الأكوان، فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم . . فهو آية على أن القرآن لا يفسَّر إلا بلسانين: لسان العرب، ولسان الزمان . . ولقد جاء تفسيرا، لا للقرآن؛ بل لمعجزات القرآن»[1]!!

نعم . . صدرت [المنار] لتحمل هذه الرسالة الإصلاحية الإحيائية التجديدية إلى كل أقطار عالم الإسلام . . حتى لقد فتحت نوافذ الفكر والعلم والتعليم والاستنارة أمام بقاع إسلامية كانت تعيش فى ظلمات الجهل والجاهلية، بعيدة عن الحدود الدنيا من العلم والتعلم!! . . واستمرت [المنار] فى حملها لهذه الرسالة، وفى إشاعتها، وفى إحداث التراكم المعرفى الإسلامى على امتداد ما يقرب من أربعين عاما هجريًا [١٣١٥ ـ ١٣٥٤هـ/١٨٩٨ ـ ١٩٣٥م] فكانت ديوان النهضة الإسلامية طوال ذلك التاريخ . .

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي جـ٢ ص ٢٥٢. جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

* ولقد وصف الإمام محمد عبده منهاج [المنار] فقال: «إن الحق يظهر فى [المنار] عريانا فى الغالب، ليس عليه شىء من الحلى والحلل التى تجذب إليه أنظار من لم يألفوا الحق لذاته»!

ولذلك كان [المنار] سابحا - بمناخ غير ملائم - ضد التيارات الطاغية على فكر الأمة فى ذلك التاريخ.. تيار الجمود والتقليد، المتحصن بالمؤسسات الموروثة - التعليمية منها والصوفية - وتيار التغريب، الذى اشتد عوده فى ظلال الاستعمار، بعد هزيمة الثورة العرابية [سنة ١٢٩٩ هـ / سنة ١٨٨٢م]..

ولقد قاومت الحكومة العثمانية هذه المجلة عند صدورها، وحرَّمت على رعاياها تلقيها - كما سبق وصنعت السلطات الإنجليزية مع [العروة الوثقى]!.. ورد أغلب المصريين الذين أرسلت إليهم أعدادها بالبريد - مجانا - ردوها إلى الشيخ رشيد رضا!.. ولم يبدأ رواجها، وتعلُّق الناس بها؛ إلا بعد خمس سنوات من صدورها!.. فكان استمرارها درسا فى الجهاد والصمود؛ ذلك أن صاحبها قد نظر إليها نظرته إلى أداء الفريضة الإلهية الاجتماعية - فريضة الكفاية - التى يقع الإثم بتخلفها على الأمة جمعاء.. وعن هذه الحقيقة كتب يقول:

«إننى لم أنشئ [المنار] ابتغاء ثروة أتأثلها، ولا رتبة أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاهًا عند العامة أو الخاصة أباهى به الأقران، وأبارى به أعلياء الشأن؛ بل لأنه فرض من الفروض يُرجى النفع من إقامته، وتأثم الأمة كلها بتركه، فلم أكن أبالى بشىء إلا قول الحق، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكنت إن أصبت بحسب علمى فسيان رضى الناس أم سخطوا، مدحوا أم ذموا، قبلوا المنار أم رفضوا..»(١).

ولقد بارك الله فى أعداد [المنار] ومجلداتها.. التى صار يعاد طبعها - فى حياة صاحبها - وحتى هذه الأيام!.. والتى استخرج من صفحاتها العديد والعديد من الكتب والدراسات.. والتى وضعت فيها العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

لقد صارت ديوان المدرسة الإحيائية والتجديدية فى تاريخنا الحديث.. حتى أن اليقظة الإسلامية المعاصرة عندما أرادت أن تبدأ، بدأت [بالمنار].. فرأينا الشيخ حسن

(١) مقدمة رشيد رضا للطبعة الثانية لمجلدات [المنار] ص ٢، ٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] - الذى حضر بعض دروس الشيخ رشيد رضا.. وتردد على دار [المنار] - يعيد إصدار هذه المجلة - بحجمها وشكلها وتبويبها - بل وتسلسل أعدادها وأجزائها - بعد وفاة الشيخ رشيد - وذلك بداية من غرة جمادى الثانى سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨ يوليو سنة ١٩٣٩ م - وعلى امتداد أربعة عشر شهرا.. بل إن الشيخ البنا - عندما شرع فى تفسير القرآن الكريم - بدأ من حيث انتهى الشيخ رشيد، الذى سبق وبدأ هو أيضا من حيث انتهى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده!

* * *

إذن.. كانت [المنار] ديوان الإحياء الإسلامى، وميدانا لتجديد دنيا المسلمين بالدين الإسلامى المتجدد.. أى أنها لم تقف عند «تجديد الفكر»، وإنما عملت على «تجديد الواقع» أيضًا..

* لقد دعت إلى نهضة حضارية إسلامية.. وذلك فى مواجهة الخيار الغربى - الوضعى العلمانى - فى التقدم.. مع رفض الجمود والتقليد للسلف والتراث، ذلك الذى فتح ويفتح، بالعجز والقصور، أبواب الواقع الإسلامى لخيار التغريب..

فالأفغانى قد دعا إلى هذا الخيار الحضارى الإسلامى، عندما قال:

«إنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا؛ فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق.

وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا - من حيث الرقى والأخذ بأسباب التمدن - هو عين التقهقر والانحطاط؛ لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام - التى من شأنها رفع راية السلطة والغَلَب - إلى صبغة خمول وضَعَة واستئناس لحكم الأجنبى.. إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان..»[1].

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٢٧، ٣٢٨، ١٣١، ١٧٣. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

* وإلى نفس المرجعية الإسلامية في النهضة دعا الإمام محمد عبده، فقال:

«إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من موادّه شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره»[1]!!

* ولقد حمل [المنار] رسالة البلورة لمعالم هذا المشروع الحضاري الإسلامي إلى كل أقطار العالم الإسلامي.. فدعا رشيد رضا إلى تأسيس النهضة والتقدم على الدين:

«لأن التاريخ قد علمنا: أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية، كقدماء المصريين، والكلدانيين واليونانيين.

لقد علمنا القرآن: أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير من الله ـ عز وجل ـ لهدايتها، فنحن بهذا نرى: أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها.. وليس للبشر ديانة ـ يحفظ التاريخ أصلها حفظا تاما ـ إلا الديانة الإسلامية.. فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية؛ لأن الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المدني..»[2].

* وذلك لأن الشريعة الإسلامية جامعة للإصلاح الديني والسياسي كليهما:

«فمن مقومات الإصلاح الديني: الإصلاح السياسي المدني، على أن الإصلاحَيْن متلازمان في الأمة الإسلامية، لا يقوم أحدهما حق القيام إلا بالآخر، والشريعة الإسلامية هادية للإصلاحَيْن؛ إذ كل خير وصلاح للعباد يتعلق بالمعاش والمعاد قد قرره الإسلام..»[3].

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٤٨.
(٢) رشيد رضا [تفسير المنار] جـ٤ ص ٤٢٩ طبعة دار المعرفة، بيروت.
(٣) رشيد رضا [المنار] مجلد ١ جـ ٣٩ ص ٧٩٥.

* والاجتهاد هو الشرط الأول لبقاء الشريعة الإسلامية وافية بمتطلبات هذا الإصلاح:

«لأن هذه الشريعة هى خاتمة الشرائع الإلهية، وحكمة ذلك: أن الله تعالى قد أكمل بها الدين الحق، فجعلها جامعة بين مصالح الروح والجسد، ومنح الأمة حق الاجتهاد والاستنباط، وبهذين كانت موافقة لمصالح البشر فى كل زمان ومكان..»[1].

* وهذا المشروع النهضوى الإسلامى، المتسلح بالتجديد الدينى، إنما يحارب فى جبهتين:

أ ـ جبهة الجمود الدينى عند أفكار السلف، كما هو الحال عند:

«حماة تقليد الكتب المدونة فى المذاهب المتبعة، من سنية، وشيعة إمامية، وإباضية، وحجتهم: أن علوم الشريعة المودعة فى الكتاب والسنة ـ إجمالا وتفصيلا ـ قد انحصرت فيها، فمن لم يأخذ بمذهب منها فليس على ملة الإسلام»!

ب ـ جبهة التقليد للحضارة الغربية، الداعين للانسلاخ عن الموروث من:

«دعاة الحضارة العصرية، والنظم المدنية، والقوانين الوضعية، الذين يقولون: إن هذه الشريعة المدونة لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة، ولا تستقيم بها مصالح أمة، فيجب تركها واستبدال قوانين الإفرنج بها، أو استقلال كل قوم وشعب من المسلمين كغيرهم بتشريع جديد يوافق مصالحهم، وإلا كانوا من الهالكين»[2]!

* والتبشير بشمولية الإسلام للدين والدولة جميعاً.. للشرع والسياسة معا.. لكن ليس كما يفهم المتغربون أنها الكهانة التى عرفتها أوروبا عندما جمعت كنيستها السلطة الزمنية إلى السلطة الدينية..؛ لأن الإسلام ينكر هذه السلطة الدينية ـ بهذا المعنى ـ ويحاربها.

وحتى السلطة الروحية للتصوف ـ فى التجربة الإسلامية ـ لم تبلغ ما بلغته كهانة «الأكليروس» فى التاريخ الأوروبى:

---

(١) المصدر السابق. مجلد ١٩ جـ٢ ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق. مجلد ٢٩ جـ١ ص ٦٦.

«ولو كان الإسلام شرع هذه السلطة المعروفة فى الملل السابقة عليه، من البوذيين والبراهمة والإسرائيليين والنصارى، أو أجازها، لوُجد لها فى المسلمين نظام ورؤساء؛ ولكن شيئا من ذلك لم يوجد، وإنما وجدت طائفة منهم تصدت للتربية والإرشاد، ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات، ولم تكن لهم سلطة على أحد، وإنما يتبعهم من شاء باختياره، ولم يسلموا مع ذلك من رَمْى الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين، ومن تفريق الحكام شملهم؛ ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمته. .»[1].

* والتميُّز الإسلامى فى المشروع الحضارى، لا يعنى القطيعة مع الحضارات الأخرى، وفى مقدمتها الحضارة الغربية المعاصرة، وإنما يعنى هذا التميُّز:

أ- الانفتاح الحضارى، والتفاعل الفكرى، واستلهام المشترك الإنسانى العام فى المعارف والعلوم.

ب- مع الاحتفاظ بسمات الخصوصية الحضارية الإسلامية وقسماتها. . فنحن فى حاجة إلى التعلم من الغرب علوم التمدن المدنى، لترقية الواقع المادى، مع الاحتفاظ بتميُّزنا فى العقائد والفلسفات والشرائع واللغات والآداب والفنون. وفى ميادين الخصوصية الثقافية والحضارية، نحن مدعوون إلى التعلم من الغرب خبرات أممه وشعوبه، وتجاربها فى تطوير وترقية خصوصياتها الثقافية والحضارية. . وكما يقول الشيخ رشيد:

«. . إننا فى أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا، وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب. فمن فقد شيئا من هذه الأشياء؛ فقد فقد جزءا من نفسه، لا يمكن أن يستغنى عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغنى بعقل غيره عن عقله، ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقّى لغاتنا كما رقّوا لغاتهم، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العلم بشريعتنا وآدابنا، كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم. .»[2].

(١) المصدر السابق، المجلد ٥ جـ ٢٢ ص ٧٤٨.
(٢) المصدر السابق، المجلد ٧ جـ ١ ص ١٠.

* وإذا كان التقليد للغرب قد جاءنا ـ ضمن ما جاءنا ـ بالنزعة القومية العنصرية المتعصبة، التي تمزق وحدة الأمة ـ التي هي فريضة إسلامية . . وضرورة حياتية ـ فإن الجامعة الإسلامية هي إطار الوحدة والانتماء لشعوب الأمة الإسلامية . .

«ذلك أن أكمل الجنسيات وأنفعها للبشر، ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والموطن واللغة والدين والحكومة، بأن يُقصد بها الخير للجميع، للمساواة في الحقوق، وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي. وإنها جنسية لا يتحسر عليها نوابغ الحكماء، وهي موجودة في الملة الإسلامية ـ وإن كان المسلمون من أبعد الناس عنها ! ـ فالملة الإسلامية تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والأديان، وتسمح لمن يحل في حكمها ـ وهو على دينه ـ أن ينشئ في بلادها محاكم لأهل ملته وأبناء جلدته، فلا تلزمه بأحكامها إلزاماً، فإن هو اختار حكمها بنفسه، ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيها، أو أعلى أفرادها مكانة فيها، فهي تدعو جميع البشر إلى التعارف والتآلف في ظل حمايتها، وإنه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء إلا محاولة إزالته أو إزالة فائدته للناس، وهي دفع الشر والأذى عنهم، وتقريب الخير منهم، مع حفظ حريتهم في أديانهم وأعمالهم . . »(١).

* * *

على صفحات [المنار] تم بسط الحديث عن معالم المشروع الحضاري النهضوي، الذي صاغت معالمه المدرسة الإحيائية :

* المرجعية الإسلامية للنهضة .

* وشمولية الشريعة الإسلامية للإصلاح الديني والإصلاح السياسي كليهما . .

* وضرورة الاجتهاد والتجديد، لتواكب الشريعة جميع المستجدات، عبر الزمان والمكان .

* والوسطية الجامعة بين منابع المرجعية الإسلامية وبين الواقع المتجدد، دونما انغلاق على تجارب السلف، أو قطيعة مع التراث، توقع أصحابها في تقليد الحضارة الوافدة والغازية . .

* والاعتصام بالشرع الإسلامي، دون الوقوع في شراك الكهانة والسلطة الدينية

(١) المصدر السابق، المجلد٨ ج١٩ ص ٧٨٦، ٧٨٧ .

ـ بالمعنى الكنسى الغربى ـ تلك التى يرفضها الإسلام، والتى برئ منها تاريخنا الحضارى. .

* والانفتاح على الحضارات المختلفة، والتفاعل مع كل المعارف والعلوم التى تمدن الواقع، مع الاحتفاظ بخصوصيتنا الحضارية، وهويتنا الثقافية، وشخصيتنا التى تتميز: باللغة. . والدين. . والشريعة. . والآداب. .

* والتعلق برابطة الجامعة الإسلامية، التى تستوعب شعوب الأمة وأجناسها ولغاتها وأوطانها ومللها، حذرا من ضيق التعصب القومى، والعصبية الإقليمية. .

وغير ذلك من قسمات هذا المشروع النهضوى الإحيائى الذى حمل [المنار] رسالته إلى العالم الإسلامى على امتداد نحو أربعين عاما. . حتى أصبح «المدرسة» و«الديوان» لتيار البعث الإسلامى، واليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث.

* * *

لقد عرف العالم الإسلامى، فى عصره الحديث، عشرات المجلات الكبرى. . لكن [المنار] تفردت من بين كل تلك المجلات، عندما أصبحت مدرسة جامعة لتيار الإحياء والتجديد ـ الذى هو أعظم تيارات العصر فى عالم الإسلام. .

وقيادة لإقامة مؤسسات الإصلاح والمقاومة والنهوض. .

بل وكانت المنطلق للحركات الإسلامية الجماهيرية، التى رفعت شعارات شمولية المنهاج الإسلامى للدين والدولة. . للعقيدة والشريعة. . للفرد والأمة. . للدنيا والآخرة. . فى مواجهة العلمانية الغربية التى أرادت اختزال الإسلام، واستبعاد حاكميته فى ميادين الاجتماع والحياة. .

هكذا كانت [المنار]. . ولا تزال ثمراتها تسرى صحوة إسلامية معاصرة على امتداد عالم الإسلام حتى هذه اللحظات. .

وصدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

* * *

ـ ٣ ـ

أُولى المعارك ضد العلمانية

قبل صدور [المنار] ـ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى [سنة ١٨٩٨م] ـ كانت أوروبا الاستعمارية ـ ممثلة فى فرنسا ـ صاحبة العلمانية المتوحشة فى بلادها . . والنزعة الصليبية ضد الإسلام فى مستعمراتها المسلمة!! . . كانت قد نجحت فى جعل لبنان ـ بواسطة مدارس الإرساليات النصرانية الفرنسية ـ معمل تفريخ لكتيبة من المثقفين الموارنة؛ الذين ضربت عقولهم وصيغت وجداناتهم وفق المناهج التغريبية . . المعادية للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى . .

فلقد كانت رسالة هذه المدارس الفرنسية ـ بلبنان ـ وفق عبارات القناصل الفرنسيين فى بيروت، هى : «**تكوين جيش ـ [ثقافى] ـ متفان فى خدمة فرنسا والحضارة الأوروبية المسيحية . . وتأمين سيطرة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة ـ [المشرق العربى] ـ . . وجعل البربرية العربية ـ [هكذا] ـ تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا!!**»[1].

ولقد هاجر كثير من «جنرالات» هذا «الجيش الثقافى» إلى مصر . . فأصدروا الصحف والمجلات . . وأقاموا المؤسسات الصحفية والثقافية . . «**وأصبحوا ـ بعبارة عبد الله النديم ـ [١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م] «لا شرقيين ولا غربيين، اتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية . . . .**»[2] . .

---

(١) من محفوظات أرشيف الخارجية الفرنسية بباريس لسنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٩٨م.

(٢) مجلة [الأستاذ] العدد ٢٢ ص ٥١٠ .

وكانت مجلة [المقتطف] [١٢٩٣ ـ ١٣٧١هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م] الساحة التي نصبت فيها أعلام نظريات التغريب الأوروبية . . حتى ليقول «النديم» عن أصحابها : «إنهم أعداء الله وأنبيائه ، والأجَرَاءُ الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين ، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية ، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة ، منكرين وجود الإله الحق . وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية ، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»[1]!

* وعن أحد «جنرالات هذا الجيش الثقافي» ـ وهو أمين شميل (١٢٤٣ ـ ١٣١٥هـ/ ١٨٢٨ ـ ١٨٩٧م] ـ صدرت أولى دعوات استخدام العاميات العربية بدلا من لغة الأمة . . لغة القرآن الكريم ! . .

* وعن «جنرال» آخر صدرت أولى الدعوات إلى الداروينية ـ الملحدة ـ . . عن شبلي شميل [١٢٧٦ ـ ١٣٣٥هـ / ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م] . .

* وكانت الدعوة إلى إحلال العلمانية الغربية ـ وفصل الدين عن الدولة ـ محل الشريعة الإسلامية ، وشمول الإسلام للدين والدولة . . كانت واحدة من أخطر دعوات هذا التغريب . . التي كانت للشيخ رشيد رضا ـ و[المنار] ـ شرف التصدي لها في العام التالي لصدور [المنار] . . أي أن الشيخ رشيد كان أول من تصدى لدعاوى العلمانية والعلمانيين في العالم الإسلامي على الإطلاق ! . .

* فعلى صفحات [المقطم] [١٣٠٦ ـ ١٣٧١هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢م] ـ التي كانت لسان حال الاستعمار الإنجليزي بمصر . . والتي أنشأها هؤلاء الموارنة المتفرنسون ـ «**صحيفة إنجليزية ناطقة بالعربية**» ـ على حد تعبير عبد الله النديم ! ! . .

على صفحات [المقطم] بدأ عدد من نصارى الموارنة الدعوة إلى العلمانية ، وفصل الدين عن الدولة في الشرق الإسلامي . .

دعا إلى ذلك حنا الطرابلسي ـ في ١٢ و١٧ أغسطس سنة ١٨٩٨م ـ وميشيل حكيم ـ في ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٩م ـ . . ثم جاء واحد منهم ، مستتراً تحت توقيع «مسلم حر الأفكار» ليدعو إلى ذلك في ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م . . فكانت معركة الشيخ رشيد رضا ـ ضد هذه الدعوى ـ أولى معارك الإسلام ضد العلمانية في ذلك التاريخ . .

---

(١) المصدر السابق . العدد ٣٩ ص ٩٢٣ ، ٩٢٤ .

* وفى أثناء هذا الحوار بين الشيخ رشيد رضا وبين من يَدَّعى أنه «مسلم حر الأفكار» كشفت «زلات القلم» عن أن هذا المدافع عن فصل الدين عن الدولة ليس مسلما بأى حال من الأحوال . .

١ ـ فلقد اعترف بأنه متخرج من مدارس الإرساليات النصرانية . . وأنه قد تربّى وتعلم فيها . .

٢ ـ واستخدم مصطلحات لا يستخدمها عادة إلا الكُتّاب النصارى . . من مثل «الدعوات الدينية المسكونية»! . .

٣ ـ وجهر بما لا يقول به مسلم، من مثل اتهام الإسلام ودعاة الجامعة الإسلامية بأنهم يرون «**أن الخطر لا يزول عن الإسلام إلا بتمزيق شمل النصارى، وأن عز الإسلام لا يكون إلا بذل النصارى**»!!

* وفى هذا الحوار وضع الشيخ رشيد النقاط على الحروف، فيما يتعلق بموقف الإسلام من العلمانية وفصل الدين عن الدولة . . على النحو الذى يمكن إيجازه فى عدد من النقاط . . فهو:

أولاً: كشف عن أن هذه الدعوى لا يقول بها إلا غير المسلمين، الذين تفتح لهم المنابر الصحفية النصرانية صفحاتها لينتقدوا الدعوة إلى الجامعة الإسلامية:

« فـ [الأهرام] و[المقطم] متفقتان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقى الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوروبا ـ كما فعلت اليابان ـ و[المؤيد] ـ لصاحبها على يوسف [١٢٧٩ ـ ١٣٣١هـ/ ١٨٦٣ ـ ١٩١٣م] ـ رد عليهما قولهما الأول، ولم يبد رأيا جديدا؛ إلا أنه وافق على أن مسلك الكُتّاب المسلمين فى الدعوة الدينية مفيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مفيد مع ذلك» . .

وثانيًا: أن هذه الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، التى ظهرت فى [المقطم] ـ ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م ـ لا يقول بها مسلم . .

«فهو قول لم يتابع به قائلُه مسلما، ولن يتابعه عليه مسلم؛ لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامى، ومقوض لعمود بنائه، وهو: زعم أن الدين والدولة أمران متباثنان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

ولقد وُجد للإسلام أعداء اجتهدوا فى كل عصر بمحوه أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، **ولكن مجموع مفاسدهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمى إليه هذا القول الخبيث الذى لم يخطر فى بال إبليس، فهو أبلغ قول يشير إلى أحكم رأى لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود ـ قاتل الله قائله ـ ولا كثر فيمن يدَّعون الإسلام من أمثاله**»!

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا: أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت ـ فى خطرها على الإسلام ـ على كل دعاوى المفسدين للإسلام عبر التاريخ.. بل وتفوقت على أحلام إبليس!..

وثالثًا: مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام ـ بحكم طبيعته الشاملة ـ للعلمانية، فقال:

«لقد عرَّف علماء المسلمين الدين بأنه: وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل. وإن شئت قلت: إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. وقواعده عندهم ثلاث:

١ ـ تصحيح العقائد.

٢ ـ وتهذيب الأخلاق.

٣ ـ وإحسان الأعمال.

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. **ومن الثانى: الأحكام بأنواعها ـ قضائية ومدنية وسياسية وحربية ـ..**».

ورابعًا: أشار الشيخ رشيد إلى مغايرة الإسلام ـ فى هذا الشمول ـ للنصرانية، التى لا علاقة لها بالدولة والسياسة.. فقال:

«أما الدين عند النصارى، فهو ـ [كما فى دائرة المعارف] ـ «عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله؛ أو يبين **صفات تلك النسبة**».

وهو ـ كما ترى ـ لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة، ومن المشهور أن الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها، لما في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية، وأن سلطة الدين على الأرواح فقط. فيجب على كل متبع لهذا الدين أن يدين لكل سلطة، ويذعن لكل شريعة حكمته، بخلاف الدين الإسلامي؛ فإنه مبني على السلطة والغَلَب. . ».

وخامسًا: شرع الشيخ رشيد رضا يُفَصِّل في تميز الإسلام ـ كدين ودولة ـ عن النصرانية، فقال:

«إن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد، ومبني على أساس السلطتين الزمنية والروحية، وإن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية، وإن كل حكومة تخرج عن طاعته الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين. . هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون، ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين؛ فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يقرع دائمًا آذانهم؛ بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلا بلسان عربي مبين: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧].

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة؛ لأجل تأييد الجامعة الإسلامية:

إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الألفاظ عندنا: فها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق؛ فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية، وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود، وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذي:

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا ... فرس ولا شيء يباع بدرهم

يأوي المغارة مثل راعي الضأن ... راعي الممالك في السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم الاشتغال بما ليس منه فى شىء، ونحن والنصارى فى هذا الأمر على طرفى نقيض، فإننا إذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذى هو السياج الحافظ للنصف الباقى.

كلا، إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهدداً بالزوال. لا جرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لإعدام (الجامعة الإسلامية)، فكيف جعلتموه طريق إيجادها؟! وهو أقوى على شقائها، فأنَّى تقنعوننا بأنه علة إسعادها؟!.

وسادسًا: وبعد أن حسم الشيخ الرشيد الأمر على هذا النحو، الذى أكد فيه: أن فصل الدين الإسلامى عن الدولة إنما يعنى القضاء على نصف الإسلام، الذى هو سياج حفظه.. أى أن فى ذلك ضياع كامل الإسلام، ومحوه من الوجود.. شرع فى بيان خطأ «الحجة» الكبرى التى يثيرها دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة.. وهى أن هذا الفصل هو الذى يحقق «الوفاق الوطنى» بين أهل الأديان المختلفة فى الدولة الواحدة.. فقال:

«ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر ـ [فصل الدين عن الدولة] ـ هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذى يساوى بين طائفتهم وبين المسلمين، ويخمد نيران الغلو فى التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كلّ دينه من الوجهة الروحية التى لا مثار فيها للتنافر والتفاخر».

وبعد عرض «حجتهم» هذه ـ التى هى عمدة ما لدى العلمانيين حتى اليوم! ـ أخذ الشيخ رشيد يفند هذه «الحجة»، فقال:

«ويسهل علينا أن نبين لهم خطأهم فى اعتقادهم هذا، فنقول:

١ ـ إن بناء الشريعة الإسلامية قام على العدالة والمساواة بين المسلمين وغيرهم فى الأحكام والحقوق المعبر عنها بهذه الجملة التى يتناقلها الإسلام خلفا عن سلف، وهى: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وقد دلنا التاريخ على أن الحكومات الإسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفا.

ومن قابل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام عليّا ـ صهر النبى وربيبه وابن عمه ـ برجل من آحاد اليهود فى المحاكمة، وانتقاد علىّ عليه بقوله له: «يا أبا

الحسن» ، وعدة التكنية إخلالا بالمساواة لما فيها من التعظيم ، وبين ما هو جار اليوم فى فرنسا من التحامل على «دريفوس» [١٨٥٩ ـ ١٩٣٥م] ، وهو من أكابر عظماء اليهود ، حتى أنهم حاولوا قتل وكيله الذى يحامى عنه ، وهم أصحاب القلم الذى ينطق بالحرية والعدالة والمساواة ، يظهر له الفرق بين المسلمين فى بدايتهم ، والأوروبيين فى نهاية مدنيتهم ، **فالشريعة فى نفسها عادلة ، ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية ، بل هو ينفعهم . . وهم لا فرق عندهم بين الشرائع ؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها .**

٢ ـ إن الترقى الدينى والمدنى الذى نقصده من إحياء «الجامعة الإسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم ، وهذا القول لا يخالف فيه أحد .

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب ؛ إلا إذا كان بيِّناً فى شريعتهم ومأخوذا من أصول دينهم ؛ فإذا فصل بين الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق والواجبات غير واجب الاتباع فى اعتقادهم ؛ فإذا أخذوا به فى العلانية لا يأخذون به فى السر ، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتا فى نفسها مقررا فى اعتقادها . **فخير للمسيحيين أن يُحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهرا ، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون ؛** بل يتدلون ويهبطون ، كما علم بالاختبار والمشاهدة .

فقد أنبأنا التاريخ أن مبدأ الخلل والضعف الذى ألمَّ بنا كان إهمال وظائف الخلافة ، والخروج بها عن معناها الذى هو حراسة الدين وسياسة الدنيا . . ولن يعود للإسلام مجده ؛ إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرا وجهرا ، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم . فيجب على من يهمه ترقية شئونهم أن يدعوهم به إلى العلم والعمل ، ونفض غبار الجهل والكسل ، والقيام بمصالح المعاش والمعاد ، على ما تقتضيه سنن الترقى والإسعاد . فهو إمام كل إمام ، وكما كان المبدأ فى ترقيهم كذلك يكون الختام . . »[١] .

(١) [المنار] السنة الثانية ـ عدد ٢٥ ص ٣٨٥ ـ ٣٩١ ـ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣١٧هـ/ ٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩م .

هكذا خاض الشيخ رشيد رضا - على صفحات [المنار] - أولى معارك الفكر الإسلامى ضد العلمانية وفصل الدين عن الدولة فى العصر الحديث . . وأبرز:

* ريادة النصارى الموارنة - وصحفهم ومجلاتهم - فى التبشير بالعلمانية . .

* ورفض المنابر الإسلامية لهذه الدعوى . .

* ورفض الإسلام - بطبيعته المتميزة عن النصرانية - وشمولية منهاجه للدين والدنيا أيّة دعوة لفصل الدين عن الدولة . .

* وبيان أن شمولية الإسلام هذه للدين والدولة والسياسة والقانون هى الضمان للمساواة فى الحقوق والواجبات بين المسلمين وغير المسلمين فى الدولة الإسلامية . . وليس العكس - كما يدّعى العلمانيون . . فالشريعة الإسلامية هى الضامنة للمساواة بين المواطنين على اختلاف أديانهم ومللهم . . ولأن المسلمين لا يخضعون خضوعًا حقيقيًا إلا لشريعتهم ؛ فإن الاحتكام إليها هو الضمان لقيام المسلمين إزاء غيرهم بقواعد هذه المساواة وحقوقها .

وإذا لم يكن فى النصرانية شريعة للدولة والاجتماع ، فسيّان عندهم أن تكون الشريعة التى تُطبقها الدولة دينية عند غيرهم أم غير دينية ، فهى - بالنسبة لهم - وضعية فى كل الحالات . . وإذا كانت هذه الشريعة - الضامنة للمساواة - مقدسة عند المسلمين ؛ كان ذلك أدعى لاحترام قواعد المساواة فيها من القوانين الوضعية ، التى لا يكنّ لها المسلمون الاحترام! . .

وبعبارة الشيخ رشيد رضا:

« . . فالشريعة فى نفسها عادلة . ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية ، بل هو ينفعهم . . وهم لا فرق عندهم بين الشرائع ؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها . . فخير للمسيحيين أن يُحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرًا وجهرًا ، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون»! . .

نعم . . كانت تلك أولى معارك الفكر الإسلامى مع العلمانية ، ودعوى فصل الدين عن الدولة . . وكان هذا هو قدر [المنار] وصاحبه فى الرد على العلمانيين بالمنطق «الشرعى» والبرهان «العقلى» على حدٍّ سواء! .

- ٤ -

وأولى المعارك ضد الصهيونية

وكما قُدِّر للشيخ رشيد رضا أن يكون الرائد الذى تنبه لخطر الدعوة العلمانية والتبشير بفصل الدين عن الدولة.. والتصدى لدعاتها - على صفحات [المنار] - سنة ١٨٩٩م.

كذلك قُدِّر لهذا الرجل أن يكون المتفرد باليقظة - فى ساحة الفكر الإسلامى - لخطر المشروع الصهيونى على فلسطين والعرب وعموم المسلمين..

* فبعد عقد الحركة الصهيونية الحديثة لمؤتمرها الأول - فى سويسرا - بقيادة «هرتزل» [١٨٦٠ - ١٩٠٤م] سنة ١٨٩٧م.. ووضع مخطط إقامة الدولة الصهيونية فى الممارسة والتطبيق.

* وبعد رفض السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢ - ١٩١٨م] اقتراح «هرتزل» تمكين اليهود من فلسطين، لقاء البلايين التى عرضها عليه..

* أخذت الحركة الصهيونية - بدعم من الاستعمار الغربى.. والحركة البروتستانتية الأوروبية والأمريكية - فى التسلل إلى أرض فلسطين، لإقامة المستوطنات، وتجنيد وتدريب العصابات..

* والأكثر مدعاة للعجب والاستغراب هو «الغفلة العربية» عن هذا المخطط الصهيونى.. بل وعن نشاط الجمعيات الصهيونية فى البلاد العربية فى مساندة هذا المشروع، وفى السعى لشراء الأرض فى فلسطين!..

وكما تقول إحدى الدراسات الجادة التى أرخت لدور اليهود المصريين فى ذلك التاريخ ـ أوائل القرن العشرين ـ «فإن معظم اليهود الذين وجدوا فى مصر كل رعاية، قد أيدوا الصهيونية، وقاموا بدعمها بشتى الوسائل.. وذهبوا إلى حد إنشاء الجمعيات الصهيونية التى كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشبان اليهود تمهيدا لتهجيرهم إلى فلسطين، وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة ـ بما فيها اللغة العربية ـ لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيونى الأسمى؛ الذى يتمثل فى إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين»[1]!

وكذلك كان يصنع اليهود فى الجزائر، الذين اشتركوا بوفد يمثلهم فى مؤتمر «بال» ـ بسويسرا ـ سنة ١٨٩٧م[2]!..

وكذلك يهود المغرب، الذين أسسوا لهم جمعية صهيونية سنة ١٩٠١م.. وحضروا المؤتمر الصهيونى الخامس ـ فى بال ـ سنة ١٩٠١م..

وكذلك كان الحال مع اليهود فى العديد من البلاد العربية.. ففى ليبيا أنشأ اليهود الليبيون مدرسة عبرية عسكرية لتدريب الشبان اليهود عسكريًا للانضمام إلى «اللواء اليهودى» الذى تشكل خلال الحرب العالمية الثانية ـ والذى حارب فى فلسطين بعد الحرب العالمية لإقامة الدولة الصهيونية![3].

وكذلك كان حال النشاط الصهيونى عند يهود العراق[4].

* وبينما كانت المظاهرات العربية تجتاح أرض فلسطين سنة ١٩٣٥م، ضد الاستعمار والاستيطان الصهيونى، كانت الصحافة الصهيونية بمصر تنشر الإعلانات عن «المزادات» لبيع أرض فلسطين لليهود باعتبارهم «أبناء فلسطين البررة»!![5].

* وبينما كان ذلك يحدث ـ علنًا ـ فى البلاد العربية... ويواكب النشاط الصهيونى والاستعمارى المحموم فى الغرب ـ سياسيا وفكريا وإعلاميا ـ لتمكين الصهيونية من

(١) د. سهام نصار [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] ص ٨ طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.
(٢) المرجع السابق ص ٩.
(٣) المرجع السابق. ص ٩، ١٠.
(٤) المرجع السابق، ص ١٠.
(٥) د. عواطف عبد الرحمن [الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م] ص ١٦٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.

فلسطين. . كانت النخبة العربية. . ـ وخاصة الليبرالية والعلمانية ـ تعيش «غفلة مذهلة» عن هذا الذى يدبر وينفذ لفلسطين والعرب والمسلمين. . حتى لتقول إحدى الدراسات الأكاديمية الجادة عن هذه «الغفلة»: «**إن المثير للدهشة: أن معظم المثقفين المصريين الذين عاصروا اليهود أثناء وجودهم فى مصر قبل حرب سنة ١٩٤٨م لا يعلمون شيئا عن طبيعة النشاط الصهيونى الذى مارسه الصهيونيون فى البلاد**»[١]!!

* هكذا قادت «التبعية الثقافية» أصحابها إلى هذه «الغفلة» عن الخطر الذى يتخلق وينمو ويسرح ويمرح بين ظهرانى هؤلاء المثقفين الليبراليين. . بل لقد تجاوز بعضهم نطاق «الغفلة» إلى حيث «تعاطف» مع اليهود الزاحفين على الاستيطان فى فلسطين!!. .

* لكن هذه الدراسات الأكاديمية الجادة التى رصدت النشاط الصهيونى فى البلاد العربية ـ فى النصف الأول من القرن العشرين ـ وتحدثت عن هذه «الغفلة العربية» من قبل الليبراليين العرب عن هذا الخطر، قد أنصفت التيار الإسلامى عندما أشارت إلى تميزه بالوعى بخطر هذا المشروع الصهيونى. . فقالت إحدى تلك الدراسات: «**إن المثقفين الليبراليين العرب قد تسامحوا ـ [!!!] ـ مع الصهيونية، ولم يقف ضدها إلا أصحاب الاتجاهات الإسلامية والعربية**»[٢].

فإذا علمنا أن هذه الشهادة التى أنصفت الموقف الإسلامى من الصهيونية، والوعى الإسلامى إزاء هذا الخطر، هى دراسة «يسارية» أدركنا قيمة هذه الشهادة للإسلام والإسلاميين فى هذا الموضوع الخطير!. .

* وهنا تبرز ريادة الشيخ رشيد رضا ـ و[المنار] ـ . ريادته فى الوعى بخطر هذا المشروع الصهيونى، لا على فلسطين وحدها؛ وإنما على عموم العرب والمسلمين. . ويبرز جهاد صاحب [المنار] ـ الفكرى والسياسى. . والعملى ـ ضد الصهيونية والغرب الاستعمارى الذى يقف وراءها. . وتأتى الإشارة إلى معركة الشيخ رشيد ضد الصهيونية، التى رفع بها «بلوى عموم الغفلة» عن العرب والمسلمين!. .

---

(١) [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] ص ٩.

(٢) [الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م] ص ٦.

* ففى نوفمبر سنة ١٩١٠م ينبه الشيخ رشيد على خطر التغلغل اليهودى فى الدولة العثمانية «**لأن هدفهم أن يملكوا بيت المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك إسرائيل**»[١].

* وفى أكتوبر سنة ١٩٢٨م ينبه الشيخ رشيد إلى مخاطر إقامة الكيان الصهيونى على الوحدة العربية والإسلامية، وذلك بإقامته «الجسم الصهيونى» العازل بين أجزاء الوطن العربى.. **فالهدف «هو جعل هذه المنطقة من البلاد «يهودية - بريطانية» فاصلة بين عرب مصر وعرب سورية والعراق..»**[٢].

* وإبان ثورة البراق - سنة ١٩٢٩م - التى اندلعت فى فلسطين ضد الاستعمار الإنجليزى والصهيونية، كتب الشيخ رشيد سلسلة من المقالات كانت أوفى تحليل لخطر الصهيونية ومشروعها الاستيطانى الاستعمارى على الشرق والعرب والمسلمين..

ومما جاء فى هذا التحليل:

«إن اليهود من قواعد شريعتهم (التوراة) أن يستأصلوا القوم الذين يغلبونهم على أمرهم (حتى لا يستبقوا منهم نسمة ما).

ومن الحقائق الثابتة الخفية أن «الجمعية الماسونية»، التى ثلت عروش الحكومات الدينية من أمم أوروبة والترك والروس، هى من كيد اليهود، وهم أصحاب السلطان الأعظم فيها، وإن كان ذلك يخفى على كثير من أهلها أو أكثر المنتمين إليها.

ومن غرائب كيد اليهود وقدرتهم التى فاقوا بها جميع شعوب البشر، أن الغرض السياسى النهائى لهم من هذه الجمعية هو تأسيس دولة يهودية دينية فى مهد الدولة الإسرائيلية التى أسسها داود وأتمها سليمان بانى هيكل الدين اليهودى فى أورشليم على جبل صهيون، ولهذا سموها جمعية البنائين الأحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان، وأكثر أفراد هذه الجمعية يجهلون السبب الصحيح لهذه التسمية.

ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية: أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالى، والذى هو قطب رحى المدنية الغربية الحاضرة فى العالمين القديم والجديد، وأن لهم به النفوذ الأعلى فى جميع الدول والأمم «الرأسمالية» - كما يقال فى عرف هذا العصر..

---

(١) [المنار] المجلد ١٣ جـ١ ص ٧٢٥.

(٢) المصدر السابق. المجلد ٢٩ جـ٦ ص ٤١٦.

ومن الحقائق الثابتة التاريخية - أيضا - أنه لم توجد جماعة من جماعات البشر الدينية والسياسية عرفت كنه كيد اليهود ومكرهم فى الأمم، ومقاصد الماسونية وأهلها، وتصدت لمقاومتهم، وإسقاط نفوذهم؛ إلا جمعية الجزويت الكاثوليكية، وذلك أن الكاثوليك يدينون بوجوب الخضوع الدينى والسياسى لأحبار رومية، رؤساء الكنيسة المعصومين عندهم، ويعلمون أن اليهود هم الذين ثلوا عرشها بنفوذ الجمعية الماسونية التى انتظم فى سلكها الملايين من النصارى ومن غيرهم، وأكثرهم لا يشعرون.

كما لا يخفى ما كان من نفوذ اليهود فى ملاحدة الروس الذين أضعفوا سلطة الكنيسة الأرثوذكسية بمجلس الدوما، ثم أسقطوها بثل عرش القياصرة دعاتها وحماتها، وتأسيس حكم البلشفية فى تلك الممالك الواسعة..

وما كان من نفوذهم فى ملاحدة الترك بإسقاط نفوذ الخلافة التركية العثمانية، ثم بهدم الشريعة الإسلامية من المملكة التركية، وجعل حكومتها إلحادية تسعى لمحو الإسلام من الشعب التركى ومن الشعوب الأعجمية الإسلامية، التى كانت تابعة لها كالألبان والبوشناق وغيرهما، كالإيرانيين والأفغانيين..

... ولقد استخدم اليهود دول النصارى فظاهرتهم على المسلمين.. وأسسوا الجمعية الصهيونية للسعى إلى ذلك بقوة الشعب اليهودى المالية والمعنوية، وبجعل الاعتقاد التقليدى باديًا لهم فى هذا السعى وقوة روحية تؤيد سائر القوى الكسبية.

إنهم سدنة المال، هيكل المعبود الأكبر للأمم والدول العظمى فى هذا العصر، وهم الذين استعبدوهم له، ولهم - بهذا المال - فى العالم المدنى من النفوذ والصحف والقدرة على الدعاية ما يقلب الحقائق، ويلبس الحق بالباطل.

وهم يعتمدون فيما يرومون من الاستقلال فى الوطن القومى فى فلسطين على قوة الإنكليز تحميهم.. ولقد طلب عشرة آلاف من شبان اليهود الأمريكيين إذن حكومتهم لهم أن يذهبوا إلى فلسطين لقتال العرب..»[1].

* هكذا قدم الشيخ رشيد رضا - وظل يقدم - على امتداد عقود تخلق الخطر الصهيونى فى الشرق العربى والإسلامى، هذه التحليلات السياسية والتاريخية

---

(١) المصدر السابق: المجلد ٣٠ جـ٥ ص ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣.

والدينية، التى بلغت فى الوعى والعمق آفاقًا تجعلها صالحة للعطاء حتى هذه اللحظات التى نعيد فيها نشر هذه السطور من صفحاتها الطوال!..

ولم يكن الرجل ذا موقف عنصرى إزاء اليهود.. ولا متعصبا دينيا إزاءهم.. فهو الذى أشار فيما كتب إلى الموقف الإسلامى من اليهود فى تاريخنا الحضارى، وكيف أن العدل الإسلامى هو الذى رفع عن اليهود الاضطهاد الذى أوقعه بهم الرومان والنصرانية الرومانية «**فكان من عدل المسلمين ورحمتهم، أن رفعوا الاضطهاد عن رءوس اليهود، وعاملوهم بالعدل والرحمة، حتى أنهم صاروا يأذنون لبعضهم بالإقامة فى بيت المقدس**» ـ **بعد أن كانوا ممنوعين من ذلك على عهد الرومان** ـ[1].

* ولأن هذه هى حقيقة موقف الشيخ رشيد رضا من اليهود ـ كأهل كتاب ـ وموقفه من الصهيونية ـ كحركة استعمارية ـ تحالفت مع الأعداء التاريخيين لليهود ضد الذين أحسنوا إلى اليهود طوال التاريخ!.. فلقد سعى الشيخ رشيد سعيًا سياسيًا حثيثًا إلى «فك هذا الرباط غير المقدس» بين الحركة الصيهونية وبين الاستعمار، فى مقابل أن يعيش اليهود الذين يريدون العيش ببلاد المسلمين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين..

نعم.. سعى إلى ذلك، وبذل الجهود مع الحركة الصهيونية. وحاور زعيمها «حاييم وايزمان» [١٨٦٤ ـ ١٩٥٢م] قائلاً لهم:

«**إنه خير لليهود، إذا كانوا يريدون أن يكثروا فى البلاد العربية، ويكونوا فيها أحرارًا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية، أن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك من وسائل ومقاصد..**».. وذلك بدلا من المشروع السياسى الصهيونى، والتحالف اللاأخلاقى مع الاستعمار الغربى ضد العرب والمسلمين..

ظل الرجل يسعى ـ سياسيًا ـ وراء هذا الهدف ـ قبل صدور وعد «بلفور» سنة ١٩١٧م. وبعده ـ لكن الحركة الصهيونية، والاستعمار الذى أقام معها هذه «الشراكة»، ليستخدمها فى تحقيق مخططاته ضد العرب والمسلمين، قد أحبط مساعى الشيخ رشيد.. حتى كتب الرجل فقال:

---

(١) المصدر السابق.

«ثم انقطعت المذاكرة فى هذه المسألة؛ لاعتماد الصهيونيين على قوة الإنكليز فى إعادة ملك إسرائيل لهم.. وكلّ منهما يمكر بالآخر..»[1]..

فعلّمنا ـ رحمه الله ـ بهذا السعى، وبهذه النتيجة التى انتهى إليها هذا السعى درسا آخر يجب أن يعيه الذين يعلقون الآمال على مثل هذه المساعى.. وهذه التسويات!!..

* فالسنن القرآنية التى تعلّمنا أنهم [ليسوا سواء].. هى التى تعلمنا أن منهم من هم الأشد عداوة للمؤمنين.. الذين [كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم].. والذين لا يزالون يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. لأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله..

* كما تعلمنا السنن التاريخية كيف تحالف أجدادهم مع الوثنية الجاهلية ضد التوحيد الإسلامى، وقالوا: إن الحق مع عباد الأوثان من «اللات».. والعزى» وليس مع التوحيد والتنزيه الذى جاء به رسول الإسلام ﷺ **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾** [النساء: ٥١]..

* كما تحالفت الصليبية الأوروبية ـ فى عصورها الوسطى ـ مع الوثنية التترية ضد الإسلام والمسلمين..

فنحن ـ إذن ـ أمام سنن تحكم حركة التاريخ.. وتحكم سلوك الجماعات التى ناصبت ـ وتناصب ـ الإسلام والمسلمين العداء عبر هذا التاريخ..

* * *

* وفى دراسة الشيخ رشيد رضا لأسباب هذا الحلف غير المقدس بين النصرانية الغربية ـ وخاصة البروتستانتية ـ مع اليهود الصهاينة.. أشار إلى العامل الدينى، وأساطيرهم عن عودة المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد حشر اليهود فى فلسطين، وإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى..

(١) المصدر السابق، المجلد ٣٠ جـ٥ ص ٣٩١، ٣٩٢.

نعم . . أشار الشيخ رشيد إلى هذا البعد الدينى فى هذا الحلف غير المقدس، فقال:

«وأعجب من ذلك أن دسائس اليهود تمكنت من إغراء كثير من نصارى أوروبا وأمريكا، وإقناعهم بأن الإيمان بالكتاب المقدس يقتضى مساعدتهم على العودة إلى فلسطين وامتلاك أورشليم . . إلخ . . تصديقا للأنبياء، وتحقيقا لظهور المسيح - الذى يختلف الفريقان فى شخصه وعمله - فاليهود يعنون: مسيحهم الملك الدنيوى الذى يعيد ملك سليمان لهم، والنصارى يعنون: المسيح عيسى ابن مريم، الذى يجىء فى ملكوته ليدين العالم . . »[1].

* ولقد انتهز الشيخ رشيد رضا فرصة الموقف الواعى والشجاع الذى اتخذه شيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٥م] - إبان ثورة البراق سنة ١٩٢٩م - ضد المخطط الاستعمارى الصهيونى فى فلسطين . . انتهز الشيخ رشيد هذه الفرصة للإشادة بموقف الأزهر وشيخه . . وللتنديد «بالغفلة والجبن» اللذين سادا مواقف الساسة الليبراليين - [الأحرار!!] - سواء أكانوا من الحاكمين أو المعارضين إزاء هذا الخطر المحدق بالعرب والمسلمين . . فكتب مشيدا بالشيخ المراغى «**الذى ارتفع صوته - ضد المخططات الإنجليزية - اليهودية فى فلسطين، فى وقت خرست فيه ألسنة جميع أمراء مصر وكبرائها الأحرار - [الليبراليين] - حتى غير المقيدين بسياسة الحكومة ومشربها، لا الوزراء والرؤساء الرسميين وحدهم! . . والشيخ المراغى من كبارهم، وموقفه هذا: فتح جديد فى النهضة العربية واليقظة الإسلامية معا . .** »[2].

* * *

* وفى الوقت الذى كانت الصحافة الصهيونية بمصر تنشر الإعلانات التى تغرى اليهود بشراء أرض فلسطين . . كان الشيخ رشيد رضا ينشر «فتواه» الشهيرة بتحريم بيع الأرض العربية لليهود . .

فلقد جاءه من أرض فلسطين - سنة ١٩٣٣ - «سؤال» من «محمد يعقوب الغصين» -

---

(١) المصدر السابق - المجلد ٣٠ جـ٧ ص ٥٥٥.

(٢) المصدر السابق - المجلد ٣٠ جـ٦ ص ٤٦٦.

رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشبان العرب بفلسطين، يسأل عن: «حكم الشرع فيمن يساعد اليهود على امتلاك فلسطين ببيع أرضها..»؟ فكانت «فتوى» الشيخ رشيد التي حذر فيها من المخطط الصهيوني «للاستيلاء على فلسطين بالمال.. والسيطرة على مرافقها الاقتصادية. وتشريد سكانها، وإجلائهم عن بلادهم.. لتصبح فلسطين المقدسة يهودية»..

ولأن هذه «الفتوى» هي وثيقة «دينية.. وسياسية»، تعبر عن «ثوابت الموقف الإسلامي» من كل ذرة من ذرات أرض فلسطين.. فإن إعادة نشرها هو فريضة دائمة، يجب أن لا تغيب عن العقل المسلم في يوم من الأيام..

لقد قال الشيخ رشيد، في هذه الفتوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. رب آتني حكما وفهما، وعلمني من لدنك علما.

أما بعد، فإن حكم الإسلام في عمل الإنكليز واليهود والصهيونيين في فلسطين حكم قوم من أهل الحرب أغاروا على وطن من دار الإسلام فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر الملك فيه، وشرعوا في انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير منظمة ليسلبوهم الملك ـ [بكسر الميم] ـ كما سلبوها الملك ـ [بضمها].

وحكم من يساعدهم على عملهم هذا (امتلاك الأرض) بأي نوع من أنواع المساعدة وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع) وغير الرسمية (كالترغيب) حكم الخائن لأمته وملته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالي لأعدائهم وخصومهم في ملكهم ومُلكهم، لا فرق بينه وبين المجاهد معهم للمسلمين بماله ونفسه. فالذي يبيع أرضه لليهود الصهيونيين، والذي يسعى في شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره كالذي يساعد أي قوم من الأجانب على قومه فيما يحاولون فتح بلادهم بالسيف والنار وامتلاك أوطانهم؛ بل أقول، ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم: إن هذا النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام: هو شر من كل ما سبقه من أمثاله من الفتوح الحربية السياسية والدينية على اختلاف أسمائها في هذا العصر؛ لأنه سلب لحق أهل الوطن في مُلك بلادهم وحكمها، ولحقهم في ملك أرضها لأجل طردهم منها.. ومن المعلوم ـ بالبداهة ـ أنه إذا بقي لنا ملك الأرض: تيسر لنا إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معا.

هذا، وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن، فقد صار من المعلوم بالضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم، ولكل العارفين بما يجرى فيها، من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومى الإسرائيلى، واستعادة مُلك سليمان بقوة المال، الذى هم أقطاب دولته الاقتصادية، وبقوة الدولة البريطانية الحربية، إن هذا الخطر سيسرى إلى شرق الأردن وسورية والحجاز والعراق؛ بل هو خطر سينتقل من سيناء إلى مصر..

وجملة القول، إن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية فى جميع أوطانها الآسيوية، وفى دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عليه عربى غير خائن لقومه ووطنه، ولا مسلم يؤمن بالله تعالى، وبكتابه العزيز، وبرسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه.

بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد فى مقاومة هذا الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب، وأهون أسباب المقاومة وطرقها المقاومة السلبية، وأسهلها الامتناع عن بيع أرض الوطن لليهود؛ فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس الذى يبذلونه هم فى سلب بلادنا وملكنا منا.

ومن المقرر فى الشرع أنهم إن أخذوها، وجب على المسلمين - فى جملتهم - بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل استعادتها، فهل يعقل أن يبيح لنا هذا الشرع تمهيد السبيل لامتلاكهم إياها بأخذ شىء من المال منهم، وهو معلوم باليقين؛ لأجل أن يوجب علينا بذل أضعاف هذا المال مع الأنفس لأجل إعادتها لنا، وهو مشكوك فيه؛ لأنه يتوقف على وحدة الأمة العربية، وتجديد قوتها بالطرق العصرية وأنَّى يكون ذلك لها وقلب بلادها وشرايين دم الحياة فيها فى قبضة غيرها؟!

فالذى يبيع أرضه لليهود فى فلسطين، وفى شرق الأردن: يعد جانيا على الأمة العربية كلها لا على فلسطين وحدها.

ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلى المال للنفقة على العيال، فإذا كان الشرع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذى يسد الرمق ويقى الجائع من الموت بنية التعويض؛ فإن هذا الشرع لا يبيح لمسلم بيع بلاده وخيانة وطنه وملته؛ لأجل النفقة

على العيال، ولو وصل إلى درجة الاضطرار - إن فرضنا أن الاضطرار إلى القوت الذى يسد الرمق يصل إلى حيث لا يمكن إزالته إلا بالبيع لليهود وسائر أنواع الخيانة - فالاضطرار الذى يبيح أمثال ما ذكرنا من المحظورات، أمر يعرض الشخص الذى أشرف على الموت من الجوع، وهو يزول برغيف واحد مثلا، وله طرق ووسائل كثيرة.

وإننى أعتقد أن الذين باعوا أرضهم لهم لم يكونوا يعلمون أن بيعها خيانة لله ولرسوله ولدينه وللأمة كلها، كخيانة الحرب مع الأعداء لتمليكهم دار الإسلام وإذلال أهلها، وهذا أشد أنواعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨][(١)].

* * *

هكذا تألق الوعى السياسى الإسلامى للشيخ رشيد رضا، كنموذج للوعى السياسى الإسلامى عند أعلام التيار الإحيائى والتجديدى إزاء الخطر «الصليبى - الصهيونى» على الشرق العربى والإسلامى.. فحيث كان أهل الجمود والتقليد فى غيبوبة عن الوعى بهذا المخطط العالمى والإقليمى والمحلى.. وحيث كان المتغربون فى غفلة عن هذا الذى يدبره الغرب لأمتهم ووطنهم.. كان التيار الإحيائى التجديدى، المنطلق من الوعى الإسلامى بثوابت الإسلام، والوعى السياسى بحقائق الواقع المعيش يقظًا لهذا الذى يدبره الاستعمار والصهيونية لعالم الإسلام وأمة الإسلام..

ولقد كان للشيخ رشيد رضا شرف التعبير عن هذا الوعى السياسى الإسلامى بحقائق هذه القضية.. قضية الغزوة الصهيونية، والحلف غير المقدس الذى عقده الغرب مع الصهاينة ضد الإسلام والمسلمين..

* فالاستعمار الاستيطانى الصهيونى هو أخطر أنواع الاستعمار.. لأنه يسلب ملك الأرض ومُلك الحكم جميعًا.. بينما استعمار الغزو الحربى يسلب مُلك الحكم فقط.. ومن ثم تكون إزالته والتخلص منه أيسر من إزالة الاستعمار الاستيطانى.. ولذلك فالخيانة فى حالة الاستعمار الاستيطانى - كل ألوان الخيانة - هى أشد وأنكى من كل ألوان الخيانات التى عرفها التاريخ فى الصراعات ضد غزوات المستعمرين!*.

(١) المصدر السابق. المجلد ٣٣ جـ ٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٥. عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ يونيه سنة ١٩٣٣م.

* والاستعمار الصهيوني الاستيطاني لفلسطين لا يقف خطره الداهم عند هذا القطر العربي المسلم وحده؛ وإنما يمتد من نقطة الارتكاز هذه إلى كل وطن الأمة العربية.. من مصر إلى العراق!..

* وإذا كانت الصليبية الغربية والصهيونية اليهودية قد وظّفت الأساطير الدينية لخدمة هذا المخطط الاستعماري؛ فإن الوعي الإسلامي بحقائق الدين الحق.. وبالسنن الإلهية ـ الكونية والاجتماعية ـ وبحقائق الواقع وإمكانات الأمة.. هي الأسلحة الماضية في مواجهة هذه التحديات![1].

رحم الله هذا الإمام العظيم الشيخ محمد رشيد رضا.. وسدد خطانا على الطريق الذي سار فيه. طريق الإحياء بالإسلام.

* * *

(١) انظر في فقه مواقف الشيخ رشيد رضا، إزاء الصهيونية كتابنا [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] ٨١ ـ ١٠٤ ـ طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٤٢٦هـ/ سنة ٢٠٠٥م.

المصادر والمراجع

الأفغاني ـ جمال الدين : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

د. سهام نصار : [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.

عبد الله النديم : مجلة [الأستاذ] ـ القاهرة سنة ١٨٩٢م ـ سنة ١٨٩٣م.

د. عواطف عبد الرحمن : [الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م ـ دراسة تحليلية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.

محمد البشير الإبراهيمي : [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جمع وتقديم : د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

محمد رشيد رضا : مجلة [المنار].

: [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة، سنة ١٩٣١م.

: [تفسير المنار] طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

محمد عبده : [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

د. محمد عمارة : [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٨هـ/ سنة ١٩٨٨م.

: [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦هـ / سنة ٢٠٠٥م.

: [الانتماء الثقافي] طبعة دار نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٢)

الإمام الشهيد

حسن البنا

[١٣٢٤ـ ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م]

ـ ١ ـ

بطاقة حياة

* **هو: حسن أحمد عبد الرحمن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م].**

* ولد ونشأ فى أسرة ريفية بسيطة، تحترف الزراعة بقرية «شمشيرة»، مركز «فوة» ـ بالقرب من «رشيد» ـ بدلتا النيل ـ محافظة «كفر الشيخ» حالياً ـ..

* وكان والده ـ أحمد ـ قد سلك ـ بناء على رغبة والدته ـ طريق التعليم الدينى، بدلا من فلاحة الأرض.. فحفظ القرآن الكريم.. ثم التحق بجامع إبراهيم باشا ـ بالإسكندرية ـ فدرس فيه منهاج التعليم الأزهرى.. ثم امتهن ـ لتحصيل العيش ـ مهنة إصلاح الساعات، فى محل الحاج محمد سلطان ـ الذى كان عالما صالحا.. وعضواً «بجمعية العروة الوثقى» ـ التى كان جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] رئيسا لها.. والشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] نائب رئيسها... ولذلك، كان محل إصلاح الساعات هذا ـ حيث عمل الوالد ـ ملتقى عدد كبير من العلماء والوجهاء، الذين عايشهم وسمع منهم، وتأثر بهم والد حسن البنا..

* وبعد فراغ والده ـ أحمد ـ من تحصيل العلم بجامع إبراهيم باشا.. وبعد إتقان الصنعة ـ إصلاح الساعات ـ عاد إلى قريته «شمشيرة»؛ فتزوج.. ثم انتقل بزوجه ووالده ـ عبد الرحمن ـ إلى مدينة «المحمودية» بمحافظة البحيرة ـ مشتغلا بصنعة إصلاح الساعات.. ومواصلا الاشتغال بالعلم، وخاصة علم الحديث النبوى الشريف.. كما عمل مأذونا شرعيًا.. ومارس الخطابة فى مساجد المحمودية..

* وفي عام انتقال الوالد ـ أحمد ـ إلى مدينة المحمودية ولد له ابنه البكر حسن ـ في يوم الأحد ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٤هـ/ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦م..

* ولأن والده ـ أحمد ـ قد احتضن كل مسانيد الحديث النبوى الشريف.. وجميع مذاهب الفقه الإسلامى، فلقد وجه ابنه حسن لدراسة الفقه على المذهب الحنفى.. ووجه أخاه الثانى ـ عبد الرحمن ـ للدراسة على المذهب المالكى ـ وأخاه الثالث ـ محمد ـ للدراسة على المذهب الحنبلى.. وأخاه الرابع ـ جمال ـ للدراسة على المذهب الشافعى.. فنشأ حسن البنا فى أسرة تحتضن وتعتز بجماع تراث الإسلام..

* ولقد تعلم حسن البنا من والده حرفة إصلاح الساعات، ومارسها.. كما تعلم حرفة تجليد الكتب، ومارسها.. وذلك سيرا على سنة العلماء ـ التى سلكها والده ـ فى التعيش من الحرف والصنائع، ليكون علمهم مبذولاً لوجه الله وخدمة الناس..

* وفى مدينة المحمودية.. وبعد مرحلة التعليم فى الكتاتيب، التحق بمدرسة الرشاد الدينية لمدة أربع سنوات ـ بين الثامنة والثانية عشرة من عمره ـ [١٣٣٣هـ ١٩١٥م/ ١٣٣٨هـ ١٩٢٠م] ـ.. وكان صاحب هذه المدرسة ـ الشيخ محمد محمد زهران ـ على حظ من العلم والثقافة، يصدر مجلة دينية لغوية أدبية اجتماعية اسمها «السعادة».

* ثم التحق حسن البنا بالمدرسة الإعدادية.. التى بدأ ينشط فيها، فرأس «جمعية الأخلاق الأدبية».. كما التحق ـ عضواً ـ بجمعية «منع المحرمات» ـ السرية ـ التى كونها مع بعض أقرانه..

* وبعد المدرسة الإعدادية التحق بمدرسة المعلمين بدمنهور.. وفيها انخرط فى «الطريقة الحصافية»، وبايع شيخها السيد عبد الوهاب الحصافى ـ فى ٤ رمضان سنة ١٣٤١هـ/ ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٣م ـ وواظب على «حلقة ذكرها».. وكانت هذه الطريقة الصوفية ـ الحصافية ـ من أكثر الطرق بعدا عن البدع والخرافات، ومن أقربها إلى الالتزام بالشريعة، والاهتمام بمناهج الإصلاح الخلقى والاجتماعى.

* وأثناء تنقله بين دمنهور والمحمودية لاحظ نشاط الجماعات والإرساليات التنصيرية الإنجيلية، التي دخلت مصر في ركاب الاستعمار الإنجليزي، وبدعم من الكنيسة الأمريكية . . والتي «**أخذت تبشر بالمسيحية في ظل التطبيب وإيواء الصبية وتعليم التطريز**» . .

فقام ـ مع عدد من زملائه ـ بتأسيس «جمعية الحصافية الخيرية»، وانتخب سكرتيراً لهـا . . وأخـذت هذه الجـمـعـيـة تمارس الدعـوة إلى الأخـلاق، ومـقـاومـة المنكرات . . ومحاربة الإرساليات التبشيرية الإنجيلية . .

* وعندما قامت ثورة مصر الكبرى [١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م] زادت من تفتح وعيه الوطني ونضجه السيـاسي . . فشارك في مظاهرات الثورة ـ وكانت سنه إبان الثورة بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة . .

وعندما قاطع الشعب المصري ـ أثناء الثورة ـ لجنة «ملنر» ـ الإنجليزية ـ نظم حسن البنا في ذلك شعراً، جاء فيه:

يا ملنر ارجـع ثم سل وفـدا بباريـس أقـام

وارجع لقومك قل لهم لاتخـدعوهم يا لئـام

* وإبان تلك الثورة، توفي ـ بالمنفى ـ الزعيم الوطني المجاهد محمد بك فريد [١٢٨٤ ـ ١٣٣٨هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٩١٩م] ـ زعيم الحزب الوطني ـ فهز نبأ وفاته حسن البنا، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها:

أفريد نم بالأمن والإيمان أفريد لاتجزع على الأوطان

* وبعد مرحلة مدرسة المعلمين ـ بدمنهور ـ انتقلت الأسرة إلى القاهرة، لتكون بجوار ابنهـا البكر حسن البنا، ليلتحق بدار العلوم ـ في العـام الدارسي ١٩٢٣م ـ ١٩٢٤م . .

* وفي دار العلوم تتلمذ حسن البنا على عدد من علماء ذلك العصر . . وكان من بين الأساتذة الذين تأثر بهم الشيخ أحمد بدير [١٢٩٥ ـ ١٣٤٧هـ/ ١٨٧٨ ـ ١٩٢٩م]، الذي كان قد تتلمذ على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

* وفى القاهرة ـ وهو طالب بدار العلوم ـ عايش زلازل:

ـ سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م.

ـ وصدور عدد من الكتب التى صادمت ثوابت الإسلام..

ـ كما صدمته عواصف التغريب الفكرى والانحلال الخلقى، التى كانت غريبة عن المجتمع المحافظ الذى ألفه وخلّفه فى الريف، وفى المدن شبه الريفية ـ المحمودية ـ ودمنهور ـ فلقد وجد «**الكثير من مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية فى كثير من الأماكن التى لا عهد له بها فى الريف المصرى.. وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح بهذا التفكير الذى لا هدف له؛ إلا إضعاف أثر أى دين أو القضاء عليه فى نفوس الشعب..**»..

* وإلى جانب الآلام الذاتية التى عاشها ـ من هذا الذى رآه وقرأه بالقاهرة ـ. أخذ يفكر فى مصير الأمة التى أراد الأعداء دفعها إلى هذا المصير.. وبعبارته: «**كنت متألما أشد الألم، فها أنذا أرى الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها العزيز الغالى، الذى ورثته وحمته وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرنا كاملة، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه، والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية.. وكان ينفّس عن نفسى بعض الشىء، الإفضاء بهذا الشعور إلى كثير من الأصدقاء الخلصاء من زملائنا الطلاب بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى..**».

* وكانت المكتبة السلفية ـ لصاحبها العالم المجاهد محب الدين الخطيب [١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ/ ١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م] ـ مكان شكواه ومنتدى محاوراته مع العديد من العلماء والطلاب.. وكذلك كانت دار مجلة [المنار].. لصاحبها العالم المجاهد الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م].. والتى كان يفد إليها العديد من تلاميذ الأفغانى ومحمد عبده..

* وعندما كان يهم بمغادرة مقاعد الدراسة بدار العلوم، ويدلف إلى ميادين الحياة العامة، أعلن عن «أمله.. وخطته».. وذلك عندما كتب فى امتحان مادة «الإنشاء»، جوابا على سؤال أستاذه أحمد يوسف نجاتى:

ـ «اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبيِّن الوسائل التى تعدها لتحقيقها. . »..
فكانت إجابة حسن البنا ـ فى «ورقة الإجابة» ـ تقول:

«إن أعظم آمالى بعد إتمام حياتى الدراسية أملان:

١ ـ خاص: وهو إسعاد أسرتى وقرابتى.

٢ ـ وعام: وهو أن أكون مرشدا معلما، إذا قضيت فى تعليم الأبناء سحابة النهار، قضيت ليلى فى تعليم الآباء هدف دينهم ومنابع سعادتهم.. تارة بالخطابة والمحاورة، وأخرى بالتأليف والكتابة، والثالثة بالتجول والسياسة.

وقد أعددت لتحقيق الأول: معرفة بالجميل. ولتحقيق الثانى، من الوسائل الخلقية: «الثبات والتضحية»، وهما ألزم للمصلح من ظله، وسر نجاحه كله..
ومن الوسائل العلمية: درسا طويلا، سأحاول أن تشهد لى به الأوراق الرسمية، وتعرفا بالذين يعتنقون هذا المبدأ أو يعطفون على أهله، وجسما تعوَّد الخشونة على ضآلته وألف المشقة على نحافته، ونفسا بعتُّها لله صفقة رابحة، راجيا منه قبولها، سائله إتمامها..

ذلك عهد بينى وبين ربى، أسجله على نفسى، وأشهد عليه أستاذى، فى وحدة لا يؤثر فيها إلا الضمير»..

فكان العهد.. والصفقة.. والمبايعة.. التى كانت أربح صفقات القرن الرابع عشر الهجرى!..

* لقد تخرج حسن البنا من دار العلوم.. وحصل على دبلومها [سنة ١٣٤٦هـ / سنة ١٩٢٧م] ـ ولم يكن قد أتم يومئذ عامه الواحد والعشرين.. وكان ترتيبه الأول على دفعته.. ولقد رشح للسفر إلى باريس للدراسات العليا.. لكنه تنازل عن حقه فى الابتعاث، مفضلا البقاء بمصر للعمل على تحقيق الأهداف التى حددها لنفسه فى هذه الحياة..

* ولقد عين مدرسا بإحدى المدارس الابتدائية بمدينة الإسماعيلية فى سبتمبر سنة ١٩٢٧م / ربيع أول سنة ١٣٤٦هـ..

وفى الإسماعيلية رأى من «الحوافز المستفزة» أكثر مما رآه فى القاهرة . . رأى نماذج الاحتلال والاستغلال الأجنبى مجسدة أمام سمعه وبصره . . ورأى التغريب الثقافى والاجتماعى يتحدى هوية الأمة وكرامتها :

«فهذا المعسكر الإنجليزى فى غربها ببأسه وسلطانه ، يبعث فى نفس كل وطنى غيور الأسى والأسف ، ويدفعه دفعا إلى مراجعة هذا الاحتلال البغيض ، وما جره على مصر من نكبات جسام .

وهذا المكتب الأنيق الفخم ، مكتب إدارة شركة قناة السويس فى سلطانه وسطوته ، واستخدامه للمصريين ، ومعاملته إياهم معاملة الأتباع المضطهدين ، وإكرامه للأجانب ، ورفعه إياهم إلى مرتبة السادة والحاكمين . .

وهذه المنازل الفخمة المنتشرة فى حى الإفرنج بأكمله ، ويسكنها موظفو الشركة الأجانب ، وتقابلها مساكن العمال العرب فى ضآلتها وصغر شأنها .

والشوارع كلها تحمل لوحات لم تكتب إلا بلغة هذا الاحتلال الجاثم على صدورها ، حتى شارع المسجد كان مكتوبا هكذا rue Du Mosquee !! . .

* وفى الإسماعيلية . . وفى هذا المناخ ، وتلك الملابسات . . قرر تأسيس [جماعة الإخوان المسلمين] . . وتوجَّه بدعوته إلى مختلف شرائح الأمة وقادة الرأى فيها :

- إلى العلماء أولاً . .

- وشيوخ الطرق ثانيًا . .

- والأعيان ثالثًا . .

- والأندية رابعًا» .

وكان أول المستجيبين لدعوته ستة رجال ، جميعهم من العمال الحرفيين . . فأسس بهم الجماعة فى ذى القعدة سنة ١٣٤٧هـ / أبريل / مايو سنة ١٩٢٨م .

* وكان للمرأة - منذ البداية - نصيب فى الدعوة . . فأسس حسن البنا - بالإسماعيلية - «معهد أمهات المؤمنين» لتربية البنات تربية إسلامية صالحة . . كما أنشأ - بالجماعة - «قسم الأخوات المسلمات» .

* ومن الإسماعيلية انتشرت الدعوة وتنظيمات الجماعة و«شُعَبها» إلى مدن مصر وقراها . . وتخطت حدود مصر إلى مختلف أنحاء عالم الإسلام . . بل وإلى مواطن الجاليات الإسلامية خارج عالم الإسلام . .

* وفي سبيل الدعوة والجماعة زار الأستاذ البنا ثلاثة آلاف قرية مصرية ـ من بين قرى مصر البالغ عددها يومئذ أربعة آلاف . . !! وذلك غير المدن، الكبير منها والصغير . . .

* وغير الخطابة ـ التي لم يكن يُجارى فيها ـ كانت الصحافة . . ميدانا لدعوته، فأصدر من المجلات والصحف :

١ ـ مجلة [المنار]، الشهرية . .

٢ ـ ومجلة [الشهاب] الأسبوعية . .

٣ ـ ومجلة [النذير] الأسبوعية . .

٤ ـ ومجلة [التعارف] الأسبوعية .

٥ ـ ومجلة [الكشكول الجديد] . .

٦ ـ وجريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية . .

٧ ـ وجريدة الإخوان المسلمين النصف شهرية .

٨ ـ وجريدة الإخوان المسلمين اليومية .

* ولقد رشح نفسه للانتخابات البرلمانية مرتين ـ بدائرة الإسماعيلية ـ : الأولى في انتخابات سنة ١٩٤٢م . . ثم تنازل عن الترشيح بطلب من الحكومة، بناء على ضغط وتهديد من المحتلين الإنجليز . والثانية في انتخابات سنة ١٩٤٤/ ١٩٤٥م . .

* وكان الأستاذ البنا وجماعته في طليعة القوى التي وعت خطورة القضية الفلسطينية، وجاهدت في سبيلها منذ الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦م . . فرفعوا شعارات الجهاد لإنقاذ فلسطين من المخطط الصليبي . . كما كانوا في طليعة الذين أعدوا العدة للجهاد المسلح . . وخاضوا معاركه على أرض فلسطين سنة ١٩٤٧/ ١٩٤٨م . . قبل وبعد دخول الجيوش العربية إلى أرض فلسطين ـ في مايو ١٩٤٨م . .

* وفى مايو سنة ١٩٤٦م . . جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ . . استقال حسن البنا من وظيفة مدرس ابتدائى . . بعدما يقرب من تسعة عشر عاما قضاها فى التدريس . . ويومها كان قد بلغ «الدرجة الخامسة»[!!!] بحكم «قانون الموظفين المنسيين»!! . .

* وبضغط من الاستعمار . . وخوفا من قوة الجماعة . . وخاصة بعد تجربتها الجهادية فى فلسطين، صدر الأمر العسكرى بحل الجماعة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م/ صفر ١٣٦٨م . . وكان عدد أعضائها العاملين يومئذ نصف مليون عضو . . معهم من الأعضاء المؤازرين أضعاف هذا العدد . ولها من «الشُعَب» المنتشرة فى مصر ما يزيد على ٢,٠٠٠ شعبة! . .

* وتسارعت الأحداث . . واغتيل الأستاذ الإمام الشيخ حسن البنا ـ بالقاهرة ـ فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م/ ربيع الآخر سنة ١٣٦٨هـ . فصعدت روح هذا الرجل الملهم المبارك إلى بارئها، بعد أن بذر البذرة التى أنبتت الشجرة الطيبة، التى امتدت أغصانها وأوراقها وثمراتها إلى كل أنحاء الكوكب الذى نعيش فيه . . والتى بارك الله فيها كما لم يبارك فى بذرة من البذور الكثيرة التى بذرت فى ذلك التاريخ! . .

* أما الثقافة التى صنعت هذا العقل المتفرد . . وصاغت هذا المشروع الإصلاحى، فإنها كانت مزيجا من:

١ ـ فقه القرآن الكريم . .

٢ ـ وفقه الهدى النبوى الشريف ـ حديثا وسيرة وخلقا . .

٣ ـ وفقه الواقع المعاصر والمعيش ـ مصريًا . . وعربيًا . . وإسلاميًا . . وعالميًا ـ.

٤ ـ والتصوف الشرعى، البرىء من البدع والخرافات . . والذى أخذه عن الطريقة الحصافية، التى تأثر بشيخها السيد حسنين الحصافى، وقال عنه:

«وكان أعظم ما أخذ بمجامع قلبى، وملك علىَّ لبى من سيرة الشيخ الحصافى ـ رضي الله عنه ـ شدته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنه كان لا يخشى فى الله لومة لائم، ولا يدع الأمر والنهى مهما كان فى حضرة كبير أو عظيم» . .

٥ ـ والسلفية التجديدية الواعية التى أخذها عن الأستاذ محب الدين الخطيب . .

٦ ـ والعقلانية المؤمنة التى تشبع بها من المدرسة الإحيائية الإصلاحية لجمال الدين الأفغانى.. ومحمد عبده.. ورشيد رضا..

٧ ـ والمعارف العامة والإنسانية، التى رآها «حكمة»، هى ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها..

* * *

* ومن كلماته الجامعة.. وذات المغزى..

١ ـ عن الإسلام الثورة:

«إن الإسلام ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.. يزلزل الأوضاع الفاسدة، ويحطم صروح البغى والعدوان الشامخة، ويجدد معالم الحياة وأوضاعها، ويقيمها على أثبت الدعائم..

إنه ثورة على الجهل.. وثورة على الظلم بكل معانيه: ظلم الحاكم للمحكوم.. وظلم الغنى للفقير.. وظلم القوى للضعيف..

وثورة على الضعف بكل مظاهره ونواحيه: ضعف النفوس بالشح والإثم.. وضعف الرءوس بالغباء والعقم.. وضعف الأبدان بالشهوات والسقم»..

* * *

٢ ـ وعن تحرير مصر:

«أيها المصرى أيتها المصرية، أيها الشرقى أيتها الشرقية، علّموا أولادكم منذ نعومة أظفارهم أن يكرهوا وأن يمقتوا وأن يلعنوا الإمبراطورية البريطانية، كما يعلّم الآباء الإنجليز أبناءهم أن يحبوا إمبراطوريتهم..

تصرفوا بطريقة تحمل على الإنجليز أن يواجهوا قلوبا تكرههم، وألسنة تلعنهم وأيادى تذبحهم.. وإنه لا باب للحرية سوى باب العداء الصريح لبريطانيا، والإعداد الكامل والجهاد الواثب، ومرحبا به ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون».

٣ ـ وعن إنقاذ فلسطين:

«إن فلسطين هى قلب الشرق النابض، وموطن مقدسات مسلميه ومسيحيّيه على السواء..

وإن الشعب الفلسطينى هو من سلالة الصحابة الفاتحين . . وإن ثرى فلسطين قد رُوى بدماء عشرات الآلاف من صحابة نبينا محمد ﷺ . .

وإن قضية فلسطين هى قضية العالم الإسلامى بأسره، وهى ميزان كرامته، ومقياس هيبته وقوته.

وإن اليهود فى فلسطين خطر داهم على سياسة الشرق العامة، ومطامعهم فى الوطن القومى غير محصورة؛ فهم لا يقتصرون على فلسطين، ولكنهم سيتحيفون الأرض من كل جانب، وهم خطر على وحدة العرب فى الشرق؛ لأنهم لا يعيشون إلا فى جو التفريق، وهم خطر داهم على أخلاق الشرق، فهم قوم خُلُقُهم المال، باعوا من قبل آيات الله بثمن قليل، ولا يزالون يبيعون الأخلاق بثمن بخس.

وإن الصهيونية ليست حركة سياسية قاصرة على الوطن القومى لليهود أو الدولة المزعومة بالتقسيم الموهوم، ولكنها ثمرة تدابير وجهود اليهودية العالمية، التى تهدف إلى تسخير العالم كله لحكم اليهود، ومصلحة اليهود، وزعامة مسيح صهيون، وليست دولتهم التى يعبرون عنها بجملتهم المأثورة: (ملك سليمان وإسرائيل من الفرات إلى النيل) فى عرفهم، إلا نقطة ارتكاز تنقض منها اليهودية العالمية على الأمة العربية دولة فدولة، وعلى المجموعة الإسلامية أمة بعد أمة.

أما أمم الغرب، فى أوروبا وأمريكا، فقد تكفل الذهب اليهودى، والإغراء الصهيونى بتوجيه زعمائها وحكامها حيث يريد . .

وإن الإنجليز اليهود لن يفهموا إلا لغة واحدة: هى لغة الثورة والقوة والدم».

* * *

٤ ـ وعن الوحدة العربية:

«إن قضية وحدة العرب هى أعدل وأنجح وأوضح قضية فى التاريخ، فمن البديهيات التى لا تقبل الجدل: أن العرب أمة واحدة . وإن هذا التعبير يساوى فى أحقيته ووضوحه واستقراره فى النفوس والأذهان قول القائلين: السماء فوقنا

والأرض تحتنا . . فلقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية والمصلحية . . ».

❊ ❊ ❊

٥ـ وعن تحرير الوطن الإسلامى :

«إن الوطنية هى فرض من الله ، هو الذى أمر به ، وهى جزء من تعاليم الإسلام . .

ونحن لا نطيق أن يكون فى أرض الإسلام مستعمر واحد . . ولذلك ، يعمل [الإخوان] بالنفس والمال فى سبيل تحرير الوطن الإسلامى العام . .

إن الوطن الإسلامى لا يتجزأ ، وإن كل شبر فيه مسلم يقول : لا إله إلا الله ، أو رفعت عليه يوما من الأيام راية الله قد صار أمانة فى يد المسلمين قاطبة ، ووجب عليهم أن يفدوا حريته بالنفوس والأرواح . . » . .

❊ ❊ ❊

٦ـ وعن الجهاد . . والاستشهاد :

«إن الأمة التى تحسن صناعة الموت ، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة ، يهب الله لها الحياة العزيزة . .

فاعملوا للموتة الكريمة : تظفروا بالسعادة الكاملة . . رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد فى سبيله . . » . .

❊ ❊ ❊

❊ وعندما سئل هذا الرجل الربانى الملهم ، الذى كان من أبرز مجددى الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى ـ العشرين الميلادى ـ . . والذى أكرمه الله فاستجاب دعوته ورزقه كرامة الاستشهاد فى سبيله ـ . . عندما سئل :

ـ من أنت؟؟

كان جوابه :

«أنا:

* سائح يطلب الحقيقة..

* وإنسان يبحث عن مدلول الإنسانية بين الناس..

* ومواطن ينشد لوطنه الكرامة والحرية والاستقرار والحياة الطيبة فى ظل الإسلام الحنيف..

* ومتجرد أدرك سر وجوده، فنادى: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين».

***

تلك سطور ـ مجرد سطور ـ من «بطاقة حياة» هذا الإمام الشهيد ـ عليه رحمة الله[1].

---

(١) انظر فى ذلك: حسن البنا [مذكرات الدعوة والداعية] طبعة القاهرة ـ دار الشهاب ـ بدون تاريخ. ود. إبراهيم البيومى غانم [الفكر السياسى للإمام حسن البنا] طبعة القاهرة ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤١٢هـ/ سنة ١٩٩٢م. والزركلى ـ خير الدين ـ [الأعلام] طبعة بيروت الثالثة. ومحمد عبد الجواد [تقويم دار العلوم] المجلد الأول. طبعة القاهرة سنة ١٤١٠هـ/ سنة ١٩٩٠م. ود. محمد عمارة [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة القاهرة ـ دار الشروق سنة ١٩٩١م.

ـ ٢ ـ

التأسيس لليقظة الإسلامية الحديثة

على امتداد أوطان الأمة الإسلامية ـ من «غانة» ـ غربا ـ إلى «فرغانة» ـ شرقا . . ومن حوض «نهر الفولجا» ـ في الشمال ـ إلى جنوبي «خط الاستواء» ـ بل وفي مواطن الأقليات الإسلامية خارج عالم الإسلام ـ . . . إذا نظر الباحث المنصف إلى ظواهر البعث والإحياء والنهضة والتجديد والإصلاح، ومشروعاتها الحضارية النهضوية، وحركاتها وتنظيماتها . . فسيجد أن ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومشروعها الحضاري، هي أقوى وأكبر وأخطر وأعمق ظواهر العصر الذي نعيش فيه . . .

يستوي في ذلك التقييم، والتسليم بتلك الحقيقة، الباحثون المؤيدون، أو المناوئون لهذا المشروع وتلك الحركات! . .

والحقيقة الثانية: التي لن تجد عليها خلافا بين الباحثين، ولا بين حركات هذه الصحوة الإسلامية المعاصرة وتياراتها، **هي الأبوة والإمامة والريادة التي يمثلها الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى ـ التي تمثل أمل النهضة لدى الإسلاميين . . ومصدر القلق المزعج والمخيف لأعداء الإسلام والمسلمين! . .**

أما الحقيقة الثالثة: في هذا المقام ـ فهي أن أبوة حسن البنا وإمامته وريادته لهذا الإحياء الإسلامي المعاصر؛ إنما تمثل «**الحلقة المعاصرة**» في سلسلة حلقات هذا الإحياء الإسلامي الحديث . . إنها مرحلة متميزة في «الكم» و«الكيف» . . ولكنها امتداد متطور لمرحلة «النشأة» و«التبلور» التي تمثلت في حركة «الجامعة الإسلامية» التي ارتاد

ميدانها ورفع أعلامها رائد الإحياء الإسلامي في العصر الحديث: فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م].. والتي كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] المهندس الأول لتجديدها الفكري.. كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] الامتداد، الذي حمل رسالتها ـ عبر مجلة [المنار] ـ إلى العالم الإسلامي على امتداد أربعين عاما [١٣١٥ ـ ١٨٩٨م/ ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م]... ثم أسلم أمانتها إلى الشيخ حسن البنا..

* الذي واصل إصدار [المنار] لعدة سنوات.

* والذي أخذ في تفسير القرآن الكريم من حيث انتهى رشيد رضا.. الذي سبق وواصل تفسيره من حيث انتهى محمد عبده..

* والذي حافظ ـ في البرنامج التثقيفي لجماعته ـ على تدريس كتب: [رسالة التوحيد] و[الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ للإمام محمد عبده ـ و[طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد] ـ لعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م]..

وذلك لتأكيد قسمة «التواصل» و«الامتداد».. مع «التطور» الذي انتقلت به الظاهرة الإحيائية والتجديدية ـ على يديه ـ إلى «الكيف» الجديد والمعاصر، الذي استجاب ويستجيب لتغيرات الواقع... والتحديات..

* * *

لقد بدأ المشروع الحضاري الإسلامي، على يد الأفغاني، حركة تجديد واجتهاد وإحياء، تستهدف تحرير العقل المسلم من أغلال الجمود والتقليد، ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن الحقبة «المملوكية ـ العثمانية»، وليتمكن من مواجهة التحدي الحضاري الغربي، الذي اقتحم حياتنا الفكرية وواقعنا الإسلامي في ركاب الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة.. وبعبارة الإمام محمد عبده: **فلقد «وجه الأفغاني عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول.. أما مقصده السياسي: فهو إنهاض دولة**

إسلامية من ضعفها، وتنبهها للقيام على شئونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده . .»[1].

ولأن المشروع الحضارى الغربى ـ الغازى ـ كان وضعيًا علمانيًا لا دينيًا . . فلقد كان شعار هذه اليقظة الإسلامية الحديثة: «الإصلاح بالإسلام»، ليتميز مشروعها عن هذا المشروع الغربى . . ولكى تعود الأمة لمواصلة نهضتها الحديثة، انطلاقًا من الأصول الإسلامية الجوهرية والنقية، التى صنعت نهضتها الأولى . . فتتجاوز بذلك مرحلة تراجعها الحضارى، وتنجو من المسخ والنسخ والتشويه الذى يريده لها الغرب الاستعمارى.

ولذلك، حدد الأفغانى ومحمد عبده «المحتوى الفكرى» «الحركة الجامعة الإسلامية»، عندما قال الأول:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها . . وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان . . فهو يذهب بمعتقديه إلى جواد الكمال الصورى والمعنوى، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى، ويرفع أعلام المدنية لطلابها؛ بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين . .

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة، التى خملت بعد نباهة، واطلب سبب نهوضها الأول . . إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكَم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزكٍّ للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما نراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها؛ إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا . . فعلاجها الناجع؛ إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته . .

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣٤٩، ٣٥٢، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن جراثيم ـ [أصول] ـ الدين متأصلة فى النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يحجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فيتعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا..

ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقوَّاها، ونوَّر عقلها، وقوَّم أخلاقها، وسدَّد أحكامها، فسادت على العالم..»[1].

هكذا أعلن الأفغانى «البيان الإسلامى» لليقظة الإسلامية الحديثة..

ثم واصل الإمام محمد عبده السير على هذا الطريق، بالإلحاح على تزكية شعار «الإصلاح بالإسلام».. فقال ـ ناقدا للمدنية الغربية ـ:

«إنها مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة»، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك»!

ومزكيا للإسلام كدعامة فكرية لليقظة الإسلامية والمشروع النهضوى الإسلامى؛ لأنه دين الوسطية الجامعة. فقال:

«لقد ظهر الإسلام، لا روحيا مجردًا، ولا جسديًا جامدا، بل إنسانيا وسطًا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره؛ ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية..

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣١، ١٤١، ١٧٣، ١٩٧ ـ ١٩٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

لقد جاء الإسلام: كمالاً للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه».

ثم تحدث الإمام محمد عبده عن الإسلام كسبيل مفرد للتقدم والنهوض والإصلاح، فقال:

«إن أهل مصر قوم أذكياء.. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر. لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهى: أن البذرة لا تنبت فى أرض؛ إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر.

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية من عهد محمد على [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إلى اليوم.. فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا ـ وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم.

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا..

وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به. فلم العدول عنه إلى غيره؟!»[1]

* * *

هكذا تم التأسيس.. وحدث الاختيار.. وأعلن الانحياز إلى خيار «**الإصلاح بالإسلام**» كمحتوى فكرى لحركة الجامعة الإسلامية.

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص١٠٩، ٢٣١.

وتم ـ كذلك ـ ترتيب الأولويات بين ميادين الإصلاح . . إصلاح الأصول قبل الفروع . . والبدء بالتربية، وإصلاح مناهج الفكر، وتنقية الاعتقاد مما شابه من الخرافات والبدع، والتركيز على المؤسسات التي تصوغ العقل المسلم والوجدان الإسلامي . . وتقديم الأمة على الدولة، وأصول التربية على فروع السياسة .

وبعبارة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]:

«فإن السياسة لباب وقشور، وإن سياسة التربية هي الأصل لتربية السياسة ـ التي هي الفروع ـ والأصول مقدمة على الفروع . . ولباب السياسة، بمعناها العام، عند جميع العقلاء، هو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة؛ إلا بتثبيت مقوماتها من: جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة . . فوجود تلك المقومات شرط لوجودها، وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط، ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يُرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت «وطنا» . . »[١].

فالآمال في الإصلاح والنهوض إنما تُعلّق على الأمة، قبل الملوك والأمراء . .

وإعلانا عن هذا المنهاج في الإصلاح . . قال الإمام محمد عبده:

«لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأمر الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه . . لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

---

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ٢ ص ١٩٥ . تقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .

كل هذا أعده أمرا واحدا. وقد خالفت فيه رأى الفئتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو فى ناحيتهم.

أما الأمر الثانى: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير..»[1].

***

هكذا تم التأسيس لفكر حركة الجامعة الإسلامية، وتيار اليقظة الإسلامية الحديثة.. **الإصلاح بالإسلام وتقديم الأصول على الفروع - فى أولويات الإصلاح - والسلفية التجديدية، التى تعود - فى الدين - إلى المنابع الجوهر والنقية - لتجدد دنيا المسلمين بهذا الدين المتجدد أبدا.. والذى غدا التجديد فيه سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس مجرد حق من حقوق الفكر والمفكرين!..**

وعلى امتداد ما يقرب من أربعين عامًا [١٣١٥هـ - ١٨٩٨م/ ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م] كانت مدرسة [المنار] - التى قادها الشيخ محمد رشيد رضا - هى ترجمان هذا التيار التجديدى الإحيائى، الذى وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضارى الإسلامى، والذى كوّن «العقل.. الصفوة - النخبة» - كما تمثلت فى تنظيماته - وأبرزها تنظيم [جمعية العروة الوثقى] - التى كونها ورأسها جمال الدين الأفغانى.. والتى كان محمد عبده نائب الرئيس فيها، وواضع مقوماتها.. ورئيس تحرير جريدتها، التى حملت اسمها..:

***

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣١٨.

ـ ٢ ـ

تصاعد التحدى.. وعموم البلوى

فى أوائل القرن العشرين حذَّر الإمام محمد عبده من العواقب الوخيمة لصراع «العرب» مع «الأتراك»؛ لأن «**هذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام.. ودول أوروبة واقفة لهما بالمرصاد.. فإذا وهنت قوتهما فى الصراع، وثبتت دول أوروبة، فاستولوا على الفريقين، أو على أضعفهما.. فتكون العاقبة إضعاف الإسلام، وقطع الطريق على حياته..**»[1].

وبعد خمسة عشر عاما من هذا «التحذير ـ النبوءة» وقع المحظور.. وبدأ عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الإسلام..

* فالشريف حسين بن على [١٢٧٢ ـ ١٣٥٠هـ / ١٨٥٦ ـ ١٩٣١م] ـ أمير مكة ـ تمرد على الدولة العثمانية [١٣٣٤هـ / سنة ١٩١٦م] استجابة لعوامل داخلية، ومدفوعا ـ فى الأساس ـ بإغراءات إنجليزية!.. ففُتحت فى جدار دولة الإسلام الكبرى الثغرة التى أفضت إلى تنفيذ الغرب لمعاهدة «سايكس ـ بيكو» ـ السرية ـ التى عقدتها إنجلترا وفرنسا [سنة ١٣٣٤هـ / سنة ١٩١٦م] لتقسيم ولايات الدولة العثمانية بين أقطاب التحالف الاستعمارى الغربى.. ولوعد «بلفور» [١٣٣٦هـ / ١٩١٧م] بإقامة الكيان الصهيونى، قاعدة استعمارية غربية، على أرض فلسطين..

وعقب ذلك، احتل الفرنسيون الشام، وقال قائدهم «جورو» [١٨٦٧ ـ ١٩٤٦م] أمام قبر صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ / ١١٣٧ ـ ١١٩٣م] ـ بدمشق: «ها نحن

---

(١) المصدر السابق. جـ١ ص ٧٣٥.

قد عدنا يا صلاح الدين»؟!!! . . واحتل الإنجليز فلسطين والعراق، وقال قائدهم «اللنبي» [١٨٦١ ـ ١٩٣٦م] ـ عندما دخل القدس: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!! . .

* وفي ٢٢ رجب سنة ١٣٤٢هـ/ ٣ مارس سنة ١٩٢٤م ألغيت الخلافة الإسلامية . . ونُفي آخر خلفائها السلطان عبد المجيد الثاني [١٢٨٦ ـ ١٣٦٤هـ / ١٨٦٩ ـ ١٩٤٤م]، فزال «الرمز» وتحطم «الوعاء» الذي حافظ ـ بشكل أو بآخر ـ على وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام، والذي أبقت عليه الأمة، واعتصمت به منذ ظهور الإسلام! . .

والذين يعلمون عداء الغرب الاستعماري ـ تاريخيا ـ لهذا «الرمز» وهذا «الوعاء» . . والأفراح التي أقامها الصليبيون والصهاينة لهذا الحدث، يستطيعون تقدير وقعه على الإسلاميين وعلى عموم المسلمين . . ويفهمون معنى الرثاء الذي أعلنه أمير الشعراء أحمد شوقي [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] عندما قال:

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك، ونواح
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحّاح
والشام تسأل، والعراق، وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح؟!
يا للرجال، لحرة موءودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح
نزعوا من الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
وعلاقة فُصمت عرى أسبابها ... كانت أبرَّ علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... في كل خطوة جمعة ورواح
بكت الصلاة، وتلك فتنة عابث ... بالشرع، عربيد القضاء، وَقاح
فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو إلى الكذاب، أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يُباع الدين بيع سماح
يُفتَى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس، وحقدها الملحاح[1]

(١) أحمد شوقي [الشوقيات] المجلد الأول. جـ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٩. طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

وما هى إلا أشهرٌ حتى تحققت «نبوءة» أمير الشعراء. . فعلت أصوات دعاة الفتنة فى طول البلاد الإسلامية وعرضها. .

* ففى رمضان سنة ١٣٤٣هـ/ أبريل سنة ١٩٢٥م نشر الشيخ على عبد الرازق [١٣٥٠ ـ ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] كتابه [الإسلام وأصول الحكم]. . فكان أول كتاب يكتبه مسلم ـ بل وشيخ أزهرى، يتولى منصب القضاء الشرعى ـ يزعم فيه أن الإسلام دين لا دولة. . وأن الخلافة الإسلامية كانت دائما وأبدا، وعلى مر تاريخها سلطة قهر. . وأنها لا علاقة لها بالإسلام!.

ولقد وقع هذا الكتاب على العقل المسلم وقع الصاعقة. . ودارت حوله معركة لعلها أكبر معارك الشرق الفكرية فى القرن العشرين!. .

* وفى ذى القعدة سنة ١٣٤٣هـ/ يونيه سنة ١٩٢٥م عزل الإنجليز الشريف حسين بن على، ونفوه إلى جزيرة «قبرص». . فجسدوا بهذا القرار غدرهم «بالعرب والعروبة» بعد أن استعانوا بها على الغدر بالإسلام والمسلمين!. . وهكذا ضاع من يد المسلمين ـ إسلاميين كانوا أو قوميين ـ كل شىء!. .

* وفى سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٦م نشر الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] كتابه [فى الشعر الجاهلى]، الذى استخدم فيه منهاج «الشك الديكارتى» للتشكيك فى «الشعر الجاهلى». . ثم تجاوز نطاق «الشعر الجاهلى» إلى حيث شكك فى عقائد قرآنية، من مثل قصة الخليل إبراهيم، ورحلته الحجازية، وإقامته ـ مع ابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ قواعد البيت الحرام. .

فكان هذا الكتاب ـ بعد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ـ ثانى عمل فكرى ـ يكتبه شيخ أزهرى ـ يمثل اقتحام «التغريب» لمقدسات المسلمين، واستفزاز «النزعة المادية» للحضارة الغربية مشاعر المسلمين!. .

وهكذا حدث ما هو أخطر من احتلال الأرض، ونهب الثروات. . حدث الاختراق للعقل المسلم، وبدأ صوت «التغريب» ـ على ألسنة نفر من أبناء الأمة ـ يبشر بأن الخلاص لن يتحقق إلا عبر تبنى المشروع الحضارى الغربى، بخيره وشره، بحلوه ومره، بما يُحب فيه وما يُكره، بما يُحمد فيه وما يُعاب. . وذلك بدعوى أننا جزء من

طبيعة هذا المشروع الغربى؛ لأننا جميعا أبناء حضارة البحر المتوسط. ! . . وعقلنا يونانى، لم يغير القرآن من يونانيته، كما لم يغير الإنجيل يونانية العقل الغربى؛ إذ القرآن - فى دعواهم - مجرد مصدق للإنجيل !! . . [1] . . والإسلام - كالنصرانية - ليس إلا رسالة روحية، لا سياسة فيها ولا حكم ولا دولة. . بل، يا بُعْد ما بين السياسة والإسلام، وما كان محمد إلا صاحب سلطان روحى على القلوب، كالخالين من الرسل، لم يُقم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يبلور جماعة سياسية. . فرسالته، كسابقاتها، تدع ما لقيصر لقيصر وتقف - فقط - عند ما لله! [2] . . وللمؤمنين أن يؤمنوا ما شاء لهم الإيمان بقصص القرآن، لكن الباحثين لا بد لهم من الشك فيه! . . [3] . . وليست العربية هى لغة النهضة والتقدم؛ لأنها لغة القرآن والأخلاقيات العربية. فلا تصلح لعصر الديمقراطية والبرلمانات! . . ومعايير النضج الفكرى هى الإيمان بالغرب، والتقليد له. . والكفران بالشرق!! [4] . . ولهذا، فلا بد لنا «أن تسير سيرة أوروبا فى الحكم والإدارة والتشريع»! [5].

نعم. . حدث هذا الزلزال. . وهذا الاختراق للثوابت والعقائد والمقومات. .

وإذا كانت الزلازل السياسية والاستعمارية لها نظائر فى تاريخ الإسلام والمسلمين. . فإن هذا الاختراق الفكرى غير مسبوق فى تاريخ حضارة الإسلام! . . الأمر الذى اهتز له ضمير الأمة كما لم يهتز فى منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التى واجهتها. . فكانت الاستجابة الإيجابية أمام هذا التحدى غير المسبوق، تعبيرا عن نفاسة المعدن. . وتحقيقا للسنة الإلهية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. . سُنّة حفظ الإسلام بالمسلمين. . وتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام! . .

---

(١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ١ ص ٤٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

(٢) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ - ٨٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(٣) د. طه حسين [فى الشعر الجاهلى] ص ٨٠، ٨١. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

(٤) سلامة موسى [البلاغة العصرية واللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م. و[اليوم والغد] ص ٥ - ٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

(٥) [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ١ ص ٣٦، ٣٧.

ـ ٤ ـ

الجامعة الإسلامية فى طور جديد

نعم.. حدثت هذه الأحداث الجسام، التى هزت كيان الأمة، وزلزلت وجدان الإسلاميين فاستنفرتهم للمقاومة.. فلقد كان الإسلام، على مرّ تاريخ الأمة، هو حصنها المنيع عندما تتهدد الملمات والتحديات وجودها وهويتها.. وكانت صيحة «وا إسلاماه!» هي كلمة السر التى تتنادى بها الأمة، وتتداعى إليها عقولها وقلوبها.. خاصتها وجماهيرها.. كان هذا هو قانون «التحدى» و«التصدى» على مر تاريخ الإسلام والمسلمين.. ولقد عاد ليعمل عندما عمت البلوى أثناء الحرب الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ ـ ١٣٣٦هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م].. وفى أعقابها.

* ففى سنة ١٣٤٦هـ سنة / ١٩٢٧م ـ بعد فشل المؤتمرات الحكومية وشبه الحكومية التى عقدت لإنقاذ الخلافة ـ اجتمع صفوة علماء الإسلام ومفكريه ـ بالقاهرة ـ وأسسوا جمعية «الشبان المسلمين»..

* وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقى قد تحدث ـ فى رثائه للخلافة ـ عن بكاء ممالك الإسلام ونواحى دياره على إسقاطها:

.. وبكت عليك ممالك ونواح..

فلقد كان حسن البنا ـ مع ثلاثة من رفاقه ـ يبكون بكاء حقيقيًا ـ على الخلافة الإسلامية.. وعلى الحال الذى وصلت إليه الأمة.. مع معاناة التفكير ـ ليل نهار ـ فيما يجب عمله لإنقاذ الأمة من هذا المنحدر الخطير الذى سقطت فيه.

وعن هذه الحال النفسية التى عاشها الفتى ـ ابن العشرين عاما . . المتخرج من كلية دار العلوم ـ حدثنا فقال :

« . . وليس يعلم إلا الله كم من الليالى كنا نقضيها نستعرض حال الأمة ، وما وصلت إليه فى مختلف مظاهر حياتها ، ونحلل العلل والأدواء ، ونفكر فى العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء ! . . وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا فى مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة ، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهى ويترددون على أندية الفساد والإتلاف . » .

ثم يمضى للإشارة إلى « القرار التاريخى » الذى اتخذه ـ هو ورفاقه الثلاثة ـ فى « اللحظة التاريخية » ـ فيقول :

« لقد ألهبت هذه الحوادث نفسى ، وأهاجت كوامن الشجن فى قلبى ، ولفتت نظرى إلى وجوب الجد والعمل وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس . . »[1] .

* هكذا كانت سنة ١٣٤٧هـ / سنة ١٩٢٨م هى سنة « اللحظة التاريخية » ، التى مثلت « التطور النوعى » لإنجاز الشيخ حسن البنا ، فى سياق تطور المشروع الإسلامى للنهضة الحضارية وتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام . . « اللحظة التاريخية » التى أدرك فيها هذا الرجل الملهم والمبارك أن تصاعد التحديات . . وثغرات الاختراق . . وعموم البلوى ، إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة ـ التى كانت عليه منذ [العروة الوثقى] وحتى [الشبان المسلمين] ـ إلى الدائرة التى تشترك فيها « الأمة » مع « النخبة » ، وإلى المستوى الذى تسهم فيه « الجماهير » مع « الصفوة » فى مواجهة التحديات . .

فالغرب الاستعمارى والفكرى لم يعد « على الأبواب » ـ كما كان الحال فى عصر الأفغانى ـ وإنما أصبح فى داخل المعدة الإسلامية . . والتخلف الموروث لم يعد بالثقل الذى كان عليه فى عصر الأفغانى ومحمد عبده ، وإنما أصبح الثقل لخطر التغريب . . فتغيرت ـ إذاً ـ موازين التحديات ، الأمر الذى فرض إعادة الترتيب للأولويات . .

---

(١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ـ رسالة المؤتمر الخامس . ص ١٥٠ ، ١٥١ ، طبعة القاهرة ـ دار الشهاب . . بدون تاريخ .

لقد كان النصف قرن الذى مضى من عمر الجامعة الإسلامية تأسيسا لمشروع النهضة الإسلامية . . وتكوينا «للعقل» القائد لهذا المشروع . . وأمام تصاعد التحديات . . والاختراق من الداخل . . كان لا بد من بلورة «جسم» لهذا «العقل» ! . . فكان الإنجاز التاريخى لحسن البنا، فى سياق الإحياء الإسلامى : الانتقال «بأسس المشروع الحضارى» و«مناهج التجديد لدين الأمة ودنياها» إلى «معالم» أشد وضوحا، وأكثر تفصيلا، وأقرب إلى التنزيل على الواقع الذى استجد، والمتغيرات التى حدثت فى موازين التحديات، حتى يقترب هذا المشروع و«معالمه» من «البرنامج» المقدم إلى «الجماهير».

وأيضا، الانتقال «بالتنظيم» ـ الحامل للرسالة ـ من إطار «الصفوة» ـ صفوة أولى الأمر ـ كما كان الحال فى [جمعية العروة الوثقى] إلى إطار الجماهير، كما تجسد فى [جماعة الإخوان المسلمين].

تلك هى «اللحظة التاريخية» لحسن البنا . . وذلك هو «التطور النوعى»، و«الإضافة الكيفية» لإنجازه، فى السياق التاريخى لحركة الإحياء الإسلامى الحديث . . وتلك هى «بصمته» المتميزة فى ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة . .

* * *

ـ ٥ ـ

من معالم التجديد فى مشروعه الحضارى

وإذا كان المقام لا يتسع لحديث مفصل عن معالم المشروع التجديدى للنهضة الحضارية الإسلامية، كما صاغه الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا لحركة الصحوة الإسلامية المعاصرة، ممثلة فى [جماعة الإخوان المسلمين] . . فإننا نقف عند إشارات إلى عناوين أمهات المسائل فى هذا المشروع . . وعلى سبيل المثال :

أ ـ التميز عن المؤسسات الدينية التقليدية

فلم يكن الإسلام عند [الإخوان المسلمين] ـ كحركة إحياء إسلامى ـ كما هو عند "المؤسسات الدينية التقليدية"، تلك التى كانت لا تزال ـ فى جملتها ـ واقفة عند "المتون" و"الحواشى" و"التعليقات" و"الاعتراضات" التى أفرزها عصر التراجع الحضارى ـ المملوكى ـ العثمانى ـ والتى أقامت شبه قطيعة معرفية مع عصر الازدهار والإبداع فى تاريخنا الحضارى . . واتخذت موقفا غير ودى من إبداعات العصر الحديث فى التجديد والإحياء . .

لم يكن الإسلام، عند [الإخوان المسلمين]، هو ذلك الذى وقفت عنده المؤسسات التقليدية فى التعليم الدينى . . وإنما تقدم [الإخوان] خطوات ؛ فتجاوزوا فَهْم هذه المؤسسات للإسلام . . ومن هنا كانوا ـ بحق ـ فصيلا من فصائل تيار التجديد . .

* ولم يكن الإسلام ـ عند حسن البنا . والإخوان المسلمين ـ وقوفا عند العقل وحده ـ فهو دين . . مطلق ـ بينما العقل نسبى الإدراك، ككل ملكات الإنسان .

ولا وقوفًا عن «النقل» وحده. فلله ـ سبحانه وتعالى ـ مع النقل ـ هدايات أخرى وهبها وسخرها للإنسان..

ولا وقوفًا عند التجارب والحواس وحدها.. وإلا كان الناس «خبراء لا قلوب لهم»!.. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، لا يتجاوزون حدوده..

ولا وقوفا عند القلب والوجدان وحدهما.. وإلا كانت «الثمرة» «دراويش» لا عقل لديهم يضبط خطرات القلوب!..

وإنما كان الإسلام الإحيائي ـ عند حسن البنا ـ هو ذلك الدين الشامل، الذي يرجع ـ في مصادر المعرفة ـ إلى كتابي الوحي والكون ـ كتاب الله المسطور.. وكتابه المنظور..

ولذلك أعلن حسن البنا أن جماعته هي **«دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب»**[1].

.. وأنها ـ لذلك ـ جامعة لأصول التجديد.. ولمعالمه، ومستجيبة لملكات الإنسان.. وملبية لشرائح الأمة ومكوناتها.. وأيضًا مراعية لمستوى الجماهير.. فهي:

«دعوة سلفية.. وطريقة سنية.. وحقيقة صوفية.. وهيئة سياسية.. وجماعة رياضية.. ورابطة علمية ثقافية. وشركة اقتصادية.. وفكرة اجتماعية..»[2].

* * *

ب ـ الجمع بين «النظر العقلي» و«النظر الشرعي»

وفي مواجهة الاستقطاب الحاد بين الغلاة..

الغلاة الذين تخندقوا أمام ظواهر النصوص..

والغلاة الذين ألّهوا براهين العقول، ونقلوها من «النسبية» إلى «الإطلاق».. وقف الأستاذ البنا ـ بالتجديد الإسلامي ـ عند وسطية الإسلام. فقطع باستحالة الخلاف

(١) المصدر السابق، رسالة دعوتنا في طور جديد ـ ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس ـ ص ١٥٤، ١٥٥.

والصدام والتناقض بين «النظر العقلى» و«النظر الشرعى» فى الأمور «القطعية» . . ورأى أن بعض المجالات المعرفية مختص بواحد من سبيل النظر دون الآخر . . كالإلهيات . . . ـ مثلا ـ :

«فذات الله ـ تبارك وتعالى ـ أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية، أو تدركها الأفكار الإنسانية؛ لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة، محصورة القدرة . . فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء . . [1] **فى مثل هذه الميادين، ولذلك فإن «الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها، وعرفها قلة علمها، وندبها إلى الاستزادة من معارفها، فقال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥] ـ وقال تعالى: ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه: ١١٤].**

وإذا كانت «طبيعة المبحث» هى التى تحدد أداة النظر فيه، وهل الأولى أن تكون «العقل» أو «الشرع»، فإن اختلافهما إنما يكون فى «الظاهر»، وفيما هو «ظنى»، لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة «اليقين» . . «فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى» ما لا يدخل فى دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، **فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى؛ فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت بالعقل أو ينهار . . »**[2].

وإذا كان الإسلام قد رفض «غرور العقل» و«انفراده بالنظر» فى كل الميادين، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى . . فإنه **«لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول**[3] **. . بل جاء يحرر العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء . .** «والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها . . فهو أحق الناس بها»[4] . رواه الترمذى وابن ماجه . .

وهذا الموقف الإسلامى الوسط، إزاء «العقل والعقلانية»، نابع من التمييز بين مجالات البحث وطبائع الأشياء موضوع النظر . . فمن هذه المجالات، ما تكون

---

(١) المصدر السابق. رسالة العقائد. ص ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق. رسالة التعاليم. ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق. رسالة العقائد. ص ٢٩٤.

(٤) المصدر السابق. رسالة التعاليم. ص ٢٧٠.

السيادة الأولى فيه للنظر العقلى، ومنها ما تكون السيادة الأولى فيه للنظر الشرعى ـ وهناك ميادين تكون السيادة فيها للحواس والتجربة.. وأخرى تكون السيادة الأولى فيها للقلب والوجدان..

هذا الموقف الإسلامي المتميز، هو الذى يرفض الخرافة، المنكرة للعقل.. كما يرفض المادية، المنكرة لعالم الغيب، ولما يعلو على الفهم ـ وإن لم يناقض العقل ـ فيرفض ـ هذا الموقف الإسلامي ـ «الإيمان الأسطورى»، كما يرفض «العقلانية اليونانية ـ الأوروبية»، التى أنكرت الوحى، ووقفت عند النظر العقلى المجرّد وحده، وعالم الشهادة دون سواه.. وإذا كان تاريخ «العقل البشرى» يشهد على تذبذبه «بين:

١ ـ طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب..

٢ ـ وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول..

وكلٌ من هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح، وغلو فاحش، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان، **فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضية فصلاً حقًا.. فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل.. إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله.. فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع، وتكتشف، وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات.. فإلى هذا اللون من التفكير، الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية، ندعو الناس»**[1].

هكذا قال الأستاذ البنا، فاصلاً ومفصلاً القول فى هذا المنهج الإسلامى الوسطى، الرافض لكل ألوان الغلو فى هذا الميدان..

* * *

ج ـ مرونة الشريعة.. والانفتاح على الحكمة الإنسانية

وحتى يكون الباب مفتوحا ـ حقًا ـ أمام التجديد، جاء الإسلام ـ فى المعاملات.. والاجتماعيات.. والسياسات ـ بالكليات.. فوقفت شريعته ـ التى هى وضع إلهى

---

(١) المصدر السابق، رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١١١ ـ ١١٢.

ثابت ـ عند فلسفة التشريع ـ ولم تأت بتفاصيل التشريعات ـ وركزت على «القواعد» و«النظريات» و«الكليات» تاركة الباب مفتوحا أمام «الاجتهاد» المحكوم بهذه الكليات والقواعد والفلسفات والنظريات . . ومفتوحا ـ كذلك ـ أمام التجديد الذى يضع هذه الاجتهادات فى الممارسة والتطبيق . . فكان هذا المنهج الإسلامى الذى يواكب كل المستجدات بالحلول الجديدة، والذى تبقى فيه هذه الحلول الجديدة إسلامية دائما وأبدا؛ لأنها فروع وأوراق للجذور والأصول والكليات الثوابت التى لا تغيير فيها ولا تبديل.

وعن هذا الموقف الإسلامى من الكليات الثوابت . . والجزئيات المتجددة، كتب الأستاذ البنا فقال:

«يعتقد الإخوان المسلمون: أن الإسلام، كدين عام، انتظم كل شئون الحياة، فى كل الشعوب والأمم، لكل الأعصار والأزمان . . جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة، وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة؛ فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشئون، ويرشد الناس إلى الطرق العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها[1] . . لقد جاء الإسلام للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، وتتناول المسائل الكلية، ولا تتورط فى الجزئيات، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشىء منها . . ولقد فرق الفقهاء، فى النظرة التشريعية، بين ما هو من قواعد أحكام العبادات، وشئون الحياة الاجتماعية، فأفسح للنظر والاجتهاد فى الثانية ما ليس فى الأولى حتى لا يكون على الناس حرج ولا مشقة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . . فليست فى الدنيا شريعة تقبل المرونة والسلاسة والسعة كشريعة الإسلام[2] . . ولذلك كان الإسلام هو شريعة كل زمان ومكان . . »[3].

---

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس. ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

(٣) المصدر السابق. رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١٢٠.

وهذا الجديد الذى تفتح له الشريعة صدرها وتفسح أمامه الطريق، كما يكون إبداعًا ذاتيًا للأمة الإسلامية، والعقل المسلم، يكون - أيضا - حكمة - أى صوابا عقليا - يلتقطها العقل المسلم أنى وجدها، وبصرف النظر عن المواطن الحضارية التى أبدعتها..

وعن هذه الحقيقة من حقائق الانفتاح الإسلامى على الآخرين، والتفاعل مع إبداعاتهم، يقول الأستاذ البنا:

«إن طبيعة الإسلام التى تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب.. لا تأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة[1].. إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء أحسنه، وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الخير من أى مكان، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو نافع ومفيد عن غيرنا، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا.»[2].

* * *

د - إسلامية النظام النيابى الدستورى

ولقد طبق الأستاذ البنا هذا المنهاج - منهاج انفتاح الإسلام - وخاصة فى الشئون الدنيوية - على مختلف الثقافات والحضارات - طبق هذا المنهاج على الموقف الإسلامى من النظام النيابى والدستورى الذى تبلور فى تجارب الديمقراطيات الغربية.. فقال:

«إنه ليس فى قواعد هذا النظام النيابى - الذى نقلناه عن أوروبا - ما يتنافى مع القواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدا عن النظام الإسلامى ولا غريبا عنه[3].. وإن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستورى - [التى قام عليها الدستور المصرى الموضوع سنة ١٣٤١هـ / سنة ١٩٢٣م] - التى تتلخص فى:

---

(١) المصدر السابق: رسالة المؤتمر الخامس: ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق. رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) المصدر السابق. رسالة نحو النور ص ٦٨

* المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها.

* وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة.

* وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال.

* وبيان حدود كل سلطة من السلطات.

هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده فى شكل الحكم. ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستورى هو أقرب نظم الحكم القائمة فى العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاما آخر.. فنحن نسلم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستورى باعتبارها متفقة؛ بل مستمدة من نظام الإسلام..»[1].

فالمبادئ والفلسفات والمقاصد التى جاء بها الإسلام فى سياسة الأمة والدولة يمكن أن تحققها «النظم المدنية» و«التجارب الإنسانية» التى هى إبداع إنسانى - إسلامى أو غير إسلامى - والمعيار، فى القبول والرفض، هو مدى تحقيق هذه «النظم» لمقاصد الإسلام فى إشراك الأمة فى سلطة صنع القرارات.. وفى تحقيق العدل بين الناس..

* * *

هـ - رفض التغريب.. ونقد الحضارة المادية الغربية

وفى مواجهة «التغريب».. الذى اخترق عقل الأمة، وغدا له أنصار من بين أبنائها.. يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول:

«إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا فى أرض الإسلام نفسه، فى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى.

وكما كان لذلك العدوان العسكرى أثره فى تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الإسلامية[2].. إن مدنية الغرب، التى زهت

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٧٢، ١٧٣.
(٢) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٥٠، ١٥١.

بجمالها العلمي حينا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتنتحر! . . فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان. . وقد حار الناس فى علاج شأنها، وضلوا السبيل!

ونحن نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شيء. نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد. .»[1].

* * *

ولقد كان رفض «التغريب» - في مشروع الأستاذ البنا - رفضا «للتقليد. . والتبعية». . ولم يكن رفضا «للتفاعل - الصحى - بين الحضارات». . ولا دعوة «للعزلة. . والانغلاق. . والاكتفاء الذاتي». . فهو الذى يقول عن حضارتنا الإسلامية وأمتنا الإسلامية:

«لقد اتصلت بغيرها من الأمم، ونقلت كثيراً من الحضارات؛ ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا، فعربتها أو كادت، واستطاعت أن تصبغها، وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيها من روعة وحيوية وجمال، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعًا، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية»[2].

وهكذا كان الموقف التجديدى - إزاء الحضارات الأخرى - وسطا. . يرفض «الانغلاق. . والعزلة» ويرفض «التبعية. . والتقليد». . ويتخذ الموقف النقدي، الذى يميز ما بين «المشترك الإنساني العام» وما بين «الخصوصيات العقدية والفلسفية والثقافية». . فهو «التفاعل»، الذى ينفتح على الدنيا من موقع الراشد المستقل، الذى لا يفقد هويته ولا يفرط فى روحه الحضارية المتميزة عن الآخرين.

---

(١) المصدر السابق. رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق. رسالة بين الأمس واليوم. ص ١٣٠.

و ـ التمييز بين المقدس المعصوم.. وبين التراث الفكرى

وفى مواجهة «**التخلف الموروث**» . . وتيار «التقليد لهذا التخلف» و«الجمود على موروثه»، دعا الأستاذ البنا إلى «التجديد»، وحدد فى صراحة ووضوح : أن دعوته هى واحدة من «**الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب** . . »[1] .

وطالب، فى النظرة النقدية للتراث والتاريخ، بالتمييز بين «**الدين الثابت**» وبين «**الفكر المتغير**» و«**الممارسات البشرية**» . . وهو ما يعنى التطبيق لمنهج التجديد الإسلامى فى العودة إلى المنابع الجوهرية والنقية المعصومة ـ الكتاب وصحيح السنة ـ أى البلاغ القرآنى والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى . . فهو «المقدس ـ الملزم»، بينما الفكر الإسلامى، والتراث الحضارى، وتجارب التاريخ، هى كنوز نحييها ونحتضنها، ونستلهم منها؛ ولكن دون تقديس ولا تعصب ولا إلزام . . فالتجديد : هو عودة للمنبع، مع الدراسة للواقع المعيش، والبحث عن إجابات لعلامات استفهام هذا الواقع المعيش والمتجدد فى هذه المنابع، مستفيدين الاستفادة الواعية والمرنة من هذا التراث الفكرى والحضارى والتاريخى . . وعن هذا المنهج التجديدى يقول الأستاذ البنا :

«إن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسنة رسوله ﷺ . . وإن كثيراً من الآراء والعلوم ـ التى اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه ـ تحمل لون العصور التى أوجدتها، والشعوب التى عاصرتها، ولهذا يجب أن تُستقى النظم الإسلامية، التى تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوى؛ حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جمعاء . . »[2] .

فبهذا التجديد ـ والتحديد ـ يتحرر العصر من أسر العصور السابقة، ويتحرر العقل المعاصر من قيود العصور الماضية . . بل وتتحرر النصوص المؤسِّسة للدين ـ القرآن والسنة ـ من حجاب النصوص البشرية والاجتهادات التى أثمرتها ملابسات خاصة، فتعود الفاعلية الأولى لهذه النصوص المعصومة والمقدسة . . وبذلك التحرر يجد الواقع

---

(١) المصدر السابق ـ رسالة دعوتنا فى طور جديد ـ ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ـ رسالة المؤتمر الخامس ـ ص ١٥٤، ١٥٥ .

المعاصر والمعيش الإجابات على علامات استفهامه لدى العقل الذى يعايش هذا الواقع ويفقهه، فى ضوء كليات الكتاب والسنة، وانطلاقا منها، فتأتى الإجابات معاصرة حقًا.. وسلفية أيضًا!..

ونحن عندما نتأمل هذا المنهج فى التجديد الإسلامى، عند الأستاذ البنا، ونتأمل العبارات التى أوردناها له هنا، نتذكر - على الفور - صياغة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لذات المنهج، عندما قال: إنه قد دعا إلى **«تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى..»**[1].

وبهذا المنهج تتحول السلفية إلى تحرير وتجديد، لا إلى جمود وتقليد، كما فهمها آخرون.

وهنا - أيضا - يتميز التجديد الإسلامى عن «الحداثة» - بمعناها الغربى - فضلا عن تميزه عن الجمود والتقليد..

فالجمود والتقليد قد حوّلا «التراث» إلى مرجعية كادت أن تحجب المنابع الجوهرية والنقية للإسلام، حتى غدت حجابا بين العصر وبين البلاغ القرآنى والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى.. وكادت المذهبية والمذاهب أن تحجب مقلديها عن منهج النبوة..

ثم جاءت «الحداثة» - بمعناها الغربى - لتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث والتراث؛ والموروث الدينى على وجه الخصوص؛ فأحدثت فراغا كاملا، فلا «التراث» أبقت، ولا هى رجعت إلى «المنابع» الأولى..

لكن التجديد الإسلامى - عند الأستاذ البنا.. وعند كل أئمة التجديد فى حضارتنا - قد كان دعوة للعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية، المقدسة.. والمعصومة.. والثابتة.. والملزمة للمسلمين.. وبعبارة الأستاذ البنا: **«المعين الصافى، معين السهولة الأولى»**.. مع الاستفادة من كنوز التراث الفكرى، بعد عرضه على معايير القرآن وصحيح السنة.. ومع فقه الواقع المعيش، حتى تجيب على علامات استفهامه هو، بألسنة الأحياء، لا بفتاوى الأموات!..

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣١٨.

ز ـ النقد لتاريخ الدولة.. ولمناهج الفكر في التاريخ الإسلامي

وانطلاقا من هذه النزعة التجديدية ـ التي هي ثورة على الجمود والتقليد ـ وقف الإمام البنا هذا الموقف النقدي، وهو يُقيِّم تاريخ الدول الإسلامية في تاريخنا الحضاري.. فكان حديثه عن العوامل السبعة التي أدت إلى تحلل كيانها، ومن ثم حدوث الفراغ الذي أخذ يتمدد فيه النموذج الغربي للدولة القومية الحديثة:

«فأهم عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية» ـ تاريخيا ـ هي:

أ ـ الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه..

ب ـ والخلافات الدينية والمذهبية..

جـ ـ والانغماس في ألوان الترف والنعيم..

د ـ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم لمعانيه..

هـ ـ وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة..

و ـ وغرور الحكام بسلطانهم، والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة.

ز ـ والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع..»[1].

حتى لنستطيع أن نقول: إن الأستاذ البنا قد أوجز في هذه العوامل السبعة، ليس فقط النقد العبقري لنظم الدول الإسلامية في تاريخنا الحضاري؛ وإنما ـ أيضا ـ النقد لمناهج التفكير لدى كثير من مدارسنا الفلسفية في تراثنا الفكري!.. تلك التي شغلت العقل بالجدل فيما وراء الطبيعة وعوالم الغيب عن مهمته الأصلية والأولى، وهي الإبداع في عالم الشهادة، لتسخير سنن هذا العالم في التقدم والنهوض..

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة بين الأمس واليوم. ص ١٣١، ١٣٢.

وبهذا النقد العبقرى قدم الأستاذ البنا للصحوة الإسلامية ميزانا تزن به نظم الحكم الإسلامية فى تاريخ الإسلام..

* * *

خ ـ الاستقلال الحضارى الشامل.. وسيادة الأمة

وفى مواجهة الذين اكتفوا من مقاصد «الاستقلال» بالاستقلال «السياسى» ـ الذى يقف عند «العلم» و«النشيد»! ـ.. دعا الأستاذ البنا إلى الاستقلال الشامل الذى يحقق «سيادة الأمة»:

«لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال»[1].. والاستقلال الاقتصادى للأمة ـ وليس لقطر واحد من أقطارها ـ فالهدف هو تحقيق نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد[2] والنقد، ذلك أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى، وتنقذنا من التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما»[3].. والاستقلال الحضارى، الذى يعيد لأمة الإسلام وحضارته مكانة الإمامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين.. «فلقد كانت قيادة الدنيا، فى وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب القيادة العالمية».

وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية، يظللها لواء الله وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣][4].

---

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس. ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) المصدر السابق، رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن. ص ١٠٠.

(٣) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) المصدر السابق، رسالة نحو النور. ص ٦٠.

إنه استقلال الحضارة «المتميزة» ـ لا «المنغلقة» ولا «التابعة» ـ ذلك أن «الإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها، ولكنه يأبى ـ كل الإباء ـ أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين..»[1].

***

ط ـ تكامل دوائر الانتماء: الوطني.. والقومي.. والإسلامي.. والإنساني

وفي مواجهة المضمون الغربي، الضيق الأفق.. والانعزالي، لكل من «الوطنية» و«القومية».. والذي وجد له دعاة وأحزابا تخندق بعضها عند «الوطنية الإقليمية».. وتخندق بعضها الآخر عند «القومية العنصرية».. وافتعل آخرون ـ كرد فعل ـ التناقضات بين الإسلام وبين الوطنية والقومية.. في مواجهة هذا الغلو، رأينا الأستاذ البنا يبعث ـ بالتجديد ـ المنهج الإسلامي الذي يؤلف بين جميع دوائر الانتماء ـ الوطني.. والقومي.. والإسلامي.. والإنساني.. فيسلكها جميعا في سُلَّم واحد.. فيعلن:

أ ـ أن «الإخوان المسلمين يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار.

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأسًا أن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه.

هذا من وجهة القومية الخاصة ـ [أي الوطنية].

ب ـ ثم هم، بعد ذلك، يؤيدون الوحدة العربية، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض..

لقد نشأ الإسلام الحنيف عربيًا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: «إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام»، وقد تحقق هذا المعنى حين

---

(1) المصدر السابق، رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن. ص٩٨.

دال سلطان العرب السياسى، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم. فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وأحب أن أنبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرَّفها النبى ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان».

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته وإعزاز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها.. فالوحدة العربية هى الحلقة الثانية فى النهوض.

وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية.

جـ- بقى أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية..

والحق أن الإسلام، كما هو عقيدة وعبادة، هو وطن وجنسية، وأنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] والنبى ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم»، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ولذلك؛ فالإخوان المسلمون يعملون للجامعة الإسلامية، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام.

د- أما الخلافة الإسلامية؛ فإن الإخوان المسلمين يعتقدون أنها رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير فى أمرها والاهتمام بشأنها.

والخلافة مناط كثير من الأحكام فى دين الله، ولهذا قدم الصحابة - رضوان الله عليهم - النظر فى شأنها على النظر فى تجهيز النبى ﷺ ودفنه، حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها.

والأحاديث التى وردت فى وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالا للشك فى أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير فى أمر خلافتهم منذ حُوِّرت عن منهجها، ثم أُلغيت، إلى الآن.

والإخـوان المسلمـون لهـذا يجـعلون فـكرة الخـلافـة والعـمل لإعـادتهـا فى رأس مناهجهم . وهم ـ مع هذا ـ يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التى لا بد منها ، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة ؛ لا بد أن تسبقها خطوات :

١ ـ لا بد من تعاون تام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها .

٢ ـ يلى ذلك تكوين الأحـلاف والمعـاهدات وعـقـد المجـامع والمؤتمرات بين هذه البلاد .

٣ ـ يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية .

٤ ـ حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عنه الإجـماع على «الإمـام» الذى هو واسطة العقد ، ومجمع الشمل ، ومهوى الأفئدة ، وظل الله فى الأرض[١] .

هـ ـ ولى أن أقول ، بعد هذا : إن الإخـوان يريدون الخير للعالم كله ؛ فهم ينادون بالوحدة العالمية ؛ لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ، ومعنى قول الله ، تبارك وتعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وأنا فى غنى ، بعد هذا البيان ، عن أن أقول : إنه لا تعارض بين هذ الوحدات بهذا الاعتبار ، وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها[٢] . . لقد وفق الإسلام بين شعور الوطنية الخاصة ، وشعور الوطنية العامة . .[٣] .

فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة «بالقومية الخاصة ـ أى الوطنية ـ سلاحا يميت الشعور بما عداها ؛ فالإخوان المسلمون ليـسوا معهم . ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس[٤] .

و ـ أما مصر ، فإنها قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أممه[٥] وفى المقدمة من دول

(١) من يقرأ رسالة الدكتور عبد الرزاق السنهورى عن [فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية] والتى أنجزها بباريس سنة ١٩٢٦م ، يميل إلى أن الأستاذ البنا لم يكن بعيدا عن فكر السنهورى فى خطوات إحياء الخلافة الإسلامية .

(٢) رسالة المؤتمر الخامس ص ٤٥ ـ ٥٠ ، طبعة دار الاعتصام ، القاهرة سنة ١٩٧٧م .

(٣) مجموعة رسائل الإمام الشهيد . رسالة نحو النور . ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) رسالة المؤتمر الخامس . ص ٥٠ ـ طبعة دار الاعتصام .

(٥) مجموعة الرسائل . رسالة إلى الشباب . ص ٨٨ .

الإسلام وشعوبه[1] ونحن نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة، تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب، وتعمل لخيرهم، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته.. فالمصرية لها فى دعوتنا مكانتها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال.. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ولخير العالم كله..»[2].

هكذا صاغ الأستاذ البنا، فى هذه العبارات البالغة النفاسة، وبهذا الأسلوب العلمى، أعمق النظريات السياسية والاجتماعية المعاصرة فى تعدد وتكامل دوائر الانتماء ـ الوطنية.. والقومية.. والإسلامية.. والإنسانية ـ مع الإشارة إلى دور مصر ـ الرائد والقائد ـ فى تحقيق هذه الوحدة المنشودة لأمة الإسلام.

الأمر الذى يستوجب على أهل الغلو ـ سواء أكانوا وطنيين يديرون الظهر لما وراء الوطن ـ الإقليم ـ أو قوميين ـ يهملون الوطنية ويديرون الظهر لما وراء القومية ـ أو إسلاميين افتعلوا تناقضا مزعوما بين الإسلامية وبين الوطنيات والقوميات.. الأمر الذى يستوجب على سائر هؤلاء الغلاة أن يمعنوا النظر فى هذا الذى كتبه الأستاذ البنا فى هذا الموضوع..

فكل هذه الدوائر للانتماء هى درجات فى سُلّم الانتماء الواحد، يصعد عليها الإنسان المسلم ـ عقيدة أو حضارة ـ دونما تناقضات.. وبعبارة الأستاذ البنا: «**فكل منها تشد أزر الأخرى، وتحقق الغاية منها، دونما تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار..**».

* * *

ى ـ رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله.. محمد رسول الله

وفى مواجهة الغلاة، الذين لا يرون فى المجتمعات الإسلامية، وفى عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية.. فيحكمون بهما على الأمة.. أو على النظم والحكومات والمجتمعات.. فى مواجهة هؤلاء الغلاة: يقدم المشروع التجديدى للأستاذ البنا الموقف الإسلامى الأصيل والمتوازن...

(١) المصدر السابق، رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن، ص٩٩.
(٢) المصدر السابق، رسالة دعوتنا فى طور جديد، ص ١١٢ ـ ١١٤.

«فنحن لا نكفّر مسلما أقرّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأى أو معصية - إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر»[1].

ولقد اندمجت مصر بكُلِّيتها فى الإسلام بكُلِّيته، عقيدته ولغته وحضارته، ودافعت عنه وذادت عن حياضه، وردت عنه عادية المعتدين.. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية، فأسماؤها إسلامية، ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله، ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشىء اهتزازها للإسلام، وما يتصل بالإسلام»..

والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التى وفدت إلينا من الحضارة الغربية، تلك الحضارة التى غزتنا غزواً قويا.. فانحسر ظل الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية، ونصبغ معظمها بالصبغة الأوروبية، وحصرنا سلطان الإسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة..»[2].

فالمعركة معركة تنقية المجتمعات الإسلامية من الدخيل، الذى أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الإسلام وبين الروح المادية والإلحادية، روح اللذة والشهوة، الذى تميزت به الحضارة الغربية.. وليست معركة الإسلام مع مجتمعات ارتدت عن الإسلام ونوره إلى جاهلية جديدة، هى أشد ظلاما من الجاهلية الأولى.. كما زعم ويزعم الغلاة الذين انحرفوا عن منهج الإسلام الذى تبناه الأستاذ البنا..

❊ ❊ ❊

ك - فى العدل الاجتماعى: فقه الواقع.. وبرنامج الإصلاح

وفى مواجهة المظالم الاجتماعية التى تطحن سواد الأمة - من قبل النهب

(1) المصدر السابق، رسالة التعاليم، ص ٢٧١.

(2) المصدر السابق، رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١٢٠، ١٢١.

الاستعمارى . . ومن قبَل الاستغلال الطبقى المحلى ـ قدم الأستاذ البنا صفحة من أروع صفحات العدالة الاجتماعية مطبقة على واقعنا المعاصر والمعيش . .

فانطلاقا من فلسفة الاستخلاف الإلهى للإنسان فى الثروات والأموال، البريئة من غلو الرأسمالية المتوحشة . . وغلو الشيوعية المصادمة لفطرة الإنسان . . تحدث الأستاذ البنا عن الواقع الاجتماعى البائس للشعب وسواد الأمة . . وقدم الحلول المدروسة والناجعة لهذا الداء الاجتماعى الذى يشل طاقات البناء والانتماء لدى الملايين . .

لقد جعل النهب الاستعمارى لثروات بلادنا الفنان الشعبى سيد درويش [١٣٠٩ ـ ١٣٤٢هـ / ١٨٩٢ ـ ١٩٢٣م] يغنى فيقول :

يا مصر خيرك فى إيد غيرك طلع برَّه

وجاء الإمام حسن البنا لينبه على دور هذا النهب الاستعمارى لخيرات البلاد فى «انتشار» الجماعة . . وفى دعوتها لإقامة العدل الاجتماعى بين الناس . . فقال :

«إن الدعوة نشأت بالإسماعيلية . . يُغذِّيها وينمِّيها ما نرى كل صباح ومساء من مظاهر الاحتلال الأجنبى والاستئثار الأوروبى بخير هذا البلد . .

فهذه قناة السويس علة الداء وأصل البلاء .

وفى الغرب : المعسكر الإنجليزى بأدواته ومعداته .

وفى الشرق : المكتب العام لإدارة شركة القناة بأثاثه ورياشه ومرتباته .

والمصرى غريب بين كل هذه الأجواء فى بلده، محروم، وغيره ينعم بخير وطنه، ذليل، والأجنبى معتز بما يغتصبه من موارد رزقه .

كان هذا الشعور غذاءً ومددا لدعوة الإخوان، فبسطت رواقها فى منطقة القناة، ثم تخطتها[١] . . إن المرافق العامة، وكل المنافع الهامة فى جميع أنحاء البلاد، ودولاب التجارة والصناعة، والمنشآت الاقتصادية كلها فى أيدى الأجانب المرابين . . تسيطر عليها أكثر من ٣٢٠ شركة أجنبية[٢] .

(١) المصدر السابق . رسالة المؤتمر الخامس . ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٢) المصدر السابق . رسالة بين الأمس واليوم . ص ١٤١ .

والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدى الوطنيين إلى أيدى هؤلاء الأجانب. فالبلد ليس فقيرا». ولكن النهب الاقتصادى الأجنبى جعل «الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه»[1].

وهذا الغنى الذى يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة، يقابله فقر مدقع يطحن المواطنين المصريين.

«فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس.. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية.. وهى من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات.. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصرى مهدد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض.. وهى - [مصر] - ما زالت جاهلة، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخُمْس.. والجرائم تتضاعف؛ حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس!.. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة فى الجيش كاملة المعدات!..

وكذلك حال كل بلد من بلدان العالم الإسلامى..»[2].

وبعد فقه هذا الواقع الاقتصادى والاجتماعى، الذى تألق فيه الأستاذ البنا كإمام فى فقه الواقع كما هو حاله فى فقه الأحكام.. أخذ فى تنزيل الأحكام الإسلامية على هذا الواقع المعاصر والمعيش فدعا إلى:

أ - «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]»[3].

ب - واستقلال نقدنا عن فلك الاستعمار.

جـ - و«تمصير الشركات، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك».

---

(١) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى، ص ٢٣١.

(٢) المصدر السابق، رسالة بين الأمس واليوم، ص ١٤١.

(٣) المصدر السابق، رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن، ص ١٠٠.

د ـ و«تخليص المرافق العامة ـ وهى أهم شىء للأمة ـ من يد غير أبنائها، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية، تبلغ رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات، ولا يصيب الجمهور الوطنى، ولا العامل الوطنى منها؛ إلا البؤس والشقاء والحرمان».

هـ ـ و«العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى، المهملة، التى طال عليها الأمد! . . ويجب التحول إلى الصناعة فورا . . فهذا التحول هو روح الإسلام! . . مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . . وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات، والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار».

و ـ ويجب تكامل التنمية بين بلاد الإسلام؛ ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أم العروبة والإسلام . . تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى، وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما . .»[1].

«فالجهاد الاقتصادى يجب أن يتوجه إلى خدمة الثروة الإسلامية، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية . . والقرش الإسلامى يجب أن لا يقع فى يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، فلا نلبس ولا نأكل إلا ما صنع فى وطننا الإسلامى»[2].

ز ـ وكذلك يجب إصلاح الخلل المتمثل «فى التفاوت العظيم، والبون الشاسع، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب»، والذى أدى إلى وجود «ثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة . . وذلك بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع».

ح ـ و«محاربة الربا . . وجمع الزكاة . . وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى ـ بحسب المال لا بحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا، وتُجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[3] والتوسط

(١) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق. رسالة التعاليم. ص ٢٧٩.
(٣) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣.

والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدى الوطنيين إلى أيدى هؤلاء الأجانب.
فالبلد ليس فقيرا». ولكن النهب الاقتصادى الأجنبى جعل «الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه»[1].

وهذا الغنى الذى يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة، يقابله فقر مدقع يطحن المواطنين المصريين.

«فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس.. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية.. وهى من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات.. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصرى مهدد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض.. وهى - [مصر] - ما زالت جاهلة، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخُمُس.. والجرائم تتضاعف؛ حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس!.. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة فى الجيش كاملة المعدات!..

وكذلك حال كل بلد من بلدان العالم الإسلامى..»[2].

وبعد فقه هذا الواقع الاقتصادى والاجتماعى، الذى تألق فيه الأستاذ البنا كإمام فى فقه الواقع كما هو حاله فى فقه الأحكام.. أخذ فى تنزيل الأحكام الإسلامية على هذا الواقع المعاصر والمعيش فدعا إلى:

أ - «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قول الله تعالى:
﴿ولا تؤتوا السُّفهاء أموالكُم الَّتى جعل اللَّهُ لكُمْ قيامًا﴾ [النساء: ٥]»[3].

ب - واستقلال نقدنا عن فلك الاستعمار.

جـ - و«تمصير الشركات، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك».

---

(١) المصدر السابق. رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٣١.
(٢) المصدر السابق. رسالة بين الأمس واليوم. ص ١٤١.
(٣) المصدر السابق. رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن. ص ١٠٠.

د ـ و«تخليص المرافق العامة ـ وهى أهم شيء للأمة ـ من يد غير أبنائها، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية، تبلغ رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات، ولا يصيب الجمهور الوطنى، ولا العامل الوطنى منها؛ إلا البؤس والشقاء والحرمان».

هـ ـ و«العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى، المهملة، التى طال عليها الأمد! . . ويجب التحول إلى الصناعة فورا . . فهذا التحول هو روح الإسلام! . . مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . . وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات، والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار».

و ـ ويجب تكامل التنمية بين بلاد الإسلام؛ ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام . . تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى، وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما . .»[1].

«فالجهاد الاقتصادى يجب أن يتوجه إلى خدمة الثروة الإسلامية، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية . . والقرش الإسلامى يجب أن لا يقع فى يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، فلا نلبس ولا نأكل إلا ما صنع فى وطننا الإسلامى»[2].

ز ـ وكذلك يجب إصلاح الخلل المتمثل «فى التفاوت العظيم، والبون الشاسع، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب»، والذى أدى إلى وجود «ثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة . . وذلك بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع».

ح ـ و«محاربة الربا . . وجمع الزكاة . . وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى ـ بحسب المال لا بحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا، وتُجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[3] والتوسط

(١) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق، رسالة التعاليم، ص ٢٧٩.
(٣) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى، ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣.

بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين، بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد»[1].

ط - وإصلاح الخلل المتمثل فى التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية فى الريف، ذلك أن «روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى، توجب علينا أن نعيد النظر فى الملكيات فى مصر، فنختصر الملكيات الكبيرة، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع، ونشجع الملكيات الصغيرة.. وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار.. حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه: قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعنيهم أمره ويهمهم شأنه»[2].

* * *

هكذا كان فقه الواقع الاقتصادى والاجتماعى.. وفقه الأحكام الإسلامية فى الثروات والأموال.. وتنزيل الأحكام على الواقع.. كما تجلى فى المشروع الحضارى للإمام الشهيد حسن البنا.. ابن كلية العلوم.. الذى تفوق - فى هذا الميدان - على كل الأحزاب والجماعات والجمعيات التى عاصرته.. وسبق كل علماء الاجتماع.. بل وحتى تيارات الشيوعية والاشتراكية فى معالجة معضلات الفقر والتنمية والثروات والأموال.. ومآسى النهب والاستغلال، سواء منه الاستعمارى الأجنبى، أو الذى يمارسه «المستغلون الوطنيون»!..

* * *

ل - سنة التدرج فى الإصلاح

ولأن الإسلام دين الوسطية، فلقد اعتمد سنة التدرج فى الإصلاح، وهذا التدرج هو وسط بين «الجمود والثبات» وبين «الطفرة والانقلاب»!

وهذه السنة فى التدرج، هى سنة عامة فى كل عوالم الخلق.. وفى سائر ميادين الاجتماع.. وكذلك فى عوالم الأفكار..

(1) المصدر السابق. رسالة دعوتنا فى طور جديد. ص ١٢٣.
(2) المصدر السابق. رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ٢٤٢.

لقد نزلت الشرائع بالتدريج . . ونزلت أحكامها على الواقع والوقائع بالتدريج . . وتكوّنت الثقافات ـ التى مثلت عمران النفوس الإنسانية ـ بالتدريج . . وقامت المدنيات ـ التى مثلت عمران الواقع المادى ـ بالتدريج . .

أى أن كل ألوان الإصلاح قد حدثت وتحدث بالتدريج . . وكذلك الحال فى التراجع والتخلف عن معالم الإصلاح ومنظومات قيمه وتشريعاته، حدث ويحدث ـ هو الآخر ـ بالتدريج . .

والناظر فى منهاج النبوة وتطبيقاته . . وفى التراجع النسبى الذى تم بعد عصر الراشدين عن جوانب من هذا المنهاج ـ وخاصة فى الشورى والعدل الاجتماعى من قبل الدولة ـ ثم فى مشاريع الإصلاح والتجديد التى بدأت ـ على مستوى الدولة ـ بالراشد الخامس عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١هـ/ ٦٨١ ـ ٧٢٠م] ﷺ الناظر فى كل ذلك يجد المنهاج الإسلامى، الذى يؤكد وينحاز إلى سُنّة التدرج فى الإصلاح، واضحا كل الوضوح . .

وانطلاقا من هذه السنة ـ الكونية . . والاجتماعية ـ الحاكمة للإصلاح الحقيقى ـ وليس الهبات العفوية . . والانقلابات العنيفة ـ واجه الأستاذ البنا «المتعجلين» الذين يريدون الوصول السريع إلى «المقاصد»، دون المرور «بدرجات السُّلَّم» الموصلة إلى هذه «المقاصد» . . ونبَّه على خطورة التطلع إلى تحقيق «الغايات» دون التأسيس لمقومات هذه الغايات . . وسلوك طريق «المراحل» التى تفضى إلى هذه الغايات . .

ذلك أن المنهاج الإسلامى فى الإصلاح ليس منهاج القفز المباشر على «الدولة»، وإنما هو منهج التربية «للأمة» أولا، لتأتى «الدولة» بعد ذلك ثمرة ناضجة نضوجا طبيعيًا، ولتجد هذه «الدولة» «أمة» مهيأة ومتقبلة للمنهاج الإصلاحى لهذه الدولة الجديدة . . فضلا عن رجالات هذه الدولة الجديدة وإطارات مؤسساتها .

فإصلاح الأصول أولا . . وإعادة صياغة الإنسان هى نقطة البدء . . وتكوين الجيل «الواعى» و«القادر» على حمل الرسالة الإصلاحية هو المهمة الأولى لأى رائد من رواد الإصلاح الحقيقى فى منهاج الإسلام . . وما تجربة النبوة، وصناعة «الجيل الفريد» فى المرحلة المكية، لتأتى بعد ذلك «الدولة» و«القانون» و«المؤسسات» و«الفتوحات»

و«السياسات» ـ داخلية وخارجية ـ إلا الشهادة الصادقة على أن هذا هو منهاج الإسلام في الإصلاح.

وفي حالة الأستاذ البنا ودعوته وحركته؛ فإننا نلمح وعيه بهذه الحقيقة حتى وهو لا يزال في مرحلة التفكير بمشروعه الإصلاحي ـ قبل تكوين الجماعة سنة ١٩٢٨م ـ.. فهو يتحدث عن الزلازل التي أصابت الإسلام وأمته ودولته.. ويقول: «إنها ألهبت نفسي، وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، ولفتت نظري إلى **وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس**»[1]!..

فبالجد والعمل نقطع مراحل:

١ ـ التنبيه..

٢ ـ والتكوين..

٣ ـ والتدريس..

٤ ـ والتأسيس!!..

نعم.. كان الرجل واعيا بحقيقة سنة التدرج والمرحلية في هذا المشروع الإصلاحي.. وانطلاقا من هذا الوعي، تحدث إلى «المتعجلين» الذين يريدون «حرق المراحل»!.. فقال:

«أيها الإخوان المسلمون.. وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم: اسمعوها مني كلمة داوية.. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول.

أجل! قد تكون طريقا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها. فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة،

(١) المصدر السابق. رسالة المؤتمر الخامس. ص ١٥٠، ١٥١.

وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره فى ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة..

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول.. ولا تصادموا نواميس الكون؛ فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هو منكم ببعيد!.

أريد أن أكون صريحا معكم للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة.. أعدوا أنفسكم.. وفى الوقت الذى يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها، روحيًا بالإيمان والعقيدة، وفكريًا بالعلم والثقافة، وجسميًا بالتدريب والرياضة، فى هذا الوقت طالبونى بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل جبار عنيد؛ فإنى فاعل إن شاء الله![1]

* * *

م ـ القوة.. والثورة

وانطلاقا من هذا المنهج فى التدرج بالإصلاح، ورفض القفز على المراحل، وخرق تسلسلها.. عرض الأستاذ البنا للموقف من «الثورة».. فتحدث عن أن الإسلام: إنما جاء ثورة كبرى بكل ما تحمل هذه الكلمة من مضامين، وفى كل ميادين الإصلاح والتغيير.. فهو الذى نقل وينقل الناس والمجتمعات من الجاهلية إلى الإيمان.. ومن الظلمات إلى النور.. وهو الذى يحيى موات النفوس والمجتمعات بما يحدثه فيها ولها من تغيير جذرى وعميق وشامل فى كل الميادين.. وعن هذه الحقيقة قال الأستاذ البنا:

«إن الإسلام ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، يزلزل الأوضاع الفاسدة، ويحطم صروح البغى والعدوان الشامخة، ويحدد معالم الحياة وأوضاعها، ويقيمها على أثبت الدعائم.

إنه ثورة على الجهل.. وثورة على الظلم بكل معانيه: ظلم الحاكم للمحكوم.. وظلم الغنى للفقير.. وظلم القوى للضعيف..

---

(١) المصدر السابق. رسالة المؤتمر الخامس. ص ١٦١، ١٦٢.

وثورة على الضعف بكل مظاهره ونواحيه: ضعف النفوس بالشح والإثم، وضعف الرءوس بالغباء والعقم، وضعف الأبدان بالشهوات والسقم»[1].

* * *

لكن الأستاذ البنا ينبه على أن [الجماعة] ليس في نيتها استخدام «العنف الثورى» الذى تخشاه الحكومات؛ لأن منهج الجماعة هو الإصلاح بالإسلام، وفق منهج التدرج، وعبر الإعداد المرحلى.. اللهم إلا إذا فرض الآخرون على [الجماعة] هذا العنف الثورى، باستخدامه ضدها، وعندئذ تكون مكرهة على رد العدوان بمثله!..

وفى صياغة هذه «المعادلة الصعبة»، ميز بين «**إعداد القوة**» - التى هى طريق الإصلاح والتغيير - وبين «**الثورة**» - التى هى «**أعنف مظاهر القوة**» -.. والتى لن يلجأ إليها [الإخوان] ابتداء، ولن يسلكوا سبيلها؛ إلا إذا فرض عليهم، كما يفرض القتال على المؤمنين - وهم له كارهون! -..

وفى تحديد هذا المسار - الدقيق.. والشائك - قال الأستاذ البنا:

«يتساءل كثير من الناس: هل فى عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟».

«وهل يفكر الإخوان المسلمون فى إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى فى مصر؟..».

أما القوة، فشعار الإسلام فى كل نظمه وتشريعاته!.. فالإخوان لا بد أن يكونوا أقوياء، ولا بد أن يعملوا فى قوة.. وأول درجة من درجات القوة: قوة العقيدة والإيمان، ويلى ذلك: قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح.

والثورة: أعنف مظاهر القوة..

إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة..

---

(1) [الفكر السياسى للإمام حسن البنا] ص ٣٦٩ - وهو ينقل عن «جريدة الإخوان المسلمين» اليومية - ٢٣ شوال سنة ١٣٦٥هـ / ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦م.

أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها.. وإن كانوا يصارحون.. بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال فسيؤدى حتما إلى ثورة[1].. إنى أرى الوميض خلال الرماد ويوشك أن يكون له ضرام[2].

أيها الإخوان.. إن قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا، ووقفتم فى طريق دعوتنا، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا، وكنتم الثائرين الظالمين»![3].

هكذا حدد الرجل أن التدرج فى الإصلاح.. والمرحلية: هى سبيل الإصلاح والتغيير.. وأن القوة هى السبيل لقطع هذه المراحل، والوصول إلى المقاصد والغايات:

* الإصلاح بالإسلام..

* وتحرير الوطن الإسلامى..

* وإقامة الدولة الإسلامية..

* وإعادة الأمة كلها إلى كامل شريعة الإسلام..

وهكذا تألق التجديد الإسلامى فى هذا المشروع الحضارى لهذا المجدِّد العظيم: الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا.. الرجل الملْهم والمبارك والربانى..

والذى لا نغالى إذا قلنا إنه - ودعوته وجماعته - قد مثّلوا أبرز معالم التجديد - على مستوى جمهور الأمة - فى القرن الرابع عشر الهجرى - العشرين الميلادى..

والذى بارك الله فى «البذرة» التى بذرها، كما لم يبارك فى بذرة أخرى - على كثرة «البذور» التى بذرت فى ذلك التاريخ - حتى وصلت آثارها إلى كل قارات الأرض وجميع مدن هذا العالم الذى نعيش فيه..

* * *

(1) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] رسالة المؤتمر الخامس. ص ١٦٨ - ١٧٠.
(2) المصدر السابق. رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى. ص ١٩٦.
(3) المصدر السابق. رسالة بين الأمس واليوم. ص ١٤٤.

وإذا كانت سطور هذه الصفحات قد قدمت إشارات إلى بعض معالم هذا المشروع الحضارى، الذى صاغه هذا الإمام الشهيد.. فإن هناك حقائق كثيرة يمكن الإشارة إليها فى هذا الختام.. ومنها:

* أن الدراسة الوافية لهذا المشروع الإصلاحى لن تتأتّى إلا بعد الجمع والتحقيق والدراسة والنشر للأعمال الفكرية الكاملة للأستاذ البنا.. وتبويبها تبويبا موضوعيّاً وتاريخيّاً..

* وأن الناظر فى معالم مشروعه الحضارى يتمنى أن ترتفع الصحوة الإسلامية إلى الآفاق التى حلق فيها هذا الإمام العظيم!..

رحمه الله رحمة واسعة.. وبارك فى العطاء الذى قدمه، وفى الجهاد الذى جاهده.. وسدد الخطا على هذا الدرب، لتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام.

* * *

المصادر والمراجع

د. إبراهيم البيومى غانم: [الفكر السياسى للإمام حسن البنا] طبعة القاهرة ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية. سنة ١٤١٢هـ / سنة ١٩٩٢م.

الأفغانى ـ جمال الدين ـ: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م. وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

حسن البنا: [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة القاهرة ـ دار الشهاب ـ بدون تاريخ.

الزركلى ـ خير الدين ـ: [الأعلام] طبعة بيروت ـ الثالثة.

محمد عبده: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق ـ د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م... وطبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

محمد عبد الجواد: [تقويم دار العلوم] المجلد الأول. طبعة القاهرة سنة ١٤١٠هـ / سنة ١٩٩٠م.

د. محمد عمارة: [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة القاهرة ـ دار الشروق سنة ١٩٩١م.

: [الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة] طبعة القاهرة ـ دار نهضة مصر سنة ١٩٩٧م.

(٣)

الإمام الشيخ

محمد البشير الإبراهيمي

[١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]

ـ ١ ـ

بطاقة حياة

* هو محمد البشير بن محمد السعدى بن عمر بن محمد السعدى بن عبد الله بن عمر الإبراهيمى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] . . من قبيلة «أولاد إبراهيم» العربية، التي استوطنت مقاطعة قسنطينة ـ بالجزائر.

* ولد بريف الجزائر ـ فى يوم الخميس ١٤ شوال سنة ١٣٠٦هـ/ ١٣ يونيه سنة ١٨٨٩م فى أسرة توارثت علوم الإسلام والعربية على امتداد خمسة قرون. .

* وتربَّى وتعلَّم فى كنف عمه الشيخ محمد المكى الإبراهيمى، ودرس على يديه الكتب التى كانت تدرس بالأزهر الشريف فى ذلك الحين. . وكان لا يفارق عمه ليلا ولا نهاراً. . يُعلمه عمه، ويتعلم من عمه، حتى فى لحظات إسلام عمه الروح إلى بارئها! . .

* وكان ذا ذاكرة حافظة خارقة للعادة. . حفظ القرآن الكريم فى تمام الثامنة من عمره، مع فهم مفرداته وغريبه. . ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره؛ إلا وكان قد حفظ العديد من «المتون» ـ منها [الألفية] لابن مالك [٦٠٠ ـ ٦٧٢هـ/ ١٢٠٣ ـ ١٢٧٤م]. . ومعظم [الكافية] ـ لابن مالك أيضاً ـ وألفيتى العراقى [٧٢٥ ـ ٨٠٦هـ ١٣٢٥ ـ ١٤٠٤م] فى الأثر والسِّير. . ومعظم رسائله المجموعة فى كتابه [ريحانة الكتاب]. . و[كفاية المتحفظ] للأجدابى الطرابلسى [المتوفى قبل ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م]. . وكتاب [الألفاظ الكتابية] للهمذانى [٣٢٠هـ / ٩٢٢م]. . وكتاب [الفصيح] لثعلب [٢٠٠ ـ ٢٩١هـ/ ٨١٦ ـ ٩٠٤م]. . وكتاب [إصلاح المنطق]

ليعقوب السكيت [١٨٦ ـ ٢٤٤هـ/ ٨٠٢ ـ ٨٥٨م]. . و[جمع الجوامع] فى الأصول. . و[تلخيص المفتاح] للقاضى القزوينى [كان حيا ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م]. . و[رقم الحلل فى نظم الدول] لابن الخطيب [٧١٣ ـ ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٧٤م]. . ومعظم رسائل فحول كُتَّاب الأندلس، كابن شهيد [٣٨٢ ـ ٤٢٦هـ/ ٩٩٢ ـ ١٠٣٥م]. . وابن أبى الخصال [٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ/ ١٠٧٤ ـ ١١٤٦م]. . وأبى المطرف ابن أبى عميرة [٥٨٢ ـ ٦٥٨هـ/ ١١٨٦ ـ ١٢٦١م]. . ومعظم رسائل فحول كُتَّاب المشرق، كالصابى [٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م]. . والبديع [٣٥٨ ـ ٣٩٨هـ/ ٩٦٩ ـ ٩٩٨م]. . مع حفظ المعلقات. . والمفضليات. . وديوان الحماسة. . وشعر المتنبى [٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ/ ٩١٥ ـ ٩٦٥م] كله. . وشعر الشريف الرضى [٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ/ ٩٧٠ ـ ١٠١٥م]. . وابن الرومى [٢٢١ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٩٦م]. . وأبى تمام [١٩٠ ـ ٢٣١هـ/ ٨٠٦ ـ ٨٤٦م] والبحترى [٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ/ ٨٢١ ـ ٨٩٧م]. . وأبى نواس [١٤٥ ـ ١٩٦هـ/ ٧٦٢ ـ ٨١٢م]. . كما استظهر الكثير من شعر جرير [٢٨ ـ ١١٠ هـ/ ٦٤٠ ـ ٧٢٨م]. . والأخطل [١٩ ـ ٩٠هـ/ ٦٤٠ ـ ٧٠٨م]. . والفرزدق [١١٠هـ/ ٧٢٨م]. . كما حفظ كثيراً من كتب اللغة كاملة. . مثل [الإصلاح] و[الفصيح]. . ومن كتب الأدب. . مثل [الكامل] و[البيان] و[أدب الكاتب]. . كما حفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم [نفح الطيب]، وأخبارهم، وكثيراً من أشعارهم. .

ولقد بلغت قوة حافظته الحد الذى كان يحفظ فيه عشرات الأبيات من سماع واحد! . .

* وفى الحادية عشرة من عمره بدأ عمه يشرح له العديد من المتون التى سبق له حفظها. .

* ولقد مات عمه سنة ١٣٢١هـ/ سنة ١٩٠٣م ـ وعُمُر البشير أربع عشرة سنة ـ وكان عمه قد أجازه الإجازة العامة. . وعهد إليه أن يخلفه فى التدريس لطلابه، فأصبح شيخا وهو فى سن الصبا! . .

* وفى سنة ١٣٢٩هـ ـ أواخر سنة ١٩١١م ـ رحل الشيخ البشير ـ متخفيا ـ من الجزائر إلى الحجاز ـ وعمره إحدى وعشرون سنة ـ فالتحق بوالده، الذى كان قد استقر بالمدينة المنورة منذ سنة ١٣٢٦هـ/ سنة ١٩٠٨م. . وفى طريقه إلى الحجاز، أقام

بالقاهرة ثلاثة أشهر، طاف فيها بحلقات دروس العلم في الأزهر الشريف ـ دروس الشيخ سليم البشرى [١٢٤٨ ـ ١٣٣٥هـ / ١٨٣٢ ـ ١٩١٧م] . . والشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٣٥م]... والشيخ يوسف الدجوى [١٢٨٧ ـ ١٣٦٥هـ/ ١٨٧٠ ـ ١٩٤٦م] . . والشيخ عبد الغنى محمود . . والشيخ السمالوطى . . والشيخ سعيد الموجى [١٢٦٧ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٥١ ـ ١٩٣٥م] . وزار العديد من العلماء والشعراء . . من مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] . . وأحمد شوقى [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] . . وحافظ إبراهيم [١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ/ ١٨٧١ ـ ١٩٣٢م] . . وغيرهم من العلماء والشعراء والأدباء . .

* وفي المدينة المنورة ـ وعلى امتداد خمس سنوات ـ واصل الشيخ البشير التعلُّم والتعليم . . فحضر العديد من دروس العلم . . وخاصة دروس الشيخ العزيز الوزير التونسي . . والشيخ حسين أحمد الفيض آبادى الهندى . . كما أخذ التفسير عن الشيخ الخليل إبراهيم الأسكوبى . . والجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجى الشهرزورى . . وأنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي . . وعلم المنطق عن الشيخ عبد الباقى الأفغاني ... وفي المدينة ـ أيضًا ـ استفاد من المكتبات العلمية الموجودة فيها . .

* وخلال سنوات إقامته بالمدينة المنورة تفتحت الملكات الإصلاحية والسياسية للشيخ الإبراهيمي . . وتدارس قضايا الخلافة الإسلامية... وحال الدولة العثمانية . . وأوضاع الأمة العربية ومستقبلها . . والهيمنة الاستعمارية . . وخاصة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ الذي التقى به في المدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ / سنة ١٩١٣م . . وعلى امتداد ثلاثة أشهر تذاكر الشيخان وتدارسا وخططا معا للنهوض بوطنهما الجزائر، وانتزاعها من المسخ الاستعمارى الصليبي الفرنسي، وإعادتها إلى العروبة والإسلام . . وكان التعليم والإصلاح الديني هو السبيل إلى تحقيق هذه المقاصد، التي قامت لإنجازها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ١٣٤٩هـ / مايو سنة ١٩٣١م . .

* وبعد ثورة الشريف حسين بن على [١٢٧٠ - ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٣١م] - حاكم المدينة المنورة يومئذ - ضد الخلافة العثمانية - ولحساب الانجليز - وكان الشيخ البشير ضد هذه الثورة - تم ترحيل الكثيرين من سكان المدينة إلى الشام - ومنهم الشيخ البشير ووالده - في النصف الأخير من سنة ١٣٣٤هـ/ سنة ١٩١٦م. فاستقر بدمشق قرابة أربع سنوات..

* وفي دمشق، طلب منه القائد التركي جمال باشا [١٢٨٩ - ١٣٤٠هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٢٢م] - بواسطة أحد أعوانه - التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى.. وفضل الاشتغال بالتدريس، فعمل أستاذاً للعربية في مدرسة «السلطاني».

* وعندما حكم الأمير فيصل بن الحسين [١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ/ ١٨٨٣ - ١٩٣٣م] دمشق.. قامت علاقات صداقة بين الشيخ البشير وبين الأمير فيصل..

* وفي دمشق تزوج.. وفيها توفى والده.. وأحد أولاده..

* وعندما بلغته أخبار عن الجزائر، تبشر بتحسن الجو للعمل الإصلاحي.. عاد إلى الجزائر سنة ١٣٣٨هـ - أوائل سنة ١٩٢٠م - على نية القيام بالعمل العلمي.. ثم السياسي.. فتعاون مع النخبة التي كانت قد سارت على المنهاج الذي رسمه هو والشيخ ابن باديس.. وتواصل العمل التمهيدي للحركة الإصلاحية بالجزائر عشر سنوات. حتى جاءت سنة ١٣٤٨هـ/ سنة ١٩٣٠م، فأقامت فرنسا مهرجانات الاحتفالات بمئوية استعمارها للجزائر.. واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة.. ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: «**إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم**»!!..

وخطب سياسي آخر فقال: «**لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار**»!!

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال: «**إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى**

الأبد . . وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»!! .

* وفى مواجهة هذا الفجور «الاستعمارى ـ الصليبى» تأسست «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ١٣٤٩هـ / سنة ١٩٣١م . . وكان رئيسها الإمام ابن باديس . . ووكيلها ونائب رئيسها الإمام البشير . . وبذلك بدأت الثورة الإصلاحية والإحيائية ـ فى الجزائر ـ سالكة طريق المنهاج الإسلامى فى الإصلاح . . وبواسطة المؤسسات الإصلاحية . . والعمل المؤسسى المنظم، أخذت المدارس والخطب والدروس فى تكوين الجيل «العربى ـ المسلم» والوطنى، العامل على استعادة الجزائر إلى حصون العروبة والإسلام والاستقلال . .

* وفى ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ / ١٠ أبريل سنة ١٩٤٠م ـ اعتقل المستعمرون الفرنسيون الإمام البشير الإبراهيمى، ونفوه إلى قرية نائية فى الجنوب الوهرانى .

* وفى ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ / ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠م ـ توفى عبد الحميد بن باديس ـ والإمام البشير فى المنفى ـ فانتخبه قادة «جمعية العلماء» رئيسًا لها . . وبعد خروجه من المعتقل والمنفى ـ الذى دام قرابة ثلاث سنوات ـ وُضع تحت المراقبة الإدارية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية .

* وما هى إلا أشهر حتى سيق ـ ثانية ـ إلى السجن العسكرى ـ بالجزائر العاصمة ـ فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ / ٢٧ مايو سنة ١٩٤٥م ـ عقب مذابح فرنسا فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥م التى قتلت فيها ٦٠,٠٠٠ من الجزائريين! . . وظل الإمام البشير فى زنزانة مظلمة تحت الأرض مدة سبعين يوما! . . وبعد مائة يوم فى السجن العسكرى بالجزائر وبسبب سوء حالته الصحية، نقلوه إلى السجن العسكرى بقسنطينة . . فلبث فيه أحد عشر شهراً . . ولقد دخل السجون معه يومئذ ٧٠,٠٠٠ من أعضاء جمعية العلماء! . .

* وبعد الإفراج عنه، عاد إلى قيادة العمل الإصلاحى، كأقوى ما يكون عزما، وأصلب ما يكون عوداً .

* وفى جمادى الآخرة سنة ١٣٧١هـ / ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢م - بدأ الشيخ البشير رحلته الثانية إلى المشرق.. فأقام بالقاهرة أسبوعا.. وفى باكستان قرابة ثلاثة أشهر، ألقى فيها - بمختلف مدن باكستان - نحوا من سبعين محاضرة فى الدين والاجتماع والتاريخ والإصلاح.. ثم ذهب إلى العراق، فطوف بمدنها نحوا من ثلاثة أشهر، ألقى فيها عشرات المحاضرات.. ثم رحل إلى الحجاز فى موسم حج سنة ١٣٧١هـ/ سنة ١٩٥٢م، وألقى فى الحرمين الشريفين العديد من الدروس والمحاضرت.. ثم رجع إلى القاهرة فى ٢٤ أكتوبر من نفس العام - ربيع أول سنة ١٣٧٢هـ. ومنها عاود الترحال إلى العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس لعدة مرات.. محاضراً فى الدعوة إلى الإصلاح، ومدرسا بالمساجد الكبرى، وفى بعض المدارس لعلوم الإسلام والعربية.. ومعرفا بالقضية الجزائرية، وداعيًا إلى مناصرة شعبها وثورتها التى قامت سنة ١٩٥٤م.. ومدافعا عن القضية الفلسطينية، وسائر قضايا الأمة الإسلامية..

* وفى القاهرة، أقام الإمام البشير مكتبا باسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» للإشراف على تعليم طلاب الجمعية ببلاد المشرق العربى.

* وفى القاهرة - التى اتخذها مركزا لنشاطه - انتخب عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية سنة ١٣٨٠هـ / سنة ١٩٦١م..

* وعندما استقلت الجزائر سنة ١٣٨٢هـ / سنة ١٩٦٢م عاد الإمام البشير إلى الجزائر.. وخطب خطبة الجمعة فى افتتاح مسجد «كتشاوه» - بالجزائر العاصمة - الذى عاد مسجدا بعد أن كانت الصليبية الاستعمارية الفرنسية قد حولته إلى كاتدرائية كاثوليكية طوال قرن وثلث القرن!..

* وكان آخر أعمال الإمام البشير - قبيل وفاته.. وإبان مرضه - هو النداء الذى أذاعه فى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٨٣هـ / ١٦ أبريل سنة ١٩٦٤م إلى قادة الدولة الجزائرية، داعيا إياهم إلى إنقاذ الجزائر من خلافات الثوار!.. وإلى إعادة الجزائر المستقلة إلى منهاج الإسلام فى الإصلاح!..

* وبالرغم من أن هذا الإمام العظيم لم يتفرغ لتأليف الكتب . . لأنه ـ كما قال ـ : «لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا ، ولكنني ألفت للشعب رجالا ، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده ، وصححت له دينه ولغته ، فأصبح مسلما عربيا ، وصححت له موازين إدراكه ، فأصبح إنسانا أبيّا . وحسبي هذا مقربا من رضا الرب ورضا الشعب» .

بالرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة ـ تربية الرجال وإيقاظ الأمة ـ فلقد ترك من الآثار العلمية : [عيون البصائر] و[الاطراد والشذوذ في اللغة] و[أسرار الضمائر العربية] و[التسمية بالمصدر] و[كاهنة أوراس] و[رسالة الضب] و[فصيح العربية من العامية الجزائرية] و[أرجوزة] ـ في ٣٦ ألفا من أبيات الشعر ـ ضمنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته . . أما مقالاته ، فإنها قد جمعت فكونت خمس مجلدات ، قاربت صفحاتها ألفان وخمسمائة صفحة .

* * *

* هذا هو الإمام البشير الإبراهيمي . . الذي لم يرث مالا . . ولم يتموّل أموالا . . والذي عاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» . . والذي كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة ! . . محتفظا بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان . . سالكا في ذلك طريق العلماء الأعلام ـ الذين لم يورثوا درهما ولا دينارا ـ مكتفين بالعلم والجهاد ، أسوة بالنبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا . .

وهو الذي قال فيه صديقه ورفيق دربه الإمام عبد الحميد بن باديس ـ بعد إقرار لائحة «جمعية العلماء» ـ التي كتبها الشيخ البشير ـ سنة ١٣٤٩هـ ـ سنة ١٩٣١م :

«عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يخزى في دنيا ، أو يذل لاستعمار»؟! . .

عليه رحمة الله .

* * *

ـ ٢ ـ

المنهاج الإسلامى فى الإصلاح

للإصلاح ـ فى الرؤية الإسلامية ـ منهاج متميز عن نظائره فى كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التى انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام..

* فالإصلاح الإسلامى ليس تغييرا جزئيًا ولا سطحيًا، وإنما هو تغيير شامل وعميق، يبدأ من الجذور ويمتد إلى سائر مناحى الحياة.. بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا؛ وإنما يجعل من صلاح الدنيا السبيل إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا..

* وهو لا يقف عند «الفرد» ـ كما هو الحال فى المذاهب «الفردانية» ـ كما أنه لا يهمل الفرد، مركزا على «الطبقة» ـ كما هو الحال فى كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية اليسارية ـ الوضعية والمادية ـ وإنما يبدأ ـ الإصلاح الإسلامى ـ بالفرد، ليكون منه الأمة والجماعة.. فالإسلام دين الجماعة ـ والجماعة أشمل وأوسع من الطبقة.. وبدون صلاح الأفراد لن يكون هناك صلاح حقيقى للأمم والجماعات.. ولهذه الحقيقة من حقائق الإسلام جمعت التكاليف الشرعية الإسلامية بين «الفردى» و«الاجتماعى» ـ الكفائى ـ؛ لأن صلاح الفرد هو الذى يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية، والمشاركة فى العمل العام.. الذى تعود ثمراته على الجماعة ـ المكوّنة من الأفراد ـ بل لقد رفع الإسلام مقام التكاليف الاجتماعية فوق مقام التكاليف الفردية ـ عندما جعل إثم التخلف عن التكليف الفردى مقصورا على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن التكليف الاجتماعى شامل للأمة جمعاء.. بل ورفع الإسلام ثواب التكاليف الفردية إذا هى أديت فى جماعة واجتماع.

ولهذه الحقيقة، كانت رهبانية الإسلام هى الجهاد.. أى بذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة فى أى ميدان من ميادين العمل الصالح فى الحياة.. فالجهاد ليس العمل القتالى وحده.. والرهبانية ـ فى الإسلام ـ هى على العكس من العزلة الفردية التى تدير ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام..

* وإعلاء لمقام الإصلاح ـ بهذا المعنى ـ فى الإسلام، تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره «سنة» من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ و«قانونا» من قوانين الاجتماع الحضارى، لا تبديل له ولا تحويل.. فالتغيير الإصلاحى لا بد أن يبدأ من «الذات» ليشمل «الذوات»: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]..

* ولأن الإصلاح «سنة» لها قوانينها، كانت له «دورات» تصل ما انقطع، وتجدد ما رثّ، وترتفع بالأمم والحضارات من التراجع والانحطاط، فتعيدها إلى دورات التقدم من جديد.. وعن هذه الناحية من سنن الإصلاح يحدثنا رسول الله ﷺ فيقول: «لا يزال الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد ـ.

* كذلك حدثنا القرآن الكريم عن أن الصلاح والإصلاح قد كان سنة جميع النبوات والرسالات، وطريق سائر الأنبياء والمرسلين.. فنقطة البدء فى سائر الشرائع السماوية هى «الإيمان» الذى يعيد صياغة الإنسان صياغة إيمانية.. والذى يتجلى ـ من ثم ـ فى العمل الصالح والمصلح لكل ميادين الحياة.. فبداية الإصلاح إنما تبدأ بالصلاح الذى تتغير به الجذور والأصول والمنطلقات والمبادئ والهويات والفلسفات والثقافات، ورؤية الإنسان للكون، وموقفه من هذا الوجود، ورسالته فيه، ليتحول هذا الصلاح إلى إصلاح شامل لكل ميادين الفروع فى سائر مناحى الحياة.

هكذا كانت دعوة رسول الله شعيب ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦]. .

فنقطة البداية فى الإصلاح الشامل هى الإيمان الذى يعيد صياغة الإنسان، ليمتد الإصلاح بعد ذلك إلى الفروع والسياسات والاجتماعيات والاقتصاديات والعلاقات.

وعلى الضد من هذا المنهاج ـ فى الصلاح والإصلاح ـ كان موقف الكافرين من أهل مدين ـ قوم شعيب ـ. . فلقد استنكروا وجود علاقة ـ «عضوية. . وجدلية» ـ بين الإيمان والصلاة وبين ما كانوا يمارسون فى فروع حياتهم ومعاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية من مظالم جعلوها ثمرات للحرية الفردية المطلقة فى هذه الميادين. . ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. .

لكن شعيبا عليه السلام عاد ليؤكد لهم أن دعوته هى الطريق الحق للصلاح والإصلاح. . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. .

* وفى سورة المزمل ـ المكية ـ رسم القرآن الكريم لخاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ منهاج الرياضات والمجاهدات الروحية التى تحقق صلاح الإنسان، والتى تفجر فيه الطاقات والإمكانات التى تجعل هذا الإنسان ـ وهو الجرم الصغير ـ العالم الأكبر، القادر على حمل المهام الثقال فى مختلف ميادين الإصلاح. . فبهذه الرياضات والمجاهدات، التى تعيد صياغة الإنسان صياغة إسلامية، يكون هذا الإنسان ـ الذى خلق ضعيفا ـ هو الأشد وطأ والأقوم قيلا. . ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦]. .

وعلى امتداد المرحلة المكية ـ ثلاثة عشر عاما ـ أى أكثر من نصف عمر الرسالة ـ كانت الصناعة الثقيلة التى أقامها رسول الله ﷺ هى إعادة صياغة الإنسان، بإقامة الأصول، وتجسيدها فى القلة المؤمنة.. وفى دار الأرقم بن أبى الأرقم ـ مدرسة النبوة ـ والمؤسسة التربوية الأولى فى تاريخ الإسلام ـ كانت صياغة القلوب والعقول بخُلُق القرآن وقيم الإسلام.. فلما تكوّن الجيل الفريد، وتبلورت الجماعة والأمة التى صنعها الرسول ﷺ على عينه، جاءت ـ بعد الهجرة ـ مرحلة النشر والانتشار للإصلاح فى ميادين الفروع.. جاءت الدولة.. والسياسة.. والجيوش.. والفتوحات.. والنظم والمؤسسات.. والقوانين.. والعلاقات الدولية ـ إلى آخر ميادين فروع الإصلاح ـ.. لقد تقدمت «الدعوة» على «الدولة». وتقدم تغيير «النفس» على تغيير «الواقع».. ولذلك كان التغيير منطقياً.. وحقيقياً.. وراسخا كل الرسوخ..

وإذا كانت «الأمة العامة» ـ التى اعتنقت الإسلام، عند وفاة رسول الله ﷺ ـ قد بلغ تعدادها ١٢٤,٠٠٠. فإن «الأمة الخاصة» ـ التى مثلت الأعلام والقيادات والريادات والصفوة التى تخرجت فى مدرسة النبوة ـ قد أحصى العلماء عددهم فى نحو ثمانية آلاف ـ منهم أكثر من ألف امرأة ـ جاءت تراجمهم فى الأسفار التى رصدت أعلام الصحابة، الذين صنعوا وقادوا ـ من حول الرسول ﷺ ـ أعظم نماذج الصلاح والإصلاح فى تاريخ النبوات والرسالات..

* وإذا شئنا إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى عظم الطاقات والإمكانات التى يفجرها هذا المنهاج الإسلامى فى الإصلاح ـ تغيير الجذور والمنطلقات والتصورات والفلسفات، بالإيمان الذى تجسده وتنميه المجاهدات الروحية ـ ليتجلى بعد ذلك صلاحا وإصلاحا فى سائر ميادين الفروع فى جميع مناحى الحياة ـ إذا شئنا إشارات دالة على صنع هذا المنهاج فى الإنسان ـ الذى كان فى أغلبه بدويا.. وجاهليا.. وأميا.. وفظا غليظا ـ فعلينا أن نقرأ ما قاله الصحابى جعفر بن أبى طالب [٨هـ / ٦٢٩م] للنجاشى ملك الحبشة ـ واصفا حال هذه الجماعة إبان جاهليتها، وبعد الصلاح الذى صنعه بها الإسلام.. لقد قال:

«أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف.

فكنا على ذلك؛ حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى، فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك»(1).

هكذا صنع الصلاح والإصلاح هذا التغيير الجذري والعميق والشامل في نفوس هذه الجماعة المؤمنة، التي ولدت من رحم القرآن الكريم..

ثم.. لننظر ما صنع الإصلاح الإسلامي بالصحابي حاطب بن أبي بلتعة [٣٥ق هـ - ٣٠هـ / ٥٨٦ - ٦٥٠م] الذي حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» - عظيم القبط بمصر - سنة ٧هـ / سنة ٦٢٨م - والوارث لمواريث أقدم حضارات الدنيا وأعرقها..

لقد بدأ المقوقس حواره مع حاطب بالتحدي والتساؤل الاستنكاري، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته ﷺ فقال لحاطب:

«ما منعه - [أي الرسول] - إن كان نبيا - أن يدعو عليَّ فيُسلَّط عليَّ؟!

فكان جواب حاطب:

منعه ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفْعَلَ به ويُفْعَل!

- (فوجم المقوقس ساعة - أي فترة - ثم استعاد إجابة حاطب... فأعادها عليه حاطب.. فسكت المقوقس) -

وهنا استأنف حاطب محاورة المقوقس، فقال:

(1) محمد بن يوسف الصالحي الشامي [سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] جـ٢ ص٥١٩. تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد. طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ / سنة ١٩٩٧م.

ـ إنه قد كان قبلك رجل ـ [يشير إلى فرعون موسى] ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ـ [أى من الذين استخفهم فأطاعوه] ـ ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعْتَبَر بك! . .

وإن لك دينا ـ [أى النصرانية] ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»[1]. إن الناظر فى حوار «البدوى» حاطب بن أبى بلتعة هذا مع المقوقس، إذا سأل نفسه:

ـ من علّم حاطب هذه الفلسفات ـ فى الدين . . والدنيا . . وفى الحرية . والتاريخ؟ ـ . . ومن الذى أقدره على أن يكثفها فى كلمات هى عصارات للحكمة العالية؟؟ . .

إن الناظر فى ذلك، والسائل عنه، لا بد أن تتفتح أمام بصيرته وبصره معالم المنهاج النبوى فى الصلاح والإصلاح، ذلك الذى بدأ بالأصول، وبالنفس والذات، ليسلك هذه الذات فى سلك الجماعة والأمة والمجموع والاجتماع، ليقيم بها وعليها الدولة والسياسة والنظم والمؤسسات والعلاقات . .

وإشارة أخرى دالة على «النوع» و«الكيف» الذى أثمره هذا المنهاج النبوى فى الإصلاح على جبهة صناعة الإنسان . . تتجلى فى كلمات الراشد الثانى، الفاروق عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ / ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] عندما أرسل مع عمرو بن العاص (٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ / ٥٧٤ ـ ٦٦٤م] ٤,٠٠٠ جندى ليفتح بهم مصر . . فلما وصل عمرو وجيشه إلى «حصن بابليون»، وعلم أن بمصر ١٢٠,٠٠٠ جندى من خيرة جنود الرومان، يتدرعون بأوفر العدد والعتاد وأكثرها قوة وفتكا، ويتحصنون ـ كما يقول ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ / ٨٧٠م] ـ فى حصون وراءها حصون وراءها حصون!! . . عندئذ، طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطاب مددا، لهذه المعركة الفاصلة، التى قال عنها «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م] ـ قيصر الروم: «إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم»! . . فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص «**إنى قد أمددتك بأربعة آلاف**

---

(١) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦. طبعة لندن سنة ١٩٢٠م. و[مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ٧٢، ٧٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

رجل، على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام الألف ـ الزبير بين العوام [٢٨ ق هـ ـ ٣٦هـ / ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] والمقداد بن عمرو بن الأسود [٣٧ ق هـ ٣٣هـ / ٥٨٧ ـ ٦٥٣م] وعبادة بن الصامت [٣٨ ق هـ ٣٤هـ / ٥٨٦ ـ ٦٥٤م] ومسلمة بن مخلد [١ ـ ٦٢ هـ / ٦٨٢م] ـ [وقيل خارجة بن حذافة [٤٠هـ / ٦٦٠م]. ـ ولا يُغلب اثنا عشر ألفا من قلّة»[1].

هكذا بلغ الوزن والنوع والكيف لخريجي مدرسة النبوة ومنهاجها في الإصلاح.

***

وهذا المنهاج الإسلامي في الإصلاح، هو الذي بعثته وجددته وبلورته.. ودعت إليه مدرسة الإحياء الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي ـ مدرسة جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] والأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].. والذي تبنته وطبقته «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، التي أسسها وقادها الإمامان العظيمان الشيخ عبد الحميد ابن باديس [١٣٠٨ ـ ١٣٥٩هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م] والشيخ محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]..

وإذا كنت قد سبق لي وكتبت دراسة عن الإمام ابن باديس ـ قبل أكثر من ثلث قرن[2] ـ.. فإن هذه الصفحات هي وفاء بدين البشير الإبراهيمي على صاحب هذا القلم، الذي يسطر هذه الكلمات[3] وفاء للإمام البشير، الذي جمع إلى العلم والعمل الجهادي، وفاء عظيما ونادراً للأئمة الذين تربى في مدرستهم الفكرية، وعلى منهاجهم الإصلاحي.. جمال الدين الأفغاني.. والأستاذ الإمام.. والذي شهد شهادة صدق على أستاذية الإمام محمد عبده لحركة الإصلاح في المغرب العربي.. وأفاض في الحديث عن امتدادات هذه المدرسة الإصلاحية في الإحياء الإسلامي بالجزائر على وجه التحديد.. فشهادته ـ في هذا المقام ـ دليل على البعد العالمي لهذه المدرسة.. وعلى تخطيها حدود مصر إلى مختلف آفاق عالم الإسلام..

فكما جسدت هذه المدرسة النموذج الإسلامي في الإصلاح، كذلك جسدت عالمية الإسلام..

---

(١) [فتوح مصر وأخبارها] ص ٦١.

(٢) د. محمد عمارة [مسلمون ثوار] ص ٤٥٩ ـ ٤٩١. طبعة القاهرة سنة ١٤٠٨ هـ / سنة ١٩٨٨م.

(٣) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ٥ ص ١٦٣ ـ ١٧٠، ٢٧٢ ـ ٢٩١ ـ جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

ـ ٣ ـ

إمام فى مدرسة الأئمة

إذا كانت الجزائر قد شهدت العديد من العلماء، والعديد من الثوار، على امتداد تاريخها مع الاستعمار الفرنسى.. ذلك التاريخ الذى امتد من جهاد إمامها الأكبر الأمير عبد القادر الجزائرى [١٢٢٢ ـ ١٣٠٠هـ/ ١٨٠٧ ـ ١٨٨٣م] وحتى جهاد الإمامين عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمى؛ فإن ما تميزت به الحركة الإصلاحية التى جسدتها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، هو استدعاء المنهاج الإسلامى فى الإصلاح، والانطلاق من معالمه التى بعثها وجددها ـ فى عصرنا الحديث ـ أئمة الإحياء والتجديد: جمال الدين الأفغانى.. والأستاذ الإمام محمد عبده.

وهذه هى العلامة الفاصلة.. والسمة البارزة.. والقسمة المميزة لمنهاج جمعية العلماء عن غيرها من الدعوات والثورات والأحزاب التى شهدتها الساحة الجزائرية فى مواجهة الاستعمار.

لقد ركز الاستعمار الفرنسى ـ فى الجزائر ـ على مسخ ونسخ الأصول المميزة للإنسان الجزائرى.. أصول:

* الإسلام.. الذى هو دين الأمة..

* والعربية.. التى هى لسان الدين والأمة..

* والوطنية.. التى تفصل المستعمَر عن المستعمِر، والتى تحول بين الشعب الجزائرى، وبين الذوبان والاندماج فى فرنسا..

ولأن المنهاج الإسلامى فى الإصلاح، هو المنهاج الذى يبدأ من الأصول، ليبلغ بعد ذلك كل ميادين الفروع.. ولأنه هو المنهاج الذى صلح به أول هذه الأمة، وبه ـ وحده ـ يكون صلاح آخر هذه الأمة.. كان اختيار «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لهذا المنهاج فى الصلاح والإصلاح. وكانت تلمذتها فيه على الأئمة الذين قادوا ـ بهذا المنهاج ـ حركة الإحياء والإصلاح فى العصر الحديث.. وخاصة الرائد المؤسس جمال الدين الأفغانى.. والمهندس الأكبر والمصلح الأعظم فى هذه المدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وعلى هذه الحقيقة يشهد هذا الإمام العظيم الشيخ محمد البشير الإبراهيمى، ذلك الإمام الذى تربى فى مدرسة هؤلاء الأئمة العظام.. والذى صاغ مشروع «جمعية العلماء»، التى وضعت هذا المنهاج فى الممارسة والتطبيق.. فصنعت الجيل الذى فجر الثورة الجزائرية سنة ١٣٧٤هـ/ سنة ١٩٥٤م، التى اجتذبت إلى ساحتها طلاب الفروع وأجناده.. والتى انتزعت بدماء الشهداء استقلال الجزائر من براثن الاستعمار الصليبى الفرنسى.

يشهد الشيخ البشير على هذه الحقيقة، عندما يفصل القول فى الاعتراف بأستاذية الأفغانى ومحمد عبده فى تحديد معالم المنهاج الإصلاحى، الذى جعل الأولوية:

* للإصلاح الدينى والعلمى والتعليمى.

* وإصلاح مناهج الفكر الإسلامى فى التعامل مع القرآن الكريم، باعتباره النص المقدس والمؤسس للدين.. والأمة.. والحضارة..

* وصولا إلى الإصلاح السياسى، الذى يبدأ بالأصول والجذور واللباب، حتى يبلغ الفروع ـ التى يخطئ البعض عندما يحسبونها جماع السياسات ـ!..

* * *

ـ ٤ ـ

فى الإصلاح الدينى.. والعلمى.. والتعليمى

لقد جاء الاستعمار الفرنسى إلى الجزائر سنة ١٢٤٥هـ/ سنة ١٨٨١م، لا ليجعل منها مجرد مستعمرة، يحتل فيها الأرض وينهب الثروات، ويغرِّب العقول بالقدر الذى يؤبد به احتلال الأرض ونهب الثروات.. وإنما جاء طامعا فيما هو أكبر من ذلك وأخطر.. جاء ليجعل الجزائر امتدادا لفرنسا عبر البحر المتوسط.. قطعة من فرنسا فى الدين واللغة والهوية والحضارة.. ولذلك كانت حربه الشرسة والضروس ضد أصول الشعب الجزائرى.. ضد الإسلام الذى انتزع الجزائريين من النصرانية الرومانية. وضد العربية، التى جاء بها الإسلام إلى الجزائر.. وضد القانون الإسلامى الذى أخذته الجزائر عن فقه إمام دار الهجرة مالك بن أنس ﷺ [٩٣ـ١٧٩هـ/ ٧١٢ـ٧٩٥م].

إلى هذا الحد بلغ سقف الطموح الاستعمارى الفرنسى على أرض الجزائر بالذات.. فهو يريد تخطى أعناق القرون الإسلامية فى التاريخ الجزائرى، ليعود بها إلى النصرانية بدلا من الإسلام.. وإلى الفرنسية بدلا من العربية.. وإلى قانون نابليون [١٧٦٩ـ١٨٢١م] بدلا من فقه الإمام مالك.. ولهذا كانت كل سياساته الاستعمارية «الثمرات الفرعية» التى ولدتها حربه الضروس ضد هذه الأصول..

ولهذه الحقيقة ـ التى غفل عنها الكثيرون من «علماء الفروع» ـ انطلقت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» من المنهاج الإسلامى للإصلاح؛ ذلك الذى يبدأ بالأصول، وصولا منها إلى الفروع، وهو المنهاج الذى توفرت على بعثه وتجديده مدرسة الإحياء التى أسسها جمال الدين الأفغانى.. وهندس بناءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

* وإذا كانت فرنسا الاستعمارية ـ كي تنزع روح الجهاد والفداء من قلوب الجزائريين وعقولهم . . وكي تنسيهم حقيقة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أراد لهم أن تكون عزتهم من عزة الله وعزة رسوله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] . . وجعلهم الأعلون على كل صنوف الكفر والشرك ـ بالإيمان والتقوى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إذا كانت فرنسا ـ كي تصل إلى هذه المقاصد . . مقاصد الهزيمة النفسية للجزائريين ـ قد صنعت على عينيها ـ من «الطرقية» «علماء» يبشرون بأن هذا الذي صنعته وتصنعه فرنسا ـ بالجزائر ـ هو من قضاء الله وقدره ـ؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد ـ متجاهلين أن الإسلام يميز في قضاء الله بين القضاء التكويني الحتمي ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] . . وبين القضاء الذي معه حرية وإرادة وتخيير ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] . . ومتجاهلين أن الاستعمار الظالم ـ حتى لو تجسد في أرض الواقع ـ فإنه لا يمكن أن يكون قضاء إلهيًا حتميًا، نسلم به ونستسلم له، وإنما هي سنن التدافع بين الحق والباطل التي لا بد من مجابهتها ومجاهدتها كي لا تفسد الأرض بما صنع الظالمون ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] . .

صنعت فرنسا من «الطرقية» ـ وليس من الصوفية ـ «علماء» يزيفون أصول الإسلام، لزرع الهزيمة النفسية في الشخصية الجزائرية، ولكسر شوكة العزة والجهاد في نفوس الجزائريين . .

ولذلك، كان الإحياء الديني ـ في ميدان العقائد ـ والإصلاح والتجديد لأصول الهوية الإسلامية، بالعلم والتعليم، هو سبيل «جمعية العلماء» لاجتثاث كل الفروع الفاسدة التي حاولت فرنسا تغذيتها من الإفساد الذي حاولت به حجب أصول الإسلام . .

ومن هنا كان الاستلهام ـ في «جمعية العلماء» ـ لمنهاج الإمام محمد عبده وأقرانه في الإصلاح . . وبعبارة الإمام البشير:

«إن المتتبع لتاريخ هؤلاء الدجالين ـ [الطرقية] ـ يجدهم لم يخلوا من التحرق على الإصلاح والتنكر له في جميع أطواره وعلى اختلاف مظاهره، فقد كانوا متنكرين له وهو جنين، فلما ظهر في الأفراد ازدادوا له تنكرا وعليه نقمة، فلما ظهر في شكل جمعية أجمعوا أمرهم وشركاءهم لحربه بهذه المكائد.

ألم تعلموا أنهم قبل أن يظهر الإصلاح بهذا الوطن، وتلهج الألسنة باسمه كانوا يلعنون ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] وابن حزم [٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م] ومحمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] وغيرهم من أئمة الإسلام الذين جهروا بإنكار البدع، فلما ظهر الإصلاح بالمظهر الفردي كان أمضى سلاح يقاومونه به قولهم: تيمى، عبداوى»![1].

* * *

فالإصلاح الديني، بواسطة العلماء المخلصين، هو الذي يجعل لصولة العلم الأولية والغلبة على صولة الملك.. وهو الذي يجعل للعلم سلطنة وسلاطين يغالبون ويغلبون سلاطين الجور والفساد.. وهو الذي يجعل تجديد الدين السبيل إلى تجديد الدنيا، وهو الذي يهيئ النفوس ـ ومن ثم المجتمعات ـ لتقبل السياسات والقوانين والنظم وبرامج الأحزاب والحكومات.. لأنها ـ جميعا ـ آليات لإشاعة الأصول وترسيخها في المجتمعات.. وما البدء بعكس هذا المنهاج ـ أي تقديم الفروع على الأصول.. والاكتفاء بسياسات الفروع عن تجديد الثوابت وتأكيد الهويات ـ إلا حرث في البحر، ونقش على الماء، وبناء في الهواء، مهما حسنت نوايا الذين ينحرفون إلى هذا السبيل!..

وفي ذلك كله فصَّل الإمام البشير معالم طريق الإصلاح الذي سلكته «جمعية العلماء»، معترفا ـ بتواضع العلماء والأئمة الأعلام ـ أن الريادة والقيادة في هذا المنهاج إنما كانت لمدرسة الأفغاني والأستاذ الإمام..

لقد كتب ـ عليه رحمة الله ـ:

«لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، **وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في**

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٢٧.

جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدُعُّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه.. ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، **هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك**، وهو الذي أخضع صولة الخلافة، في عنفوانها لأحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م]، وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام [٥٥٧ ـ ٦٦٠هـ/ ١١٨١ ـ ١٢٦٢م].. وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما لآية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره..

وما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من **بعث تلك الشجاعة**، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحرمناه ـ بسوء تربيتنا ـ من خلالهم.. **ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشُّعَل لم تنطفئ، فهي في كنف القرآن آمنة، وما دامت نفحات القرآن تلامس العقول الصافية، وتلابس النفوس الزكية، فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب..**

وما زلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجما يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتا يخرق، من **عالم يعيش شاهدا، ويموت شهيدا**، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين..

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام، مثلا شرودا في شجاعة النزال بعد الحافظ (الربيع بن سالم)، عالم الأندلس، بل أعلم علمائها في فقه السنة لعصره، فقد شهد وقعة تعد من حوامد الأعمار، فبذ الأبطال المساعير، وتقدم الصفوف مجليا محرِّضا، والحرب تقذف تيارا بتيار، حتى لقي ربه من أقرب طريق.. ولا علمنا فيهم مثالا: في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد شنها حربًا شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخا وشموخا، وأكثر أتباعا وشيوخا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأولون..

ولقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهو

محمد عبده، فهز النفوس الجامدة، وحرّك العقول الراكدة، وترك دويًا ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن..»[1].

إنه طريق العلماء المجددين، الذين تخطوا حدود الاجتهاد بمعناه الفقهي إلى تجديد دنيا الأمة بتجديد دينها، والذين امتلكوا الشجاعة التي جعلت منهم «الشهود.. والشهداء».. طريق الإمام أحمد بن حنبل.. والعز بن عبد السلام.. والربيع بن سالم.. وابن تيمية.. وصولا إلى الإمام محمد عبده «الواحد الذي بذ الجميع» والذي ـ بظهوره ـ «تأذن فجر الإسلام بالانبلاج» من جديد!..

***

* وفي سنة ١٩٥٧م.. يكتب الإمام البشير إلى الذين يحتفلون بذكرى جمال الدين الأفغاني ـ بجمعية الشبان المسلمين.. بالقاهرة ـ يكتب عن أستاذية الأفغاني في المدرسة الحديثة للإصلاح بالإسلام، فيقول:

«إن من البر بأنفسنا أن نذكر ـ مع كل شارقة ـ عظماءنا ومصلحينا الذين كان لهم أثر مشرق في تاريخنا، وأن نحيي ذكرياتهم لنحيا بها، ونأخذ العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أعوزنا الإمام القائد.

العلماء الربانيون في هذه الأمة ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، والحكمة في هذه القلة قلة أخرى، لا تلد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد، ولا يجيء الواحد إلى الوجود إلا بعد فترة من تحكُّم الأهواء واستيلاء الخمول، وسفه القيادة، والبعد عن هداية الدين، والجهل بأمور الدنيا وبالصلة الوثيقة بينها وبين الدين، وانطماس المعالم المنصوبة والأعلام الهادية فيهما، فيكون ظهوره تجديدًا للدين والدنيا معا، وعودة للعزة فيهما معا، وإصلاحا لما أفسدته الغفلة منهما معا، ورمًا لما تشعث من بنائهما معا. ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني..

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم على أنه ليس عالما دينيًا بالمعنى الذي يفهمونه من الدين ومن العالم الديني، الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام

(١) المصدر السابق. جـ ٤ ص ١١٢، ١١٣.

وفى الزهد والرقائق بكلام مقطوع الصلة بالقلب، مقصور على اللسان، فهو لا يؤثر، ومن ثم؛ فهو مقصور على سمع السامع فهو لا يتأثر، وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس منه: قلتُ، ولا ارتأيت، ولا فكرت، حتى إذا فرغ كل شىء منه، وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله؛ فلا يهتز لها هزة الغضب، ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجارى البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة، والأفكار المثمرة، والبصائر النيِّرة، والموازين الصحيحة للرجال؛ فإنهم يرون الأفغانى عالما أى عالم، وفردا انطوى على عالم، وحكيما أى حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الدينى وأعاد سيرتها الأولى..

... لقد كان الأفغانى عالما شجاعا، قوّالا للحق جريئًا فيه، لا يخشى فى كلمة الحق يقولها، ولا فى الحق يدعو إليه لومة لائم - وجميع الثغر التى أتينا منها؛ فعلّة العلل فيها آتية من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شئون المسلمين العامة..

وقد جزاه الله فى الدنيا جزاء عاجلا، فرزقه طرازا من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، ورباهم على مبادئه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده..

لقد اقتحم جمال الدين هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء، وحجة على بعضهم.

رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين، وكفاء ما سنّه للعلماء من أسى حسنة لم نزل نتقلب فى أعطافها، وندين له بالفضل فيها»[1].

هكذا ميز الإمام البشير بين «علماء الرسوم»، الذين لا قلوب لهم، ولا حكمة، فيهم، ولا شجاعة لديهم - والذين رسم لهم الأفغانى صورة «كاريكاتورية» عندما وصف الواحد منهم بأنه: «**جبّة كالخرج، وعمامة كالبرج، ورأس فارغ**».. ميّز الإمام البشير بين هذا الصنف من «العلماء» وبين «العلماء الحكماء» الذين يجددون الدنيا بتجديد الدين.. وتحدث عن مكانة الأفغانى بين هؤلاء العلماء الحكماء.. وعن غرسه

(١) المصدر السابق، جـ٥ ص ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦.

ولقد وقفوا بعد زوال تلك الغشية صفًا واحدًا فى وجه ذلك المصلح يجادلونه بالبهت، ويكايدونه بالإفك، وألبوا عليه الألسنة والأقلام، ووقفوا له بكل مرصد، ورموه بكل نقيصة، فلم ينالوا منه نيلا إلا قولهم إنه كافر، وهنة وهنة، وهذه هى النغمة المرددة التى كان فقهاء الجيل البائد فى وطننا هذا وفى غيره يرددونها مقرونة بالسب واللعن، وقد ورثها عنهم أهل هذا الجيل واشتقوا منها اشتقاقات غريبة، وهى أسلحتهم التى يقذفون بها فى وجوه المصلحين كلما أعيتهم الحجة، وأعوزهم الدليل.

وكان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب فى الألمعية وبعد النظر، وعمق التفكير، وحدة الخاطر، واستنارة البصيرة، وسرعة الاستنتاج، واستشفاف المخبآت، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى.

منقطع النظير فى صدق الإلهام وسداد الفهم، وصدق العزيمة وخصب القريحة واستقلال الفكر، ونصاعة الاستدلال، وتمكن الحجة.

موفور الحظ من طهارة الدخيلة، والانطباع على الفضيلة، مستكمل الأدوات من فصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وقرطسة الفراسة، ودقة الملاحظة، وسلامة العبارة، ومطاوعة البديهة، ورباطة الجأش، وكبر الهمة الخطابية، وقوة المعارضة فى البيان، واتّساع الصدر لمكاره الزمان وأهله.

حجة من حجج الله فى فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفى البصر بسنن الله فى الأنفس والآفاق، وفى العلم بطبائع الاجتماع البشرى وعوارضه ونقائصه.

وبالجملة، فالرجل فذٌّ من الأفذاذ الذين لا تكوّنهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقّت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود وتبرزهم حكمته فى فترات متطاولة من الزمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهرا من مظاهر رحمة الله بعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحا شاملا، وخيرا عميمًا.

ولو أن قول الشاعر:

هيهات لا يأتى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

لم يبتذله المترجمون للرجال بوضعه فى غير موضعه، حتى صاروا ينشدونه فى حق أشخاص يتكرم علينا الزمان بمآت من مثلهم فى كل جيل، لولا هذا الابتذال السخيف لهذا البيت لقلنا: إن أحق رجل بانطباقه وصحة إطلاقه هو الأستاذ الإمام. فرضى الله عن الأستاذ الإمام»[١].

***

وبعبقرية حضارية، يلمح الإمام البشير ما بين «العبقرية العلمية» وبين «عبقرية المكان» الذى ظهرت فيه، فتغذت منه، واستفادت من تأثيراته على ما وراءه من آفاق.. يلمح هذا البعد الحاكم فى تأثيرات دعوات الإصلاح، فيتحدث عن «عبقرية مصر»، التى تجلت فى تأثيرات هذه المدرسة الإصلاحية على ما وراء مصر من البلاد.. فيقول:

«وسبحان من قسّم الحظوظ بين الجماعات؛ فأعطى كل جماعة حظا لا تعدوه، وفرق الخصائص على البقاع فخصّ كل بقعة بسر لا يعدوها، فما زلنا نستجلى من صنع الله لك -[يا مصر]- وللإسلام لطيفة سماوية، وهى أنه كلما رثّت جدّة الإسلام، وخالطته المحدثات، سطع فى أفق من آفاقه نجم يهدى السارين إلى سوائه، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته، ثم لا يلبث ذلك النجم أن يخبو، وذلك الصوت أن يخفق، إلا نجما سطع فى أفقك -[يا مصر]- وصوتا ارتفع فى أرجائك، وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الدينى فى أقطار الإسلام، وفى حقب معروفة من تاريخه، فضاعت بين ضجيج المبطلين، وعجيج الضالين، إلا صوت محمد عبده؛ فإنه اخترق الحدود وكسر السدود..»[٢].

***

كما يعترف الإمام البشير - بصدق العالم العامل - بأن الدعوة الإصلاحية الجزائرية، التى تجسدت فى «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» إنما هى رافد من هذا النهر العظيم فى الإصلاح.. وأثر من آثار المنهاج الإصلاحى الذى جاء به الإسلام، والذى

---

(١) المصدر السابق. جـ١ ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٤٩٦، ٤٩٧.

جدده وهندس بناءه، وأعلى صرحه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى عصرنا الحديث.. يقرر هذه الحقيقة، ويعلنها فيقول ـ تحت عنوان: «نشوء الحركة الإصلاحية فى الجزائر»:

«إن التأثير الأكبر فى تكوينها يرجع إلى عدة عوامل:

أولها: نوازع جزئية محدودة أحدثتها فى النفوس المستعدة الأحاديث المتناقلة فى الأوساط العلمية عن الإمام محمد عبده، ولو من خصومه الممعنين فى التشنيع عليه وسبه ولعنه ـ وما أكثرهم بهذا الوطن! ـ فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها فى النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير، وتكيفها تكييفا جديدا، وتغريها أولا بالبحث عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرجل، فإذا علمت أن منشأ ذلك دعوته إلى القرآن، أو ادعاؤها الاجتهاد ـ كما كانوا يقولون ـ قرب هذا الاسم منها، فأحبته ولجت فى الانتصار له، وإن لم تتبين مشربه كل التبين.

ثانيا: يضاف إلى هذا العامل قراءة [المنار] ـ على قلة قرائه فى ذلك العهد ـ واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية، وابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م] والشوكانى [١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤م]. فهذا عامل له أثره فى التمهيد للدعوة الإصلاحية»[1]. «.. لقد نجمت فى هذه العهود الأخيرة، ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة، وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتا بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بيانا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدهم رأيا فى تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملا جديًا فى ذلك»[2].

هكذا شهد الإمام البشير ـ شهادة العالم العامل الخبير ـ بإمامة الشيخ محمد عبده لدعوة الإصلاح الدينى والعلمى والتعليمى ـ فى عالم الإسلام ـ بالعصر الحديث..

* * *

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٤٢، ٣٤٣.

ـ ٥ ـ

المنهاج المعجزة فى تفسير القرآن الكريم

لأن القرآن الكريم هو الإعجاز الخالد المتحدى، الذى تعهد الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].. ولأن الجهاد به هو الجهاد الأكبر ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]..؛ ولأنه قد جمع خبر الأولين ونبأ الآخرين، حتى أنه لا تنقضى عجائبه.

ولأن أعداء الأمة الإسلامية ـ وفى طليعتهم «الصليبية الفرنسية» فى الجزائر ـ قد أدركوا خطر القرآن الكريم فى البعث والتجديد للهوية الإسلامية بالجزائر، فقالوا ـ بلسان أحد قادتهم أثناء الاحتفال بمئوية احتلالهم للبلاد ـ سنة ١٩٣٠م: «**إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم**»!!.

ولما للقرآن الكريم ـ بالنسبة للبعث الجزائرى ـ من تمثيله جماع الإحياء الدينى.. واللسان العربى.. والعزة الوطنية والقومية.. والإعجاز الدائم أبدا فى خلق الإنسان السوى والمجتمع السوى على امتداد الزمان والمكان.. لكل ذلك، كان استمداد «جمعية العلماء الجزائريين» ـ فى مشروعها الإصلاحى ـ منهاج الإمام محمد عبده، الذى مثل نموذج الإحياء الحقيقى فى تفسير القرآن الكريم.. **فهو «المنهاج المعجزة.. والتفسير لمعجزات القرآن»**، الذى رسم معالمه محمد عبده.. ودوّنه رشيد رضا.. وأكمله عبد الحميد بن باديس.

وعلى هذه الحقيقة يشهد الإمام البشير فيقول:

« . . إن هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم فى الأقطار الإسلامية ، بشير بقرب رجوع المسلمين إلى هداية القرآن الكريم ؛ لأن هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب الله وتفهمه والعمل به .

وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة - فى باب التأليف - تفسير الإمام محمود الألوسى [١٢١٧ - ١٢٧٠هـ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤م] - على ما فيه من تشدد فى المذهبية - وتفسير الأمير صديق حسن خان [١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ / ١٨٣٢ - ١٨٨٩م] .

ثم جاء إمام النهضة بلا منازع ، وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده ، فجلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها . وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسَّر إلا بلسانين : لسان العرب ولسان الزمان . . وبه وبشيخه جمال الدين ، استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها .

ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا جاريا على ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن ، كما جاء شارحًا لآرائه وحكمته وفلسفته فى الدين والأخلاق والاجتماع .

ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس ، قائد تلك النهضة بالجزائر ، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة ، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم فى استكمال وسائلها ، من ملكة بيانية راسخة ، وسعة اطلاع على السنة ، وتفقه فيها وغوص على أسرارها . وإحاطة وباع مديد فى علم الاجتماع البشرى وعوارضه ، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ، ومستجدات العمران ، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير ، وقلم كاتب لا تفل له شباه . »[1] .

لقد كان من إصلاحات الإمام محمد عبده العملية - فى هذا الباب - درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق ، وهو من هو فى استقلال الفكر ، واستنكار الطرائق الجامدة . . ولكن السامعين لتلك الدروس - على كثرتهم وجلالة أقدارهم فى العلم والمعرفة ، وتساويهم فى الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه ، وأنها مما لم تنطو عليها حنايا عالم ولا صحائف كتاب - لم

(١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٢٧ .

تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلا قليلا، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد، ولو لم يقيض الله محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله، ولكن الله وفقه لحفظ معانى تلك الدروس، وسدد قلمه فى أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه فى تفسير كلام الله فأبقى لهذه الأمة الأسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار»[1].

«.. لقد كان تفسير الأستاذ الإمام المنهاج المعجزة فى التفسير، المنبىء - بعد إرهاصات الشوكانى والألوسى وصديق حسن خان - بظهور إمام المفسرين بلا منازع: محمد عبده، أبلغ من تكلم فى التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله فى القرآن، وبين آياته فى الأكوان. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك. فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره، محمد رشيد رضا، فكتب فى التفسير ما كتب، ودوّن آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء منهاجه، ومات قبل أن يتمه، فانتهت إمامة التفسير بعده فى العالم الإسلامى كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل بالشمال الإفريقى عبد الحميد بن باديس»[2].

هكذا شهد الإمام البشير على إمامة الشيخ محمد عبده فى ميدان التفسير للقرآن الكريم.. فهو صاحب «المنهاج المعجزة» فى التفسير.. الذى تجاوز تفسير القرآن فأصبح تفسير معجزات القرآن.. وفسر القرآن بلسان العرب ولسان الزمان.. فكان فارس هذه الحلبة، الكاشف عن الحقائق التى حام حولها من سبقه دون أن يقع عليها.. فبه وجد علم التفسير وتم.. وكانت دروسه فيه فيضاً من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام العظيم..

***

(١) المصدر السابق. جـ١ ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق. جـ٢ ص ٢٥٢.

- ٦ -

فى الإصلاح السياسى

إذا كانت السياسة - في الرؤية الإسلامية - «هي الأفعال والتدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعها الرسول ﷺ ولا نزل بها الوحيَ - كما قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل [٤٣١ - ٥١٣هـ / ١٠٤٠ - ١١١٩م] - ونقل هذا التعريف عنه الإمام ابن القيم[١] .. أي أنها مضبوطة بمنظومة الأخلاق والقيم الإسلامية - وليست «الميكيافيلية» التي تبرر الغايات فيها الوسائل! ..

إذا كان هذا هو المفهوم الإسلامي للسياسة - التي غدت «علمًا إسلاميًا»، وليست مجرد «علم» وفقط - فهي علم «السياسة الشرعية»؛ لأن منها الأصول ومنها الفروع .. ومنها اللباب ومنها القشور .. ومنها القواعد والفلسفات والنظريات، ومنها الأحكام والتدابير المتغيرة وفق مستجدات الزمان ومقتضيات المصالح والعادات والأعراف، وضرورات البيئة والمكان ..

ولأن الإصلاح - في الرؤية الإسلامية - إنما يبدأ من الجذور والأصول والفلسفات وسمات الهوية وقسماتها .. فإن مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي - التي قادها الأفغاني ومحمد عبده - قد ركزت - في الإصلاح السياسي - على «الأصول» التي توصل إلى «الفروع» .. واهتمت «بلباب» السياسة، لا بالوقوف عند «القشور» .. وركزت على «الأمة» كطريق إلى «الدولة» .. واهتمت بإصلاح المؤسسات التي تصوغ العقل والوجدان قبل الأحزاب التي تقف عند الممارسات .. واعتنت «بسياسة التربية»

(١) ابن القيم [إعلام الموقعين] جـ ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

كطريق «لتربية السياسة» . . وأرادت وضع الوطنية على صخرة الإسلام الصحيح . . وعلقت الآمال على «العلماء» لا على «الأمراء» . .

ولقد تبنت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» هذا المنهاج السياسى . . وشهد على ذلك الإمام البشير الإبراهيمى . . فكتب يقول فى سنة ١٩٤٧م :

«إن السياسة لبابٌ وقشور . . ولباب السياسة ، بمعناها العام ، عند جميع العقلاء ، هو عبارة واحدة : إيجاد الأمة ، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ، ولغة ، ودين ، وتقاليد صحيحة ، وعادات صالحة ، وفضائل جنسية أصيلة . . فوجود تلك المقومات شرط لوجودها ، وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط . ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يُغالب ولا يرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت ، ومتى تلاقحت ولدت «وطنا» . .

وبعد تحديد هذا المفهوم للسياسة الحقة ، يمضى الإمام البشير ليؤكد على تبنى «جمعية العلماء» لهذا المفهوم ، فيقول :

«ونحن نفخر بأن اللباب ـ لباب السياسة ـ إنما هو حظ «جمعية العلماء» له عملت ، وفى ميدانه سابقت فسبقت ، وفى سبيله لقيت الأذى والكيد والاتهام ، وفى معناه اصطدم فهمها بفهم الاستعمار ، هى تفهمه دينا ، وهو يفهمه سياسة . . إن «جمعية العلماء» تعمل لسياسة التربية ؛ لأنها الأصل ، وبعض ساستنا ـ مع الأسف ـ يعملون لتربية السياسة ، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله ، وأى عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع؟! . . » .

ثم يمضى الشيخ الجليل ليكشف عن أن هذا المنهاج فى الإصلاح السياسى ، وهذا الفهم للمنطلقات الحقيقية لهذا الإصلاح ؛ إنما هو منهج مدرسة الإصلاح السياسى التى بلورها الأفغانى والأستاذ الإمام . . والذى تميزت به وفيه عن الأحزاب الوطنية التى ركزت على «الدولة» لا «الأمة» ، وعلى «الأمراء» و«الخلفاء» بدلا من «العلماء» ، وعلى «الحركة السياسية» أكثر من «الدعوة والتربية السياسية» . .

يمضى الإمام البشير ليكشف عن الأستاذية المتميزة لمدرسة الإصلاح الدينى فى هذا المنهاج ، فيقول :

« . . ففي الوقت الذى كان فيه جمال الدين الأفغاني يضع أساس الوطنية الإسلامية على صخرة الإسلام الصحيح، ويهيب بالمسلمين أن ينفضوا أيديهم من ملوكهم ورؤسائهم، وفقهائهم؛ لأنهم أصل بلائهم وشقائهم، وفى الوقت الذى كان محمد عبده يطيل ذلك البناء ويعليه، كان مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] ـ على إخلاصه لدينه ووطنه ـ يوجه الأمة المصرية إلى مقام الخلافة العظمى المتداعى، ويخيف الاستعمار بشبح لا يخيف، ثم جرت الأحزاب المصرية إلى الآن على ذلك المنهاج: إهمال شنيع لتربية الأمة وتقوية مقوماتها، وتطاحن أشنع على الرياسة والحكم، وترديد لكلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغن بمصالح الوطن وهى ضائعة، وترام بالتهم، والجريمة عالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص، والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شدقيه، وينام ملء عينيه.

ليت شعرى! . إذا كان من خصائص الاستعمار أنه يمحق المقومات ويميتها، ثم يكون من خصائص أغلب الأحزاب أنها تهملها ولا تلتفت إليها، فهل يلام العقلاء إذا حكموا بأن هذه الأحزاب شر على الشرق من الاستعمار؛ لأن الاستعمار يأتيه من حيث يحذر، والحذر ـ دائمًا ـ يقظ، أما هذه الأحزاب فإنها تأتيه من حيث يأمن، والأمن أبدا نائم؟! . . » .

وردًا على الذين يقيسون «الأحزاب» عندنا بالأحزاب فى التجارب السياسية الغربية، يقول الإمام البشير:

«إن من الغفلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية؛ فإن تلك الأحزاب ظهرت فى أمم استكملت تربيتها، وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا اللغة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك، وأين نحن وأحزابنا من ذلك؟! . . » . .

وهذه الحقيقة ـ التى أشار إليها الإمام الإبراهيمى ـ يغفل عنها الكثيرون . . فالنهضة الأوروبية قد سبقت نشأة الأحزاب السياسية الأوروبية . . وفى مرحلة النهضة بلورت أوروبا مقوماتها وقسمات هويتها . . ثم جاءت الأحزاب لتعبر عن التنوع والاختلاف فى إطار «الوحدة» . . وفوق «الأرض المشتركة» ، فكانت اختلافا فى «الفروع» وليست شقاقا فى الأصول . . وظلت المقومات هى الحاكمة والموجهة لأغلب تلك الأحزاب .

ولقد اهتم الإمام البشير بالتأكيد على أن هذا المنهاج فى الإصلاح السياسى ـ تقديم «الأمة» على «الدولة». . و«الدعوة» على «الحركة». . و«التربية على الأصول» قبل «الحزبية فى الفروع». . والتركيز على «العلماء» لا على «الأمراء» ـ إنما هو ـ منهاج مدرسة الأفغانى والأستاذ الإمام ـ الذى تبنته «جمعية العلماء».

«فلقد رأى جمال الدين الأفغانى أن أنكر المنكر ـ فى زمنه ـ هو عبث الأمراء المستبدين أو الأمراء الضعفاء بمصالح المسلمين، وأنهم أضاعوها فى سبيل شهواتهم الشخصية، وأنه لولا سكوت العلماء وقعودهم مع الخوالف؛ لما تمادى أولئك الأمراء فى غيِّهم، فوجه جهوده ووقف مواهبه على هذا الميدان السياسى، والسياسة فى نظر الإسلام هى لباب الدين؛ لأنها حامية لشرائعه وشعائره وحدوده، وموقف الأفغانى من شاه إيران وسلطان العثمانيين وخديوى مصر مشهورة، فالأفغانى باتساع معلوماته، وباستعداده الفطرى، وببعد نظره، وبصراحته وشجاعته، وبحسن فهمه لأمراض المسلمين، ومعرفته بأصناف علاجها، مصلح سياسى، اجتماعى، مستكمل الأدوات لا يشق له غبار ولا يصطلى له بناء».

وكما سبق وأشار الإمام البشير إلى «عبقرية المكان» ـ مصر ـ فى الإصلاح الدينى ـ لدى هذه المدرسة الإصلاحية ـ عاد فأشار إلى ذلك فى «الإصلاح السياسى»:

«فالأفغانى لم يتخذ وطنه ـ [أفغانستان] ـ مركزا لحركاته وأعماله؛ لأن ذلك الوطن لا يصلح مركزا لانبعاث حركة فكرية شاملة لبُعْده، وانقطاعه عن بقية الأوطان الإسلامية، واختار مصر قاعدة للحملات الصادقة التى حملها على استبداد الأمراء وخمول العلماء، وغفلة العامة.

وشىء آخر من بواعثه على اختيار مصر واتخاذها قاعدة لحركاته، وهو أن مصر لم تزل حاضنة العروبة، وحافظة عهودها من لدن الفتح الإسلامى، ولم تزل كعبة العرب ومهوى أفئدتهم منذ قرون، وكل مبدأ يتعلق بإصلاح شئون المسلمين العامة، فمن دواعى نجاحه أن يكون منبعثا من أرض العرب؛ لمكانهم من النبوة ومنزلتهم من القرآن. . .»[1].

---

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمى] جـ٣ ص ٦٤ ـ ٦٦.

إن الذين يقرءون سيرة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، يعلمون موقفه من الثورة العرابية سنة ١٢٩٨هـ/ سنة ١٨٨١م. . ويعلمون كيف كان مختلفا مع عرابى وحزبه إبان التحضير لهذه الثورة، فلقد كان منهجه العمل على إصلاح المؤسسات التى تصنع العقل المسلم وتربى الوجدان الإسلامى ـ الأزهر، والمدارس، والمساجد، والقضاء، والأوقاف ـ والعمل على تجديد مناهج الفكر والتفكير الإسلامى، وتصحيح العقائد الإسلامية. . والإصلاح اللغوى. . وتكوين النُّخبة والصفوة التى تربى العامة وتقودها، باعتبار ذلك هو المنهاج الذى يثمر النظام الدستورى والشورى، ويطبق كل سياسات الفروع فى واقع الاجتماع الإسلامى[1].

وهذا المنهاج هو الذى أكد عليه ودافع عنه الإمام البشير، فى حديثه إلى السيد غلام محمد ـ الحاكم العام لدولة باكستان ـ عندما زاره فى ٢١ مارس سنة ١٩٥٢م ـ. . وكانت باكستان تريد أن تضع لها دستوراً إسلامياً. . وتحدث حاكمها العام إلى الشيخ البشير عن أن أقدر العلماء على وضع الدستور الإسلامى هو جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام محمد عبده. . وأبدى أسفه الشديد على أنهما لم يصنعا ذلك. . وطلب من الشيخ البشير أن يصنع ما قصَّر فيه الأفغانى وعبده! . . فتحدث الشيخ البشير إلى الحاكم العام لباكستان مدافعا عن منهاج هذه المدرسة فى ترتيب أولويات الإصلاح السياسى. . وكتب عن هذا اللقاء فقال:

« . . فاعتذرت عن الشيخين ـ [الأفغانى وعبده] ـ بأنهما صرفا عنايتهما إلى الأهم من أحوال المسلمين فى زمنهما، وهو التقريب بينهم، وإصلاح خللهم، وإعدادهم لينقذوا أنفسهم من أمرائهم المستبدين، ومن أعدائهم المتسلطين، ولو تم هذا فى زمنهما ولو فى وجهة مخصوصة ـ [أى وطن من أوطان المسلمين] ـ لكانت الخطوة الثانية الطبيعية هى هذا الدستور الإسلامى الذى تقصدونه. . ولعلهما كانا يريانه أسهل مما تصوره نحن الآن، وهو كذلك إذا خف تأثير المذاهب المفرقة، واجتمع المسلمون على هدى الكتاب والسنة، وهو ما كان يعمل له الإمامان. . »[2].

إن القرآن هو دستور الدساتير، وبه ومنه بدأ الإسلام بتربية الأمة وإعادة صياغة

---

(١) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٩٥.

(٢) المصدر السابق. جـ٤ ص ٤٦ ـ ٤٨.

الإنسان، وتكوين الصفوة والنخبة والريادات.. الجيل الفريد الذي تخرج في مدرسة النبوة.. وعندما تم هذا الإنجاز التأسيسي، وتبلورت الأصول، جاءت مرحلة الدستور الخاص بالدولة، وما تبع ذلك من فروع السياسات وتطبيقات الأصول، عقب الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.. وهذا هو المنهج والترتيب في مفردات الإصلاح السياسي لدى كل الذين ينطلقون في الإصلاح السياسي من منهاج الإسلام في هذا الميدان.

* * *

لقد قال الله سبحانه وتعالى ـ في المحكم من نبأ السماء العظيم ـ عن شمولية المنهاج الإسلامي في الإصلاح: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

* وجاء في دستور دولة المدينة المنورة ـ «الصحيفة».. «الكتاب» ـ الذي وضعه الرسول ﷺ فور تأسيس الدولة سنة ١ هـ / سنة ٦٢٢م:

«.. **وإنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله**»(١).

* وقال الإمام مالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ / ٧١٢ ـ ٧٩٥م]: «**لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها**»..

وعلى امتداد تاريخ الإسلام كان المجددون.. وكانت مشاريع التجديد هي السبيل لمغالبة عاديات التراجع والهبوط والانحطاط.

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٢٠.

* وفي عصرنا الحديث . . وإزاء «التخلف الموروث» و«الاستلاب الحضاري الغربي» . . قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م]، في تشخيص العلة . . وتحديد منهاج الإصلاح :

«لا أطيل عليك بحثا، ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل . . إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها .

أرْسلْ فكرك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد نباهة . . واطلب أسباب نُهوضها الأول . . إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مُزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماع البشرية، حافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية . .

فإن كانت هذه شرعة هذه الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا . . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته . ولا سبيل لليأس والقنوط؛ فإن أصول الدين متأصلة فى النفوس . . والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته؛ فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها فى جميع الأرواح لأقرب وقت . . فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا فى سيرهم منتهى الكمال الإنسانى .

ومن طلب إصلاح أمة - شأنها ما ذكرنا - بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا .

ومن يعجب من قولى هذا؛ فإن عجبى من عجبه أشد! . . ودونك تاريخ الأمة العربية . . وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية . . حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم»[١] .

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٣١، ١٩٧، ١٩٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

هكذا صاغ الأفغاني ـ بعبارات هي من آيات الحكمة العالية ـ أسباب المأزق الحضاري للأمة الإسلامية . . وحدد سبيل الإصلاح والنهوض . .

* وعلى ذات الدرب . . ومن نفس المنطلق . . وذات الموقع والمنهج زكّى الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] سبيل الإصلاح بالإسلام . . فقال :

« . . لقد أشربت النفوس الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ / ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إلى اليوم . . فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا ـ وإن قيل إن لهم شيئًا من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم؛ فلا أثر لها في نفوسهم . .

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه، ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!»[1] .

ذلك هو منهاج مدرسة الإحياء والتجديد في الإصلاح ـ الإصلاح الديني . . والعلمي . . والتعليمي . . والسياسي . . منهاج «الإصلاح بالإسلام» . . ووفق ترتيب الأولويات، التي تقدم الأصول على الفروع .

* وعلى هذا الدرب سار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . . و«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» تحت قيادة الإمام عبد الحميد بن باديس . .

درب تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام . . ليكون الإحياء إسلاميًا . . وليكون التقدم صادرا عن المنابع الجوهرية والنقية لأصول الإسلام . . وليكون حديثنا دائما وأبدا بلسان القرآن ولسان الزمان؟!

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ١٠٩، ٢٢١ .

المصادر والمراجع

ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

ابن القيم: [إعلام الموقعين]. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

الأفغاني ـ جمال الدين: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

عادل نويهض: [معجم أعلام الجزائر] طبعة بيروت سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.

محمد البشير الإبراهيمي: [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

د. محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ محقق ـ: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

محمد عبده ـ الأستاذ الإمام ـ: [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ سنة ١٩٩٣م.

د. محمد عمارة: [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة ـ دار الشروق سنة ١٤٠٨هـ/ سنة ١٩٨٨م.

محمد بن يوسف الصالحي الشامي: [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد ـ طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ/ سنة ١٩٩٧م.

(٤)

الإمام الأكبر الشيخ

محمود شلتوت

[١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ /١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م]

تقديم

فى بعض الحوارات العلمية، التى دارت حول المعاملات المصرفية.. سمعت شيخنا محمد الغزالى [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦م] رحمه الله - فى معرض التأييد لاجتهادات أستاذه الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣م] - يقول:

- «أرونى فقيها مثل الشيخ شلتوت»؟!..

نعم.. لقد صدق شيخنا الغزالى.. فلقد كان الشيخ شلتوت إمام فقهاء العصر الذى عاش فيه؛ ولعله كان أبرز فقهاء العقود التى أحاطت بمنتصف القرن العشرين.

ولم يكن فقه الشيخ شلتوت كفقه كثير من الفقهاء، الذين وقف فقههم عند فقه الأحكام.. وإفتاء الأحياء بفتاوى الأموات.. أو مجرد الترجيح بين الآراء فى إطار مذهب من المذاهب الفقهية الشهيرة.. وإنما كان فقهه فقها للواقع أولا.. وبحثا لمشكلات ومستجدات هذا الواقع عن الضوابط الإسلامية فى فقه الأحكام ثانيا.. ثم تنزيلا لفقه الأحكام على فقه الواقع، على النحو الذى يعقد القران الشرعى بينهما.. مع ملكة فى فقه الواقع، وفى فقه الأحكام، وفى عقد القران بينهما مثلت «الجوهرة النفيسة» التى يفتقر إليها الكثيرون!

كذلك، تميَّز فقه هذا الإمام الجليل باتساع مساحة مرجعية القرآن الكريم وصحيح السنة فيه، بأكثر من مساحة الاجتهادات الفقهية الموروثة، وخاصة منها تلك التى ارتبطت بواقع تاريخى تجاوزه الزمان، وتخطته المصالح الشرعية المتجددة.

كما تميَّزت العبقرية لهذا الإمام العظيم «بالعدسة اللامة» التى رأت الدنيا كلها بمنظار إسلامى، كما رأت الإسلام وأمته وعالمه فى إطار كونى شامل وفسيح.. وقبل ذلك

كله، رأت الكون والوجود بمنظار الفلسفة الإسلامية المؤمنة، والعقلانية الإسلامية المؤسسة على الفطرة والمنطق.. ومن هنا اتسعت دائرة هذا الفقه لتشمل كل قضايا الإنسان ـ من الأحكام الفقهية الجزئية.. إلى العلاقات الدولية.. مروراً بقضايا النظام الإسلامي ـ في السياسة، والاجتماع، والفكر، والاقتصاد، والآداب والفنون ـ وشمولا لقضايا التحرر الوطني لعالم الإسلام، وعوالم المستضعفين والمقهورين، والتدافع الحضاري بين الحق والباطل على النطاق الكوني العام.

* * *

وإذا كان بعض «المفكرين»، الذين تفرضهم وسائل الإعلام على مجتمعاتهم، وتحولهم «المؤسسات السلطانية» إلى «مقررات» تملأ بها الدنيا وتشغل بها الناس ـ إبان حياتهم ـ حتى إذا ما ماتوا دخلت معهم «مشاريعهم الفكرية» القبور التي قبروا فيها!.. فإن الشيخ شلتوت لم يكن أبدا واحداً من هؤلاء.. فلقد كان إمام العصر، الذي يستيقظ الناس، وتستيقظ عقولهم على صوته المتميز، يأتيهم من المذياع كل صباح.. فلما غاب هذا الصوت.. بصعود روح صاحبه إلى الرفيق الأعلى ـ قبل نيِّف وأربعين عاما ـ ظلت آثاره الفكرية، واجتهاداته الفقهية، وإبداعاته في مختلف مناحي الفكر الإسلامي والإنساني، حية ومقروءة وفاعلة، بل ومرجعًا متفردًا يحتكم إليه الجمهور وأهل الاختصاص على حد سواء.. وتشهد على هذه الحقيقة الطبعات الجديدة والمتوالية لهذه الآثار الفكرية التي خلفها لنا هذا الإمام العظيم..

* * *

وإذا كانت المكتبة الإسلامية قد افتقدت الدراسات العلمية الجادة عن هذا الإمام العظيم.. فلعل هذه الدراسة الموجزة ـ التي نقدم بين يديها ـ أن تكون فاتحة.. وحافزا..

فاتحة لدراسات عديدة عن حياة وفكر هذا الفقيه الفذ، والمصلح العظيم..

وحافزاً على الاقتداء بسيرته العلمية، وشجاعته الأدبية، وإخلاصه لدينه، وأمته، وللإنسانية جمعاء.

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. وأن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

ـ ١ ـ

بطاقة حياة

• السيرة الحياتية

• والمسيرة العلمية

* فى ٦ شوال سنة ١٣١٠هـ / ٢٣ أبريل سنة ١٨٩٣م ولد الشيخ محمود شلتوت، ببلدة «منية بنى منصور»، مركز «إيتاى البارود»، محافظة «البحيرة»، بلدنا القطر المصرى.

* وبعد أن حفظ القرآن وجوَّده ـ بكُتَّاب القرية ـ على عادة السالكين طريقهم إلى العلم الدينى، التحق بمعهد الإسكندرية الدينى، التابع للأزهر الشريف سنة ١٣٢٤هـ / سنة ١٩٠٦م.. أى فى العام التالى لوفاة الإمام محمد عبده.

ولقد ظل محافظا على تفوقه فى الدراسة على امتداد سنوات مراحل تعليمه بالأزهر الشريف ـ الابتدائى.. والثانوى ـ والعالى ـ فكان ترتيبه الأول دائما طوال سنوات دراسته. حتى نال شهادة «العالمية» سنة ١٣٣٦هـ / سنة ١٩١٨م.

* وفى العام التالى لتخرجه ـ سنة ١٣٣٧هـ / سنة ١٩١٩م ـ عين مدرسا بمعهد الإسكندرية الدينى.

* وكانت كبرى ثورات الشعب المصرى ـ ضد الاحتلال الإنجليزى ـ قد تفجرت فى ذات العام ـ ثورة سنة ١٩١٩م ـ فانخرط فيها الشيخ شلتوت، وشارك فى مظاهراتها واجتماعاتها والخطابة والإثارة لجماهير الشعب وطلائع الثوار.

* ومع أن الشيخ محمود شلتوت لم يتتلمذ مباشرة على يد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ إلا أنه ـ منذ فجر حياته التعليمية والعلمية ـ كان واحدا من نبهاء مدرسة الأستاذ الإمام ـ مدرسة الإحياء والتجديد ـ ولقد ربطته الوشائج الفكرية، وأيضا العلاقات والصداقات بأبرز خلفاء وتلاميذ الأستاذ الإمام، وفي مقدمتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] والإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ / ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م] وهم من نجباء تلامذة الشيخ محمد عبده، الذين تتلمذوا على يديه، وحضروا دروسه، والذين قادوا تيار الإصلاح لمناهج وتنظيمات الأزهر الشريف.. وجاهدوا لتأكيد وتدعيم استقلال الأزهر عن سلطات الدولة ونفوذ الاستعمار الإنجليزي.

ولذلك، فعندما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر ـ في ٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٦هـ / ٢٢ مايو سنة ١٩٢٨م ـ بادر فاستدعى الشيخ شلتوت، ونقله من التدريس بمعهد الإسكندرية إلى التدريس بالقسم العالي ـ الجامعة ـ بالقاهرة، وهو القسم الذي كان يرأسه علم آخر من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، هو الشيخ عبد المجيد سليم.

* وبعد ذلك، ارتقى الشيخ شلتوت إلى تدريس الفقه بأقسام التخصص بالأزهر الشريف.. وهي أعلى مستويات التدريس..

* وعندما حدثت الأزمة الشهيرة بين الشيخ المراغي ـ شيخ الأزهر ـ وبين الملك أحمد فؤاد [١٢٨٤ ـ ١٣٥٥هـ / ١٨٦٩ ـ ١٩٣٦م] بسبب إصرار المراغي على مشروعه لإصلاح الأزهر، وتجديد مناهجه، وتنظيم كلياته وأقسامه ومعاهده، وتأكيد استقلاله.. ومعارضة الملك فؤاد لهذا المشروع.. كان الشيخ شلتوت أول المدافعين عن مذكرة المراغي ومشروعه الإصلاحي ـ بالقلم واللسان ـ فكتب عدة مقالات بجريدة «السياسة» اليومية.. وألقى العديد من الخطب في الأساتذة والطلاب.

ولما اضطر المراغي إلى الاستقالة من مشيخة الأزهر ـ في جماد أول سنة ١٣٤٨هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩م. بسبب مناوأة الملك فؤاد لمشروع إصلاح الأزهر.. وتولى المشيخة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري [١٢٩٥ ـ ١٣٦٣هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٤٤م] انخرط طلاب الأزهر وكثير من شيوخه في ثورة كبرى وشهيرة، مطالبين بعودة

المراغى إلى المشيخة، وتنفيذ مشروعه الإصلاحى، ولقد استمرت قلاقل وأحداث وإضرابات هذه الثورة الأزهرية طوال مدة إبعاد المراغى عن المشيخة. وتصاعد قمع الدولة للعلماء والطلاب الثائرين، وخاصة إبان الوزارة المستبدة التى رأسها إسماعيل صدقى باشا [١٢٩٢ ـ ١٣٦٩هـ / ١٨٧٥ ـ ١٩٥٠م] ـ وهى الوزارة التى ألغت دستور سنة ١٩٢٣م، وزيفت الانتخابات ـ فتم فصل الشيخ شلتوت من منصبه، ضمن الذين فصلوا من علماء الأزهر، فى ٤ جماد أول سنة ١٣٥٠هـ / ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م.. ويومئذ اشتغل الشيخ شلتوت بالمحاماة الشرعية ـ مع شقيق صديقه الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] ـ الذى كان قد فصل من القضاء الشرعى سنة ١٣٤٤هـ / سنة ١٩٢٥م بسبب كتابه عن [الإسلام وأصول الحكم].

وظل الشيخ شلتوت مفصولا من التدريس بالأزهر، وبعيدا عن جامعته قرابة أربع سنوات.. فلما اضطر الملك فؤاد إلى الرضوخ لإصرار علماء الأزهر وطلابه على عودة المراغى، والمضى فى مشروع إصلاح الأزهر، وسقطت الوزارات المستبدة، أعيد الشيخ محمود شلتوت ـ وكل المفصولين ـ إلى الأزهر، مدرسا بكلية الشريعة، فى ذى القعدة سنة ١٣٥٣هـ / فبراير سنة ١٩٣٥م، إبان وزارة توفيق نسيم باشا [١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م].. وبعد أقل من شهرين عاد الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر فى المحرم سنة ١٣٥٤هـ/ ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٥م..

* وتحت قيادة المراغى للأزهر الشريف ـ وفى ظل مشروعه الإصلاحى لهذه الجامعة الأعرق ـ بدأ الأزهر يتواصل مع المحافل والمؤتمرات العلمية العالمية، مبلغا دعوة الإسلام، بمنطق جديد ـ وملقيا الأضواء على مميزات وامتيازات الإسلام، وما لديه من حلول للمشكلات الإنسانية.. فشارك فى مؤتمر تاريخ الأديان الدولى ـ السادس ـ المنعقد بمدينة "بروكسل" ـ فى جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ / ١٦ ـ ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥م ـ ومثله فى هذا المؤتمر الشيخان مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى.. وعندما انعقدت الدورة الثانية لمؤتمر القانون الدولى المقارن ـ بلاهاى ـ هولندا ـ فى جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ / أغسطس سنة ١٩٣٧م.. ورأس وفد مصر الفقيه والقانونى الدكتور عبد الرزاق السنهورى، اختار المراغى الشيخ محمود

شلتوت ممثلا للأزهر فى هذا المؤتمر العالمى، فقدم للمؤتمر دراسته العلمية المتميزة عن [المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية](1).. وكانت هذه الدراسة هى التى تقدم بها - بعد ذلك - إلى «هيئة كبار العلماء» سنة ١٣٦٠هـ / سنة ١٩٤١م فنال بها عضوية الهيئة.. وكان يومئذ أصغر الأعضاء سنا فى «هيئة كبار العلماء» - أعلى هيئات العلم الإسلامى فى العالم الإسلامى.

* وبعد ذلك عين الشيخ شلتوت فى «لجنة الفتوى» بالأزهر الشريف..

* ولقد تبدى حرص الشيخ المراغى على أن يكون الشيخ شلتوت دائمًا وأبدًا فى الموقع الذى يمارس منه وفيه دفع مسيرة الإصلاح والتجديد فى الأزهر الشريف، عندما رقى الشيخ شلتوت من مدرس بكلية الشريعة إلى مفتش بالمعاهد الدينية - سنة ١٣٥٨هـ / سنة ١٩٣٩م - فأعاده المراغى إلى القسم العالى - الجامعة - وكيلا لكلية الشريعة، ليشرف على خطة الإصلاح فيها.

* وعندما تبوأ موقعه بين «هيئة كبار العلماء» سنة ١٣٦٠هـ / سنة ١٩٤١م، تقدم إلى هذه الهيئة باقتراح جامع «لجدول أعمال» الاجتهاد الإسلامى المعاصر فى أربعة ميادين، وذلك باقتراح:

١ - إنشاء مكتب علمى للجماعة، مهمته رصد الهجوم على الإسلام، والرد على هذا الهجوم، تبليغا للدعوة، وإقامة للحجة، وإزالة للشبهة عن عقيدة وشريعة وحضارة الإسلام.

٢ - بحث المعاملات المستجدة، لاستنباط الأحكام الفقهية الجديدة لهذه المعاملات التى لم تعرفها عصور واجتهادات القدماء.

٣ - وضع كتاب عن الإسرائيليات فى التفاسير المتداولة للقرآن الكريم، لتنقية هذه التفاسير من تلك الإسرائيليات التى تغرق العقل المسلم فى الضلالات.

٤ - تنقية الكتب الدينية من البدع والخرافات.

ولقد تبنت «هيئة كبار العلماء» هذه المقررات، وتألفت لتحقيق هذه المقاصد لجنة رأسها الشيخ عبد المجيد سليم، وكان الشيخ شلتوت أحد أعضائها.

---

(١) انظرها فى كتابه [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٣٩٢ - ٤٢٩ طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

* وفى سنة ١٣٦٥هـ / سنة ١٩٤٦م اختير الشيخ محمود شلتوت عضواً «بمجمع اللغة العربية»، وذلك ضمن عشرة أعضاء، مثلوا قسم العلم والفكر فى ذلك التاريخ، حتى سماهم الأستاذ أحمد أمين (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] ـ فى حفل استقبال المجمع لهم ـ بـ «العشرة الطيبة» ـ وهم غير شلتوت ـ الدكتور عبد الرزاق السنهورى، والدكتور إبراهيم بيومى مدكور [١٣٢٠ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩٠٢ ـ ١٩٩٥م] والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور أحمد زكى [١٣١٢ ـ ١٣٩٥هـ/ ١٨٩٤ ـ ١٩٧٥م] والدكتور مصطفى نظيف [١٣١٠ هـ/ ١٨٩٣م] والشيخ عبد الوهاب خلاف، والأستاذ محمد فريد أبو حديد [١٣١٠ ـ ١٣٨٧هـ/ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٧م].

* ثم انتدبت جامعة القاهرة الشيخ شلتوت لتدريس مادة «فقه القرآن والسنة» لطلاب «دبلوم» الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق. .

* وفى سنة ١٣٦٩هـ / سنة ١٩٥٠م ـ وأثناء تولى الشيخ عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر ـ عين الشيخ شلتوت مراقبا عاما لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف.

* وفى سنة ١٣٧٦هـ / سنة ١٩٥٧م، وفى ظل انفتاح الثورة المصرية على الدائرة الإسلامية، من خلال منظمة المؤتمر الإسلامى ـ التى تولى أمانتها عضو مجلس الثورة محمد أنور السادات [١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩٨١م] ـ اختار السادات الشيخ شلتوت مستشاراً لمنظمة المؤتمر الإسلامى، لما لفكره وعلاقاته من أهمية وفاعلية فى التواصل مع شعوب ومذاهب الأمة الإسلامية.

* وبعد تولى الشيخ شلتوت لمنصب وكيل الجامع الأزهر، أخذت كثير من الهيئات والمنظمات والمؤسسات تسعى إلى الاستفادة من علمه وتوجيهاته وخبراته واجتهاداته، ومن نشاطه الجم، فأصبح عضوا باللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية. . وعضوا فى مجلس الإذاعة الأعلى. . وعضوا باللجنة العليا لمعونة الشتاء. . ورئيسا للجنة العادات والتقاليد بوزارة الشئون الاجتماعية. . وعضوا مؤسسا «لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية»، وواحدا من أبرز كُتَّاب مجلتها «رسالة الإسلام». وكانت فتواه الشهيرة بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفرى، كواحد من المذاهب الفقهية الثمانية الموثقة ـ المالكى، والشافعى، والحنفى، والحنبلى، والجعفرى، والزيدى، والإباضى، والظاهرى ـ من إنجازاته المتميزة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة، وترتب على ذلك احتضان الأزهر الشريف ـ

وهو أقدم وأعرق وأكبر جامعات العلم الإسلامى - جميع هذه المذاهب فى التدريس والإفتاء.

* وفى ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٧٨هـ/ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨م تولى الشيخ محمود شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر، ومن موقعه - كشيخ للأزهر - بدأ خطواته لتحقيق المشاريع الإصلاحية والتجديدية، التى طمح إليها ولم يتمكن من تحقيقها حتى ذلك التاريخ.. ومن ذلك مشروع إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية»، الذى أراده الهيئة العلمية العليا الجامعة لكبار علماء الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم - وهو المشروع الذى سبق واقترحه عندما عين وكيلا للأزهر - فكان إنشاء هذا «المجمع» ضمن هياكل مشروع تطوير الأزهر، الذى صدر به القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م - وهو التطوير الذى حلم به الشيخ شلتوت، وتيار الإصلاح الذى بدأه الإمام محمد عبده - والذى تغيا تخريج علماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ودعاة للإسلام: يجمعون إلى فقه الدعوة حذق العلوم التقنية والإدارية الحديثة والعصرية واللغات الأجنبية، وذلك لمواجهة حركات التنصير - وخاصة فى إفريقيا وآسيا - تلك التى جمع قساوستها، وجمعت مدارس إرسالياتها بين علوم اللاهوت وتقنيات العصر وعلومه، فامتلك خريجوها المتنصرون زمام الدول ومؤسساتها، بينما وقف المسلمون - هناك - بأبنائهم عند «الكتاتيب» و«الخلاوى»، مكتفين بحفظ القرآن وشىء من الفقه والتفسير والحديث، تاركين الدولة ومؤسساتها للأقليات النصرانية، وذلك خوفا على عقيدتهم من التنصير الذى اقترن التبشير به بدراسة علوم الإدارة، والتقنيات الحديثة فى مدارس الإرساليات التنصيرية!..

فجاء قانون التطوير للأزهر - الذى رعاه الشيخ شلتوت، والذى وضع مواده، وكتب مذكرته الإيضاحية، واحد من أبرز الغيورين على الإسلام وفكره وتراثه، هو الأستاذ محمد سعيد العريان [١٣٢٣ - ١٣٨٤هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٦٤م] - ليجعل الأزهر مؤسسة الإسلام العالمية الكبرى، وليجعل جامعته - بكلياتها الشرعية والمدنية - المنبع الذى يلبى احتياجات المسلمين فى علوم الدين والدنيا.. فجاء فى المادة الثانية من هذا القانون - عند الحديث عن رسالة الأزهر:

«الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته، وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر، ورقى الحضارة، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة؛ كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها.. وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون، وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية، والثقافة الدينية والعربية، ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح، كفاية علمية و عملية ومهنية، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والإنتاج، والريادة والقدوة الطيبة للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية».

كما جاء فى المذكرة الإيضاحية لقانون التطوير هذا، مبادئ عدة، منها:

أولاً: أن يبقى الأزهر، وأن يُدعم ليظل أكبر جامعة إسلامية، وأقدم جامعة فى الشرق والغرب.

ثانيًا: أن يظل ـ كما كان منذ أكثر من ألف سنة ـ حصنا للدين والعروبة، يرتقى به الإسلام، ويتجدد ويتجلى فى جوهره الأصيل، ويتسع نطاق العلم به فى كل مستوى وفى كل بيئة، ويذاد عنه كل ما يشوبه وكل ما يُرمى به».

* وكنتيجة لهذا القانون ـ ١٠٣ لسنة ١٩٦١م:

ـ دخلت الفتيات الأزهر، وانتظمن فيه بأعداد غفيرة ـ فى جميع مراحل دراساته ـ لأول مرة فى التاريخ.

ـ وأنشئ «مجمع البحوث الإسلامية» ـ الشكل الجديد «لجماعة كبار العلماء» ـ.

ـ وأنشئت . . «مدينة البعوث الإسلامية»، لتمثل الأمية الإسلامية الجامعة لأكثر من ثمانين جنسية من جنسيات الشعوب والأقطار الإسلامية.

ـ وأنشئ «معهد البعوث الإسلامية» ـ معهد الإعداد والتوجيه ـ الذي يؤهل الطلاب غير العرب للدراسة باللغة العربية.

ـ ودُرِّست اللغات غير العربية ـ أوروبية وشرقية ـ بالأزهر.

ـ ودُرِّس القانون المقارن في كليات الشريعة بجامعة الأزهر ـ وأصبح اسم هذه الكليات «الشريعة والقانون».

ـ ودُرس فقه الشيعة إلى جوار فقه المذاهب السنية، والمذاهب الفقهية الموثقة مصادرها.

ـ وأصبحت المعاهد الدينية ـ الابتدائية . . والإعدادية . . والثانوية ـ تغطى كل قرى مصر ـ التى تقترب من ستة آلاف ـ بعد أن كان عددها ـ فى جيلنا ـ لا يبلغ عدد أصابع اليدين! . . كما أصبحت كليات جامعة الأزهر تغطى سائر محافظات مصر، وتمتد لترتفع مناراتها فى الكثير من الأقطار الخارجية، الشرقية منها والغربية . . وكان الشيخ شلتوت هو صاحب الرؤية والفكر اللذين تجسدا فى هذا الإنجاز الكبير.

*** وإذا كان «واقع» تطوير الأزهر الشريف لم يرتق إلى مستوى «آمال» الشيخ شلتوت من ورائه . . فإن مرد ذلك عائد إلى «قصور» الذين قاموا «بالتطبيق والتنفيذ» ـ الدولة التى لا خبرة لها بهذا الحقل من حقول العلم والتعليم، والتى لم تكن تثق بنوايا شيوخ الأزهر تجاه توجهها إلى «الاشتراكية العلمية» التى رفعت شعاراتها فى ذات السنوات التى بدأت فيها مسيرة التطوير! . . وشيوخ الأزهر، الذين لم يتحمس الكثيرون منهم لهذا التطوير، لسوء ظنهم برجالات الثورة، واتجاهاتهم الاشتراكية . . فانعكس سوء الظن هذا على مقاصد الدولة من وراء التطوير! . . .**

* بل إن المفارقة قد بلغت حد المأساة، عندما أصبح الشيخ شلتوت ذاته ـ وهو روح التطوير وداعيته وراعيه ـ أول ضحايا قانون التطوير! . . حتى لقد انتهت حياته بمأساة اقترفتها «البيروقراطية»، والأثرة فى الاختصاصات الإدارية؛ وذلك عندما استأثر «وزير شئون الأزهر» ـ وكان عالما فاضلا ـ بكل السلطات الإدارية فى الأزهر ـ وناصره فى هذا الاستئثار قسم الفتوى بمجلس الدولة ـ انطلاقا من نصوص قانون

التطوير، التى أرادت لمنصب شيخ الأزهر أن يكون دينيا فقط، ولا علاقة له بالسلطات الإدارية فى الأزهر - حتى إدارة مكتبه! . . فخاض الشيخ شلتوت معركة صامتة، تحلَّى فيها بالصبر والشجاعة، ضد هذا العدوان على سلطات مشيخة الأزهر . . وكتب مذكرات شجاعة إلى رئيس الجمهورية - جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ / ١٩١٨ - ١٩٧٠م] - وإلى رئيس مجلس الوزراء - على صبرى مثلت - ولا تزال - صفحات فى كتاب الشجاعة والكرامة والشموخ.

فلما هزمته الأثرة والبيروقراطية، والتطبيق الجامد والحرفى للقانون . . قدم استقالته الشجاعة من مشيخة الأزهر فى ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ / ٦ أغسطس سنة ١٩٦٣م . . وجاء فى كتاب استقالته - الذى بعث به إلى الرئيس جمال عبد الناصر - عن أسباب هذه الاستقالة:

« . . . . إلى أن أسندت وزارة شئون الأزهر إلى السيد الدكتور: محمد البهى، فسار بها فى طريق لا يتفق مع رسالة الأزهر، وما يبتغيه طلاب الإصلاح له، حتى مس كيانه، وصدَّع بنيانه، وفى هذه الفترة الأخيرة، التى جاوزت العشرة شهور، ظللت من جانبى أحاول علاج ما ترتب على طريق سيره من مشكلات، وأدفع بقدر الاستطاعة عن حرمة الأزهر وحماه، ولم أدع فرصة إلا التجأت فيها إلى المختصين عسى أن يهيئ الله من الظروف ما يستقيم معه المعوج وينصلح به الفاسد . . ولكن الأمور أفلت زمامها من يدى، وانتقلت من سيئ إلى أسوأ، حتى تحول الأزهر فعلا عن رسالته، ولم يصبح لمشيخة الأزهر وجود أو كيان.

وإزاء هذه الظروف السابقة المتجمعة، أجد نفسى أمام واحد من أمرين:

إما أن أسكت على تضييع أمانة الأزهر - وهو ما لا أقبله على دينى وكرامتى.

وإما أن أتقدم - آسفا - فى هذه الظروف - بطلب إعفائى من حمل هذه الأمانة، التى أعتقد عن يقين أنكم تشاركوننى المسئولية فى حملها أمام الله والتاريخ . .

ولذلك، فليس أمامى إلا أن أضع استقالتى من مشيخة الأزهر بين يديكم، بعد أن حيل بينى وبين القيام بأمانتها.

والله أسأل أن يديم عليكم نعمة التوفيق فى خدمة العروبة والإسلام، وأن ينهض الأزهر فى عهدكم؛ حتى يظل للإسلام حصنا وللوطن وللمسلمين فى مختلف الأقطار خيرا وبركة . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* وما لبث الشيخ محمود شلتوت أن أصابه المرض ـ كما سبق وحدث للإمام محمد عبده ـ عندما حيل بينه وبين إصلاح الأزهر! . . فتوفى الشيخ شلتوت بعد خمسة أشهر من تقديمه الاستقالة . . وصعدت روحه المطمئنة إلى بارئها راضية مرضية فى ٢٧ رجب سنة ١٣٨٣هـ/ ١٣ ديسمبر سنة ١٩٦٣م، فى ذكرى الإسراء والمعراج . . بعد عمر امتد سبعين عاما، كان فيه منارة سامقة للاستنارة والإصلاح والاجتهاد والتجديد . .

* ولقد كان الشيخ شلتوت من طلائع أئمة الأزهر، الذين تجاوزت شهرتهم وآثارهم وطن العروبة وعالم الإسلام . . ـ فمنح الدكتوراه الفخرية من جامعة «شيلى» ـ بأمريكا اللاتينية ـ سنة ١٣٧٧هـ/ سنة ١٩٥٨م.

ـ ومنح الدكتوراه الفخرية ـ أيضا ـ من جامعة جاكارتا ـ أكبر جامعات كبرى الدول الإسلامية.

ـ كما منح وسام العرش المغربى ـ من الملك محمد الخامس [١٣٢٧ ـ ١٣٨٠هـ/ ١٩٠٩ ـ ١٩٦١م] ـ سنة ١٣٧٩هـ/ سنة ١٩٦٠م . .

* كذلك، ترك الشيخ شلتوت ـ غير الشجاعة فى الحق . . والنموذج الخلقى الرفيع . . والإنجازات العملية الكبيرة . . والنشاط الفكرى والدعوى والاجتماعى ـ ذخيرة من الأعمال العلمية التى ضمت مشروعه الفكرى فى الاجتهاد والتجديد . . ومن أهم هذه الأعمال العلمية :

١ ـ فقه القرآن والسنة.

٢ ـ مقارنة المذاهب.

٣ ـ يسألونك ـ [وهى إجابات عن أسئلة إذاعية].

٤ ـ منهج القرآن فى بناء المجتمع.

٥ ـ المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية.

٦ ـ القرآن والقتال.

٧ ـ القرآن والمرأة.

٨ ـ تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام.

٩ ـ الإسلام والوجود الدولى للمسلمين.

١٠ ـ تنظيم النسل.

١١ ـ رسالة الأزهر.

١٢ ـ إلى القرآن الكريم.

١٣ ـ الإسلام عقيدة وشريعة ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

١٤ ـ من توجيهات الإسلام ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ القاهرة ـ سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

١٥ ـ الفتاوى ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

١٦ ـ تفسير القرآن الكريم ـ [عشرة الأجزاء الأولى] ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

ـ ولقد ضمت طبعة دار الشروق لكتبه الأربعة الأخيرة أغلب دراساته الأخرى.. فكأنها قريبة من أعماله الفكرية الكاملة.

* تلك هى أبرز معالم هذه السيرة العطرة.. والمسيرة العلمية الخصبة لهذا الإمام العظيم ـ الشيخ محمود شلتوت ـ عليه رحمة الله(١)..

* * *

(١) انظر فى وقائع سيرة الشيخ شلتوت: على عبد العظيم [مشيخة الأزهر] جـ٢ ص ١٧٩ ـ ٢٤٣ : طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

ـ ٢ ـ

المدرسة الفكرية: مدرسة الإحياء والتجديد

لأن كل إنسان فى هذه الحياة هو ثمرة طيبة لمرب فاضل، أو ثمرة مرة لمدرس فاشل.. وهو ثمرة جيدة لفكر متجدد، أو ثمرة رديئة لفكر الجمود والتقليد.. لذلك، كانت المدرسة الفكرية التى ينشأ فى إطارها وظلالها العالم والمفكر والمثقف: هى مفتاح دراسة موقعه وموقفه وما أثمرت حياته الفكرية من سمات وقسمات وإنجازات.

ولقد كان المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ / ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م] واحدا من أعلام العلماء الذين نشئوا وتربوا ونضجوا فى رحاب فكر مدرسة الإحياء والتجديد، التى صاغ مناهجها وبلور معالمها فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م].. والتى فصَّل معالم قسمات مشروعها التجديدى والنهضوى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] فجاء شلتوت علَمًا فى موكب كوكبة من علماء هذه المدرسة، الذين نبغوا على امتداد بقاع العالم الإسلامى، والذين جاهدوا لتجديد الدين الإسلامى كى تتجدد به حياة الأمة الإسلامية.. وذلك من مثل: عبد الله النديم [١٢٦١ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م] ومحمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] وعبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] وعبد القادر المغربى [١٢٨٤ ـ ١٣٧٦هـ / ١٨٦٧ ـ ١٩٥٦م] وعبد العزيز جاويش [١٢٩٣ ـ ١٣٤٧هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م] وعبد الحميد الزهراوى [١٢٧٢ ـ ١٣٣٤هـ / ١٨٥٥ ـ ١٩١٦م] وعبد الوهاب النجار [١٢٧٨ ـ ١٣٦٠هـ / ١٨٦٢ ـ ١٩٤١م] ومحمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] ومصطفى عبد

الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] وعبد المجيد سليم [١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ / ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م] ومحمد الخضرى [١٢٨٩ ـ ١٣٤٥هـ / ١٨٧٢ ـ ١٩٢٧م] وعبد الجليل عيسى [١٣٠٥ ـ ١٤٠٠هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٨٠م] ومحمد الخضر حسين [١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م] وأحمد إبراهيم [١٢٩١ ـ ١٣٦٤هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م] وشكيب أرسلان [١٢٨٦ ـ ١٣٦٦هـ / ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦م] وعبد الرزاق السنهورى [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ / ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] ومحمد أبو زهرة [١٣١٦ ـ ١٣٩٤هـ / ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤م] وعلى الخفيف [١٣٠٨ ـ ١٣٩٨هـ / ١٨٩١ ـ ١٩٧٨م] وعبد الوهاب خلاف [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦م] وأمين الخولى [١٣١٣ ١٣٨٥هـ / ١٨٩٥ ـ ١٩٦٦م] وعبد الوهاب عزام [١٣١٢ ـ ١٣٧٩هـ / ١٨٩٤ ـ ١٩٥٩م] ومحمد فريد وجدى [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ / ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] وحسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] ومحمد المدنى [١٣٢٥ ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٠٧ ـ ١٩٦٨م] وعبد الرحمن عزام [١٣١١ ـ ١٣٩٦هـ / ١٨٩٣ ـ ١٩٧٦م] ومحمد البهى [١٣٢٣ ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٠٥ ـ ١٩٨٢م] وأحمد حسن الباقورى [١٣٢٥ ـ ١٤٠٥هـ / ١٩٠٧ ـ ١٩٨٥م] وعباس العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ / ١٨٩٩ ـ ١٩٦٤م] ومحمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ / ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] ومحمد إقبال [١٢٨٩ ـ ١٣٥٧هـ / ١٨٧٣ ـ ١٩٣٨م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] ومحمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] وعلال الفاسى [١٣٢٦ ـ ١٣٩٤هـ / ١٩٠٨ ـ ١٩٧٤م] ومحمد الطاهر بن عاشور [١٢٩٦ ـ ١٣٩٣هـ / ١٨٧٩ ـ ١٩٧٣م] محمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ / ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠م] ومالك بن نبى [١٣٢٣ ـ ١٣٩٣هـ / ١٩٠٥ ـ ١٩٧٣م] . . وغيرهم كثيرون من علماء مدرسة الإحياء والتجديد . .

* * *

وإذا كان لنا أن نشير ـ مجرد إشارات ـ إلى بعض عناوين السمات والقسمات التى مثلت أهم «الأصول الفكرية العشرة» لهذه المدرسة الإحيائية التجديدية . . فإن أول هذه الأصول هو:

١ ـ نقد ورفض الجمود والتقليد

وذلك لما يصنعه الجمود والتقليد من تعطيل لملكات الهداية والتعقل والتجدد ـ التى

أنعم الله، سبحانه وتعالى، بها على الإنسان، تمييزا له ـ كخليفة لله ـ عن سائر المخلوقات ـ وأيضا لما يصنعه هذا الجمود والتقليد من «فراغ فكرى» حرصت وتحرص عليه فكريات التغريب والاستلاب الحضارى، التى جاءت بلادنا فى ركاب الغزوة «الإمبريالية» الغربية الحديثة، كى تملأ هى ـ بدلا من فكر الإسلام المتجدد ـ هذا الفراغ.

لذلك، كان نقد ورفض الجمود والتقليد، أول الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد؛ لأن هذا الأصل هو بمثابة تحطيم القيود التى تحول بين الأمة وبين الانعتاق من المأزق الحضارى الذى تردت فيه، والذى يمثل التخلف الموروث أحد وجهى عملته، بينما يمثل الاستلاب الفكرى والحضارى الغربى الوجه الثانى لعملة هذا المأزق الحضارى.

ولقد كان نقد ورفض مدرسة الإحياء والتجديد للجمود والتقليد عاما ومطلقا، سواء أكان تقليدا للغرب، وجمودا على فكرية التغريب، أو تقليداً لتجارب الأسلاف والتراث الموروث.

ذلك «لأن المقلِّدين لتمدن الأمم الأخرى ـ [كما يقول الأفغانى] ـ ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها.. والتمدن الغربى هو، فى الحقيقة، تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»[1].

فتقليد فكرية الحضارة الغربية الغازية يخلق «عملاء» لا «علماء».. ذلك أن تميز حضارتنا الإسلامية، المؤسس على تميّز شريعتنا الإسلامية، يباعد بين الحضارة الغربية المادية النفعية وبين أن تكون نموذجنا فى الإحياء والتجديد والنهوض. **فمدنية هذه الحضارة الأوروبية ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ: «هى مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها**

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ ـ ١٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل فى شىء من ذلك»[1].

ويقترب من هذا التقليد «للآخر الغربى» تقليد الأسلاف المسلمين، والجمود على الموروث الحضارى الإسلامى، فهو وإن لم يدخل فى «العمالة» للحضارة الغازية، إلا أنه يصنع «الفراغ الفكرى» الذى يتمدد فيه فكر «الأعداء» و«العملاء»!..

ولذلك، كانت «سلفية الجمود على ظواهر النصوص» ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ: «أضيق عطنا، وأحرج صدرا من المقلدين، وهى وإن أنكرت كثيرا من البدع، ونحّت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه؛ فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء»[2].

فالمقلدون لأدبيات الغرب، لا يمكن أن يفيدوا أمتهم بثمرات العلوم الغربية؛ لأنهم قد غفلوا عن ارتباط تلك العلوم والفنون، بملابسات نشأتها وخصوصيات حضارتها، وتميُّزات مواريث مجتمعاتها.. وكذلك الحال مع المقلدين لنصوص أسلافنا، الذين وقفوا عند ظواهر تلك النصوص، غافلين عن المقاصد والمصالح التى جاءت لتتغياها هذه النصوص.

ذلك هو الأصل الفكرى الأول، من الأصول العشرة لفكرية مدرسة الإحياء والتجديد، التى كان الشيخ شلتوت واحدا من أعلام علمائها.

٢ ـ وثانى هذه الأصول، هو التجديد

ذلك أن رفض الجمود والتقليد، إذا كان شاملا لقطبى الغلو فى هذا الجمود والتقليد ـ غلو التغريب، بالتقليد للآخر الحضارى.. وغلو الجمود، بالتقليد للسلف ـ

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٠٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣١٤.

إنما يضع العقل المسلم أمام خيار وحيد، هو الخيار التجديدى، الذى يمثل الوسط العدل المتوازن بين هذين الغلوين.

وهذا التجديد، الذى يجمع بين سلفية العودة للمنابع والأصول الإسلامية، وبين عصرية فقه الواقع المعيش، واستشراف المستقبل، هو-فى النسق الفكرى الإسلامى- أكثر من مجرد «خيار»؛ لأنه «ضرورة إسلامية» اقتضاها ويقتضيها كون الشريعة الإسلامية هى الشريعة «العالمية» و«الخاتمة». إذ بدون التجديد، الذى يحافظ على الثوابت الإسلامية كى لا تحدث قطيعة معرفية مع الأصول والمقاصد تُفْقِدُ الجديد إسلاميته.. والذى يجدد فى الفروع وفقه الواقع، كى تمتد فروع الشريعة فتظلل كل الفضاءات التى يصل إليها الإسلام، وكى تقدم هذه الشريعة الحلول للقرون، والأجيال التى تلت، وتتلو عصر الوحى والتنزيل.. بدون هذا التجديد-الضرورة- لا تتمكن الشريعة الإسلامية من أن تكون «عالمية» حقًا، ولا «خاتمة» حقًا. أى أن التجديد هو السبيل لتحقيق إرادة الله، سبحانه وتعالى، أن تكون شريعة محمد ﷺ، ورسالته هى العالمية، والخاتمة لرسالات السماء.. وأن تظل حجة الله على عباده قائمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذه الحقيقة من حقائق الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد، كانت كل جهود هذه المدرسة معالم على طريق تجديد دين الإسلام، لتتجدد به دنيا المسلمين..

وانطلاقا من الفكر النبوى، الذى جعل التجديد سنة من سنن الله، وقانونا من قوانين الفكر الإسلامى: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»- رواه أبو داود- والذى جعل التجديد عاما فى كل ميادين الفكر والعمل: «**إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان فى قلوبكم**»- **رواه الطبرانى- «جددوا إيمانكم». قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟. قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله»**- رواه الإمام أحمد-..

انطلاقا من هذه التوجيهات النبوية، التى جعلت التجديد سنة وقانونا عاما وشاملاً، أعلنت مدرسة الإحياء والتجديد معالم هذا المنهاج التجديدى، فقال الإمام محمد عبده: «**لقد دعوت إلى:**

* تحرير الفكر من قيد التقليد .

* وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف .

* والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .

* واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشرى .

* وإصلاح أساليب اللغة العربية .

* والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

وقد خالفت فى الدعوة إلى ذلك رأى طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو فى ناحيتهم"[1] .

٣ - وثالث هذه الأصول هو الإصلاح بالإسلام

وليس بالنموذج الحضارى الغربى الوضعى والعلمانى ، الذى اقتحم عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة .

فما دام التجديد كافلا للإسلام تقديم الحلول المواكبة لمستجدات العصر والواقع ، وما دامت هذه الحلول - بسبب إسلاميتها - هى الأقرب إلى فطرة الإنسان المسلم ؛ فإن الإسلام يصبح هو الحل لمختلف مشكلات الحياة . . ولهذا ، قال رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م] - فى معرض التزكية لفقه المعاملات الإسلامى ، والرفض والتحذير من القانون الوضعى الغربى - :

"إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلّت بالحقوق ، وذلك بتوفيقها على الوقت والحالة ، ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية . . إن بحر الشريعة الغراء ، على تفرع مشارعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ؛ لأنها أصل

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٣١٨ .

وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع . . والتكاليف الشرعية والسياسية، التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه . . فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة . . ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدى الحدود»[1].

وعن ذات الأصل ـ الإصلاح بالإسلام . . لا بالتمدن الغربى ـ قال جمال الدين الأفغانى: «إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها . . وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان . . وإنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا، فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة (من حيث الرقى والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط؛ لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التى من شأنها رفع راية السلطة والغلّب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى . .

ولقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من بداية حرب الصليب، والأليق أن يقال: إن ابتداء ضعف المسلمين كان يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس المسلمين . . فكان الخلل والهبوط من طرح أصول الدين، ونبذها ظهريا . . والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته . . ولا سبيل لليأس والقنوط؛ فإن جراثيم الدين متأصلة فى النفوس . . والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نَفَسُها فى جميع الأرواح لأقرب وقت . . فإذا قاموا،

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] جـ ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

وجعلوا أصول دينهم الحقة نُصبَ أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنسانى. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا.. ولن يزيدها إلا نحسا، ولن يكسبها إلا تعسا»(١).

وفى ذات المعنى - الإصلاح بالإسلام - يقول الإمام محمد عبده: «إن البذرة لا تنبت فى أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر. ولقد أشربت أنفس الأمة الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين، فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية، من عهد محمد على [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا - وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم..

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا.. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!»(٢).

٤ - ورابع هذه الأصول هو الوسطية الإسلامية

ذلك أن الجمود والتقليد، إذا كان للغرب، فهو تطرف يرى "الآخر الحضارى" ويعمى عن "الذات الحضارية".. وإذا كان تقليداً لماضينا، فهو تطرف يهاجر إلى التاريخ، ويجهل الحاضر الذى نعيش فيه.. والوسطية الجامعة هى صيغة العدل

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ١٩٩.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ١٠٩، ٢٣١.

والتوازن، التي ميزت الإسلام وشريعته وحضارته، عندما جمعت بين الأصول والفروع، بين الثوابت والمتغيرات، بين المنابع والمصابّ، بين الموروث الصالح والوافد النافع.. ولذلك كانت هذه الوسطية ـ لهذه الأمة الإسلامية ـ "جعلا" إلهيا: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣].. وفسرها الرسول ﷺ، بأنها العدل الذي يجمع ـ بالتوازن ـ عناصر الحق والصواب من الأطراف والمصادر المختلفة، وأحيانا المتضادة، ليؤلف بينها، ويقيم منها سبيلا وموقفا وسطا وجامعا، فقال ﷺ: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» ـ رواه الإمام أحمد ـ...

وعن هذا الأصل من أصول فكر مدرسة الإحياء والتجديد ـ الذي جعل الإسلام فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ يقول الإمام محمد عبده: «**ظهر الإسلام، لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره؛ ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدُّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية**»[1].

٥ ـ وخامس هذه الأصول هو العقلانية المؤمنة

تلك التي تميزت بإعلاء مقام العقل، على حين وقف أهل الجمود والتقليد عند ظواهر النصوص، وتنكروا لنعمة العقل التي ميز الله بها الإنسان على سائر المخلوقات.. كما تميزت هذه العقلانية الإسلامية المؤمنة عن العقلانية اليونانية التي خلت من النقل والوحي والإيمان الديني.. وعن العقلانية الوضعية للنهضة الأوروبية الحديثة، التي جاءت ـ بسبب ثورتها على الكهانة الكنسية ـ نقضا للدين واللاهوت وإنكاراً للغيب والإيمان الديني.. فكانت العقلانية الإسلامية المؤمنة ضرورة دينية للإيمان بالله وصفاته، ولفقه الدين، وحياة ونبوة ورسالة.. ومناطا للتكليف بأوامر الدين ونواهيه، وسبيلا عقليا لإبلاغ دعوته.. وإقامة حجته.. وإزالة الشبهات عن أصوله ومقاصده.. وذلك فضلا عن كونها شكراً لله، سبحانه وتعالى، الذي أنعم

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٢٤٢.

بنعمة العقل على الإنسان.. إذ بدون التمتع بهذه النعمة لا يمكن للإنسان أن يعرف قدرها، كي يشكر الله عليها..

ولذلك، شاعت في أدبيات هذه المدرسة الإحيائية أحاديث إعلاء الإسلام مقام العقل.. «**فالعقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. وهو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات**»(1).

فهذه العقلانية الإسلامية، المؤمنة قد آخت بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، على النحو الذي صوره ـ أجمل تصوير ـ حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ ـ ١١١١م] عندما قال: «**إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر.. وأن من تغلغل في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر؛ فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذ استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور..**»(2).

ولذلك، تميزت العقلانية المؤمنة عن «الجمود النصوصي»، الذي يكتفي بالوقوف عند ظواهر النصوص متنكرا لتعقل مرامي ومقاصد هذه النصوص.. كما تميزت عن العقلانية اللادينية، التي ألّهت العقل، واستغنت به عن الوحي والنصوص، فاكتفت بالنسبي عن المطلق والكلي والمحيط، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب، وبظاهر الحياة الدنيا عما وراء هذا الظاهر، وبآيات الله في كونه المنظور عن آياته في وحيه وكتابه المسطور.. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦) يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٦، ٧]..

---

(١) المصدر السابق. جـ٥ ٤٢٨، جـ٣ ص ٢٩٨، ٣٢٥.

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٣٢. طبعة مكتبة صبيح. القاهرة. بدون تاريخ.

وبهذه العقلانية المؤمنة انتفت الثنائيات المتناقضة، تلك التي سقطت فيها «السلفية النصوصية» و«الوضعية الغربية» جميعًا! فرأينا - في فكر مدرسة الإحياء والتجديد - المعجز الإسلامي - القرآن الكريم - عقلانيا؛ لأن المعجزة هي الخارقة «للعادة».. «والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يُغَشِّي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.. فتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، وبتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - إن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل، والله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبها فراشا للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت بها أمم أخرى أصبحت الآن تَنْعَتُ باسم النور!

والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه، حتى اقتنع به، فمن رُبِّيَ على التسليم بغير عقل، والعمل - ولو صالحا - بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس المقصود من الإيمان أن يُذَلَّل الإنسان للخير كما يُذَلَّل الحيوان؛ بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير؛ لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر؛ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا دونه»(١).

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١، جـ٤ ص ٤١٤.

وإذا ما حدث وحسب الإنسان وجود تعارض بين العقل والنقل؛ فإن ذلك لا يعدو أن يكون تعارضا بين حقيقة النقل وبين توهم العقل ـ وليس صريح العقل ـ أو تعارضا بين العقل وظاهر النقل ـ وليس حقيقة النقل ـ «فلقد اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريقة الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل»[1].

ومع هذا الإعلاء لمقام العقلانية المؤمنة، هناك ـ فى فكر هذه المدرسة الإحيائية ـ الحذر والتحذير من العقلانية اللادينية التى تكتفى بالعقل عن النقل، والتى تستغنى بالنسبى عن المطلق والكلى والمحيط.. «فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة؛ اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن؛ فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال.. فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويُفْقَدُ ما قُصِدَ بوضعها.. وإذا قدّرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كُنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجا إلى معين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة»[2].

٦ ـ وسادس هذه الأصول الفكرية، الوعى بسنن الله الكونية

تلك التى تحكم سائر عوالم المخلوقات، والتى تمثل قواعد علم الاجتماع الدينى، فى التقدم والتخلف، فى النهوض والانحطاط، فى الانتصارات والهزائم، وفى التدافع بين الدعوات والأمم والحضارات..

---

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠١.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٤١٢، ٤٢٦، ٣٧٩، ٣٩٧.

لقد دعت أدبيات هذه المدرسة الإحيائية إلى تأسيس علم السنن والقوانين الإلهية فى الاجتماع الإنسانى، وقال الإمام محمد عبده ـ فى تفسيره قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. "إن إرشاد الله إيَّانا أن له فى خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبيِّنون لها سنن الله فى خلقه، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيّنها العلماء بالتفصيل، عملا بإرشاده. كالتوحيد وأصول الفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة، وقد دلَّنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.. إن لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل، وهى التى تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه؛ فإن غفل عن ذلك غافل، لا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرّر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه.."[1].

وبالوعى بهذه السنن الإلهية فى الكون، والاجتماع الإنسانى، تسقط ثنائية التناقض الموهوم بين الإيمان الدينى والقضاء الإلهى، وبين الأسباب التى أودعها خالق الكون ومسبب الأسباب فى الكون المخلوق، ذلك "أن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ـ [مثل النصرانية] ـ ورد فى كتابه: أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوَّل عن مكانك فيتحوَّل الجبل!. يليق بأهل دين تُعَدُّ الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى! وليس هذا الدين هو دين الإسلام. دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] ـ وأمثالها.

---

(١) المصدر السابق: جـ٥ ص٩٤، ٩٥، جـ٣ ص ٣٨٤.

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية؛ إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله! . . »[1].

٧ـ وسابع هذه الأصول:

أن الدولة فى الإسلام «ـ مدنية ـ إسلامية »... لا كهنوتية.. ولا علمانية

فالإنسان مُسْتَخْلَفٌ لله ـ سبحانه وتعالى ـ لاستعمار الأرض ـ الذى هو جزء من عبادة الله وشكره على تسخيره ما سخر لهذا الإنسان من نعم وطاقات وقوى وملكات. . ولأن الإسلام هو دين الجماعة، الشاملة للفرد، والمؤسسة على الأسرة؛ فإن الأمة ـ وليس الفرد، أو الطبقة ـ هى مركز الخلافة والاستخلاف. . ولأن الله لطيف بعباده، فلقد كان من لطفه بخلقه، وعنايته ورعايته لهم إرساله الرسل، وإنزاله الكتب لتصويب مناهج الجماعات والأمم فى هذه الحياة. . ولذلك، كانت الشريعة الإلهية هى بنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهى للإنسان.

ولأن «الدولة» لم ترد فى أصول الإيمان، ولا فى أركان الإسلام. . . كانت ككل «النظم الحياتية» . . إبداعا مدنيا إنسانيًا، وجزءا من الاجتهادات البشرية المتطورة، تقيمها الجماعة المؤمنة لتحقيق المقاصد الدينية والدنيوية، التى لا تقوم بغير هذه «النظم». . **فالدولة «واجب مدنى» لا تقوم بدونه «الواجبات الدينية»**. ومصدر إقامتها والسلطة والسلطان فيها هو الأمة، بشرط ألا تخرج هذه السلطة ولا هذا السلطان عن الشريعة ـ التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف ـ «فالأمة» مُسْتَخْلَفَةٌ لله، «والدولة» مُسْتَخْلَفَةٌ عن الأمة. . وكلاهما ـ «الأمة» و«الدولة» ـ محكومة سلطتهما بإطار الثوابت الشرعية.

وبهذا التصور تميزت وتتميز الدولة الإسلامية عن دولة الكهانة الكنسية التى دمجت الدولة فى الدين، وغابت عنها الأمة. . وعن الدولة العلمانية التى فصلت بين الدولة والدين، فغابت عنها الشريعة. .

---

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٥٠٢.

وعن هذا الأصل من أصول الفكر في مدرسة الإحياء الديني، يقول الإمام محمد عبده: «ليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم..

أصل من أصول الإسلام ـ وما أجلّه من أصل ـ قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها. هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم.. ولم يدع الإسلام لأحد، بعد الله ورسوله، سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، فليس في الإسلام ما يسمّى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.. والإسلام يحدد أن الأمة، أو نائب الأمة هو الذي ينصب الخليفة، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج «ثيوكراتيك» أي سلطان إلهي..

وكذلك القاضي، والمفتي، وشيخ الإسلام.. لم يجعل الإسلام لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدّرها الشرع الإسلامي، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدّعي حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريقة نظره..

إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهي دعوى القداسة والوساطة عند الله، ودعوى التشريع والقول على الله دون إذن الله، أو السلطة الدنيوية، وهي سلطة الملك والاستبداد.. فالمؤمن لا يرضى لنفسه أن يكون عبداً لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي، وقد أعزه الله بالإيمان، وإنما أئمة الدين مبلغون لما شرعه الله، وأئمة الدنيا منفذون لأحكام الله، وإنما الخضوع الديني لله ولشرعه، لا لشخوصهم وألقابهم.

ومع هذا.. فالإسلام دين وشرع.. لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله.. فكان الإسلام كمالا للشخص،

وألفة فى البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه . . »[1].

وهذه الدولة «الإسلامية ـ المدنية»، يمكن ـ فى ظل التنوع الإسلامى فى الألسنة واللغات ـ أى الأقوام ـ والتعدد فى الأقاليم ـ أى الأوطان ـ أن تحقق وحدة الأمة، ووحدة دار الإسلام، دون أن تكون دولة مركزية واحدة، وذلك إذا تخلّصت أقاليمها وأوطانها وأقطارها من حواجز «الجنسية» ـ التى جاءتنا من الدولة القومية الأوروبية ـ وإذا اجتمعت دولها ـ تحت مظلة الجامعة الإسلامية ـ على جوامع الإسلام. . «فوطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه وعيشه. . يجرى عليه عرفه، وينفذ فيه حكمه. . فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته. . أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم. . وإنما هى عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية. . ولقد جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها. . والاختلاف فى الأصناف البشرية، كالعربى والهندى والرومى والشامى والمصرى والتونسى والمراكشى، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. . هذا ما تقضى به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية فى الإسلام، ولا امتياز بين مسلم ومسلم، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره. . »[2].

ومع تنوع أقاليم وأقطار وقوميات الجامعة الإسلامية، تكون جوامع القرآن ـ من العقيدة والشريعة ـ هى قِبْلَةُ الجميع. فعالم الإسلام «دول متصلة الأراضى، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن. . واتفاقهم هو من أصول دينهم ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠]. وبهذه الوحدة يقيمون سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب. . . لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا؛ فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن،

---

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، جـ٤ ص ٤١٢.
(٢) المصدر السابق. جـ٢ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٨.

ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه. . فهذا، بعد كونه أساسًا لدينهم، تقضى به الضرورة، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات. . »[1].

٨ـ والأصل الثامن من أصول فكر هذه المدرسة الإحيائية، هو الشورى

فالدولة الإسلامية ـ بل وكل ميادين الاجتماع الإسلامى ـ مؤسسة على الشورى، التى يشارك فيها وبها كل إنسان فى العمل العام، وذلك من خلال وبواسطة المؤسسات الشورية والنيابية والدستورية. . «فلا بد من إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين. . والقوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى إلا إذا كانت من نفس الأمة. . وبذلك يشارك الأهالى بالحكم الدستورى الصحيح. . والأمة هى التى تُملّك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى، وتُتَوّجُه على هذا القسم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظا أمينا على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس. . »[2]. . «وقد كان المسلمون فى الصدر الأول على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ وينهاه فيما يرى أنه الصواب. . »[3].

٩ـ وتاسع هذه الأصول الفكرية، هو العدالة الاجتماعية

التى تحقق التكافل الاجتماعى بين الأمة كلها «فالإخاء الذى عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والأنصار كان أشرف عمل تجلّى به قبول اشتراكية الإسلام الوسطية التى أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة. . والمغايرة لاشتراكية الغرب القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام ـ ذلك أن تنعم فريق من قوم وشقاء فريق

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ٢ ص ٢٨، ٢٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.
(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
(٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٥٩.

آخر، فى محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت، مما لا يتم به نظام الاجتماع..»[1].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما أضاف مصطلح «المال» فى القرآن الكريم إلى ضمير «الفرد» فى سبع مرات، وإلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين مرة، أراد أن ينبه بذلك «على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم»[2].

١٠ ـ وعاشر هذه الأصول هو إنصاف المرأة

لتشارك مع الرجل فى القيام بفرائض وتكاليف العمل العام ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ وبدون هذا الإنصاف لا قيام للأسرة، التى هى اللبنة الأولى والأساسية فى بناء الأمة.. «فالأمة تتكون من البيوت (العائلات)، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة.. والرجل والمرأة يتماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما يتماثلان فى الذات والشعور والعقل.. والآية القرآنية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. هى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ـ وهذا الأمر ـ القوامة ـ يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء، ذلك أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس.. يرجع إلى رأيه فى الخلاف كى لا تنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام. والرئاسة هنا إرشاد ومراقبة وملاحظة، وليست قهرا ولا سلبا للإرادة.. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن.. وكلاهما بشر تام، له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسَرُّ به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه فى مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤١٤ ـ ٤١٧.
(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص ١٩٤.

المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام بحقوقه . . أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم ؛ فإنهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم ! . . »[1].

* * *

تلك هى الأصول الفكرية العشرة لمدرسة الإحياء والتجديد . . التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى ، والتى فصل أصولها الفكرية الإمام محمد عبده . .

وهى المدرسة التى تربى على أصولها الفكرية الشيخ محمود شلتوت ، حتى صار علمًا من أعلام علمائها ، وإمامًا أكبر فى السلسلة الذهبية لأئمتها . . وامتداداً متطوراً لإحيائها وتجديدها . . فهى مفتاح الفهم والدراسة لموقف وموقع وإنجاز هذا الإمام العظيم . .

* * *

---

(1) المصدر السابق ، جـ٤ ص ٦٠٦ - ٦١١ .

(٣)

المشروع الفكرى

تجديد الدين الإسلامى.. لتتجدد به دنيا المسلمين

(أ) الاجتهاد والتجديد

كان الشيخ محمود شلتوت رائداً من رواد النهضة الإسلامية، وواعياً بأننا إذا لم نقدم الإسلام نموذجا حضاريا لنهضة الأمة الإسلامية؛ فإن النموذج التغريبى اللادينى، الذى يبشر به الاستعمار والمتغربون من أبناء الشرق، جاهز لملء الفراغ الذى يصنعه الجمود والتقليد.. ولذلك كان جهاده ـ على امتداد ما يقرب من نصف قرن ـ كبيرا من أجل تجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين.. وكثيرا ما تحدث عن الإسلام باعتباره «**دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم**».. وعن رسول الإسلام ﷺ «**الذى لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، والذى لم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم** ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وتحدث عن القرآن الكريم «**الذى ارتفع بالعقل، وسجل أن إهماله فى الدنيا سيكون سببا فى عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به**: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

«وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل، ودين العلم، أنه حذّر من اتباع الظن، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة في ذم التقليد والجمود على ما كان عليه سلفهم، وجرى الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال.. وكأنهم يرون أن السبق الزمني يخلع على خطة السابقين وآرائهم في المعتقدات، وأفهامهم في النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان، فالتزموها وتقيدوا بها، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان، خاصة البحث والنظر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]. «فالجمود عند الموروث، والاكتفاء به مصادم لما تقضي به طبيعة الكون وطبيعة كل حي من النمو والتوليد. والتناسل الفكري كالتناسل النباتي والحيواني والإنساني، كلاهما شأن لا بد منه في الحياة، ولو وقف التناسل الفكري لارتطم الإنسان في حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التي هو منها»، وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية.. فيتحقق فشله في القيام بمهمة الخلافة الأرضية التي اختير لها، ووكلت إليه منذ القدم»..

«وكذلك.. فالجمود على آراء المتقدمين، لمجرد أنهم متقدمون، فيه سلب لمزية الإنسان في التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم.. فيقاد بالزمام، وزمامه صور الآباء والأجداد، فهو دائما تجذبه القهقرى، ولا تجد من نفسه عونا على التقدم، فيقع في ضيق من الحياة المتجددة حوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].. ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون.

فالجمود جناية على الفطرة البشرية، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله..»[1].

ولهذا، دعا الشيخ شلتوت إلى ما أسماه «التجديد الانقلابي» - أي الجذري والعميق - في العقلية الأزهرية خاصة، والعقلية الإسلامية عامة، وذلك حتى تكون

---

(١) [من توجيهات الإسلام] ص ١٤٠ - ١٤٢. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

عصور الازدهار الحضارى، هى المرجعية الفكرية لهذه العقلية - وليس عصور التراجع الحضارى - وحتى تتزامل هذه الفكرية التجديدية مع فقه الواقع المعيش فى التأسيس لفكر إسلامى أصيل وجديد فى ذات الوقت..

ومما قاله عن هذا «التجديد الانقلابى» - لمؤتمر الملحقين الثقافيين - وهو وكيل للأزهر - فى ٨ صفر سنة ١٣٧٨هـ/٢٤ أغسطس سنة ١٩٥٨م -:

«إن هذا الذى نريده للأزهر هو فى واقعه انقلاب، ولكنه انقلاب محبب للنفوس الغيورة على ماضيها، المتطلعة إلى مستقبلها. انقلاب يصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الأصيل يوم كان خالصا فى موقفه من القرآن، وفى تعبيره عن تعاليم القرآن، وهو فى الوقت نفسه يربط العقلية الأزهرية - أو الفكرة الإسلامية السليمة بالحياة الواقعية - التى يعيش فيها العالم اليوم، والتى تتجاذبها تيارات فكرية متعارضة، يجب أن يقف العقل الأزهرى أمامها ليقى الجماعة الإسلامية غزوها، وليحفظها من الانحلال والذوبان فى غيرها»[1].

فالتجديد الفكرى - عند الشيخ شلتوت - هو السبيل لنهوض الأمة الإسلامية.. وطوق نجاتها من الغزو الفكرى الغربى، الذى يمسخ وينسخ هويتها الإسلامية وتميزها الحضارى.. وهو تجديد انقلابى، ينقلب على الجمود والتقليد؛ لكنه لا ينقلب على الأصول، فيقيم قطيعة معرفية مع الأصول، وإنما هو - كما قال الشيخ شلتوت - **«انقلاب يصل العقل المعاصر بالفكر الأصيل.. وأيضا بالحياة الواقعية المعاصرة»**.. إنه تجديد الاستقلال الفكرى للأمة الإسلامية، وليس «الحداثة» التى تكرس التبعية للغرب.. ومن هنا كان حديث الشيخ شلتوت عن هذا التجديد الانقلابى باعتباره **«سبيل أمتنا إلى الزعامة»** والإمامة فى هذه الحياة.. ولقد كتب عن هذا المقصد فقال:

«إن سبيل أمتنا إلى الزعامة: هو مقاومة الفكر الوافد إلينا عن طريق الاستشراق والإلحاد، هذا الفكر الذى من شأنه أن يزعزع القيم الإسلامية فى النفوس، وأن يمزق وحدة المسلمين والعرب عن طريق الغزو العقلى، والاستعمار القلبى. وإن من يتتبع تاريخ الغزو الاقتصادى والسياسى، لايكاد يجده إلا نتيجة وأثرا لهذا الغزو العقلى، الذى يملك على الناس قلوبهم، ويصرفهم عن أنفسهم إلى ما يريد.

---

(١) على عبد العظيم [مشيخة الأزهر] جـ٢ ص ١٩٥. طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ/ سنة ١٩٧٩م.

ولا يظن ظان أننا بهذا نسد على أنفسنا مجال الانتفاع بما قد يكون من نتائج البحث الأجنبى الدقيق فى مظاهر الحياة العامة ووسائلها، فنحن نفسح أمام أنفسنا مجال ذلك، والإسلام يدفعنا إليه.

إن محمد بن عبد الله ـ عليه صلوات الله ـ لم يتَّجه إلى مكافحة الغزو السياسى والاقتصادى فى بيئته؛ إلا بعد أن تمت له مكافحة الغزو العقلى والقلبى فيها، عن طريق محو الشرك والوثنية، وعن طريق الإيمان بالله وحده.

وحينما تمت له مكافحة هذا الغزو القلبى، اتجه بالإيمان نفسه إلى مكافحة الغزو السياسى، حفظا لشخصية الجماعة، وحفظا لمبادئها فى النفوس، واتجه كذلك إلى مكافحة الغزو الاقتصادى عن طريق منع الاستغلال والاحتكار والطغيان المالى، وبذلك كملت لشخصيته عناصر الاستقلال المطلق الكامل:

استقلال العقل..

واستقلال السياسة..

واستقلال الاقتصاد..

وما كان ذلك كله إلا بفهم القرآن، والاتصال بالحياة الواقعية.. وهذه هى قمة المجد وطريق السؤدد..»[1].

* * *

ولقد جاء المشروع الفكرى للشيخ شلتوت تجسيداً للاجتهاد على جبهة هذا التجديد.. هذه الجبهة التى امتدت لتشمل مختلف قضايا الدين والدنيا.. الأمر الذى يجعل الإحاطة بمعالم مواقع هذه الجبهة هنا بإشارات إلى معالم إبداعه التجديدى فى هذه القضايا التى شملت ـ ضمن ما شملت ـ:

١ ـ العقائد الإسلامية.

٢ ـ وعالم الغيب.

٣ ـ والسنة النبوية.

٤ ـ والبدعة والإبداع.

٥ ـ وتكفير من لم يحكم بما أنزل الله.

٦ ـ وعلاقة الدين والدولة.

(١) المرجع السابق. جـ٢ ص ١٩٥.

٧ـ والاستبداد والشورى .

٨ـ والأموال والثروات .

٩ ـ والمعاملات المالية المستحدثة .

١٠ ـ والموقف من الشيوعية والفلسفة المادية .

١١ ـ ونظرية التطور والنشوء والارتقاء .

١٢ ـ وعن المرأة . . وعلاقتها بالرجل .

١٣ ـ والزواج السرى .

١٤ ـ وزواج المتعة .

١٥ ـ والنسل بين التحديد والتنظيم .

١٦ ـ والموقف الإسلامى من الفنون الجميلة .

١٧ ـ والتقريب بين السنة والشيعة .

* * *

(ب) العقائد الإسلامية

• ففى العقائد الإسلامية

دعا الشيخ شلتوت ـ انطلاقا من الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد ـ إلى إثبات العقائد بالنصوص القطعية الدلالة والثبوت . . وكل القرآن قطعى الثبوت . . ومعه فى هذه القطعية الحديث النبوى المتواتر ـ وإن كان نادرا ـ . . وكذلك الرجوع إلى البرهان الذى يملأ القلب فى إثبات هذه العقائد ـ التى هى لب الدين ـ فهى لا تثبت بالإكراه . . ولا بالخوارق الحسية التى تدهش العقول ـ لأن المطلوب فى العقائد هو إعمال العقول ، لا إدهاشها ـ أما أحاديث الآحاد ـ وهى ظنية الثبوت ، ومن ثم ظنية الدلالة ـ فلا تثبت بها العقائد ، وإنما هى مصدر فى الأمور العملية . .

«إن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم ، وذلك فيما كان من آياته قطعى الدلالة (لا يحتمل معنيين فأكثر) . . وأما ما كان غير قطعى فى دلالته ، محتملا لمعنيين فأكثر ، فهذا لا يصح أن يتخذ دليلا على عقيدة يُحكم على منكرها بأنه كافر ، وذلك كالآيات التى استدل بها بعض العلماء على رؤية الله بالأبصار فى الدار الآخرة . . وكل القرآن قطعى الورود .

* * *

والظنية تلحق السنة من جهتى الورود والدلالة . . ومتى لحقت الظنية الحديث ـ ظنية الورود أو ظنية الدلالة ، أو هما معا ـ فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها ، وإنما يثبت الحديث العقيدة وينهض حجة عليها إذا كان قطعيا فى وروده ودلالته ، أى متواترا يبلغ الرواة له حدا من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب ، وأن يتحقق ذلك فى جميع طبقاته : أوله ومنتهاه ووسطه . . وهو عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة .

ونصوص العلماء من المتكلمين والأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين ، فلا تثبت به العقيدة ، وذلك ضرورى ، لا يصح أن ينازع أحد فى شىء منه . . ومن قال إن خبر الواحد يفيد العلم ، فمعناه العلم بمعنى الظن ، أو العلم بوجوب العمل ، وليس العلم بمعنى اليقين الذى تثبت به العقيدة . . ومن الناس من يحدث العلم فى نفسه بما هو أقل من خبر الواحد ، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد ، ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها ؛ فإن الله لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن . . فأحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ، ولا يصح الاعتماد عليها فى شأن المغيبات ، وهذا قول مجمع عليه وثابت بحكم الضرورة العقلية التى لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء . . »[1] .

• وفى عالم الغيب

يجب الإيمان بعالم الغيب ، عقيدة من عقائد الإسلام ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة : ٢ ، ٣] مع الاقتصاد فى أنباء الغيب ـ الذى هو خاصية من خصائص الإسلام ـ والوقوف فى أخبار الغيب عند النصوص القطعية الدلالة والثبوت . . وعند لفظ الوارد ، دون خيالات ، ولا تأويلات . . وصرف وتفسير ما يمكن صرفه وفق السنن الكونية إلى هذه السنن ، بدلا من صرفه إلى الإعجاز . . «وقد تتبع بعض المفسرين غرائب الأخبار التى ليس لها سند صحيح ، وأغدقوا من شرها على الناس ، وعلى القرآن ، وكان جديرا بهم أن يقيموا بينها وبين الناس سدًا يقيهم البلبلة الفكرية فيما يتصل بالغيب الذى استأثر الله بعلمه ، ولم ير فائدة لعباده فى أن يطلعهم على شىء منه .

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٥٧ ـ ٦١ . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ / سنة ١٩٨٠ م .

وإذا كان للناس بطبيعتهم ولع بسماع الغرائب وقراءتها، فما أشد أثرها فى إلهائهم عن التفكير النافع فيما تضمنه القرآن من آيات العقائد والأخلاق وصالح الأعمال.

والذى أحب أن أقرره.. فيما أخبر الله به من شئون الغيب التى لم يتصل بها بيان قاطع عن الرسول ﷺ، من الدابة، والصُّور، ونحوهما، هو: أننا نؤمن به على القدر الذى أخبر الله به دون صرف اللفظ عن معناه، ودون زيادة عما تضمنه الخبر الصادق، فنؤمن مثلا بأنه سيكون فى آخر الدنيا صور ينفخ فيه، فتكون صعقة، ثم ينفخ فيه أخرى، فيكون البعث، أما الخوض فى حقيقته ومقداره وكيفية النفخ فيه، أو حمله على أنه تمثيل لسرعة إفناء العالم وبعثه بسرعة النفخة المعروفة للناس، فإنه رجم بالغيب، وتقوُّل على الله بغير حق.

ونؤمن بأن القرآن - كما أخبر الله - فى لوح محفوظ، أما الخوض فى حقيقته أو تأويله بأنه تمثيل لصونه عن التغيير والتبديل؛ فإنه رجم بالغيب، وتقوّل على الله بغير حق.

نعم، يجب الوقوف فى الإيمان بالغيب عند الحد الذى جاء به الخبر الصادق، ولا ينبغى التصرف فيه بالحمل على التمثيل، أو الزيادة عليه، وضم شىء إليه، فضلا عن استبعاده أو إنكاره، وهذا هو شأن المؤمنين بالله، وبكتابه وغيبه»[1].

• وفى السنة النبوية

والعلم النبوى، يجب التمييز فيه بين السنة التشريعية.. وبين السنة غير التشريعية.. كذلك يجب التمييز فى السنة التشريعية بين ما هو تشريع عام، إذا كان بيانا لمجمل القرآن، أو تخصيصا لعمومه، أو تقييداً لمطلقه، أو فى شئون العبادات.. والحلال والحرام.. والعقائد والأخلاق.. يجب التمييز بين هذا التشريع العام - فى السنة التشريعية - وبين ما فيها من تشريع غير عام، مثل ما جاء فيها من تصرفات الرسول ﷺ، بوصف الإمامة وسياسة الدولة.. وبوصف القضاء فى المنازعات، بناء على البينة واليمين.

(١) [الفتاوى] ص ٥٦ - ٥٨. طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.

أما السنة غير التشريعية . . فمنها سنة العادة . . والحاجات البشرية والاجتماعية . . والخبرات الإنسانية . .

«فينبغى أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبى ﷺ ودُوِّن فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته، على أقسام:

أحدها: ما سبيله سبيل الحاجة البشرية، كالأكل والشرب والنوم والمشى والتزاور، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية، والشفاعة، والمساومة فى البيع والشراء.

ثانيها: ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية، كالذى ورد فى شئون الزراعة والطب، وطول اللباس وقصره.

ثالثها: ما سبيله التدبير الإنسانى أخذا من الظروف الخاصة، كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية، وتنظيم الصفوف فى الموقعة الواحدة، والكمون والكر والفر، واختيار أماكن النزول، وما إلى ذلك مما يعتمد على وحى الظروف والدربة الخاصة.

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعا، يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعا ولا مصدر تشريع.

رابعها: ما كان سبيله التشريع، وهو على أقسام:

أولاً: ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفة أنه رسول، كأن يبين مجملاً فى الكتاب، أو يخصص عاما، أو يقيد مطلقا، أو يبين شأنا فى العبادات، أو الحلال والحرام، أو العقائد والأخلاق، وشأنا متصلا بشىء مما ذكر.

وهذا النوع تشريع عام إلى يوم القيامة؛ فإن كان منهيًا عنه، اجتنبه كل إنسان بنفسه، لا يتوقف فى ذلك على شىء سوى العلم به والوصول إليه.

ثانيًا: ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة، والرياسة العامة لجماعة المسلمين: كبعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال فى جهتها، وجمعها من محالها، وتولية القضاة والولاة، وقسمة الغنائم، وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما هو من شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة.

وحكم هذا أنه ليس تشريعا عاما، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئا منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبي ﷺ فعله أو طلبه.

ثالثًا: ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء، فإنه كما كان رسولا يبلغ الأحكام عن ربه، ورئيسا عاما للمسلمين ينظم شئونهم ويدبر سياستهم، كان عليه الصلاة والسلام مع ذلك قاضيا، يفصل فى الدعاوى بالبينات، أو الأيمان أو النكول.

وحكم هذا كسابقه، ليس تشريعا عاما، حتى يجوز لأى إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به، وفصله فيه بحكم معين، بين من حكم بينهم؛ بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم؛ لأن الرسول تصرف بوصف القضاء، ومن هذه الجهة لا يلزم المكلف إلا بقضاء مثله، فمن كان له حق على آخر، ويجحده، وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم؛ لأن هذا هو الذى كان شأن أخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ.

هذا ومن المفيد جداً معرفة الجهة التى صدر عنها التصرف، وكثيراً ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ ولاينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقره، ومن هنا نجد أن كثيراً مما ينقل عنه ﷺ صُوِّر بأنه شرع أو دين، وسنة أو مندوب، وهو لم يكن فى الحقيقة صادراً على وجه التشريع أصلا.. وقد كثر ذلك فى أفعاله الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية، أو بصفة العادة والتجارب.

ونجد أيضًا أن ما صدر على وجه الإمامة أو القضاء، قد يؤخذ على أنه تشريع عام، ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات»[1].

• وفى البدعة.. والإبداع

يجب التمييز بين البدعة المحرمة، وهى ما كانت فى العقائد.. والعبادات.. والحلال والحرام.. وبين الإبداع فى شئون الدنيا، فهو مطلوب.. ذلك «أن الابتداع فى الدين: إنما يكون فيما تعبدنا الله به من عقيدة أو عبادة أو حلٍّ وحرمة.. فالابتداع

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٤٩٩ ـ ٥٠١.

فى الدين: هو الابتداع الذى يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية، وهو الابتداع الذى يغتصب به المبتدع حق الله فى تشريع هو له وحده.. هو الابتداع الذى به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد - التى رسمها الله ليتقرب بها عباده إليه - ناقصة أو فاسدة، فأكملها أو أصلحها بابتداعه، أو موضع من يرى أن الرسول ﷺ الذى اصطفاه الله لتبليغ دينه - قد قصر فيما أمر بتبليغه، وحجز عن عباد الله ما يقربهم إليه.

أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه - وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقا لمصلحتنا ومحققا لخيرنا بحسب العصور والبيئات - فإن التصرف فيه بالتنظيم أو التغيير لا يكون من الابتداع الذى يؤثر على تدين الإنسان وعلاقته بربه؛ بل إن الابتداع فيه من مقتضيات التطور الزمنى الذى لا يسمح بالوقوف عند حد الموروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد»[1].

• وفى تكفير من لم يحكم بما أنزل الله

الذى يستدل عليه البعض بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].. رأى الشيخ شلتوت: أن القاضى المضطر إلى الحكم بغير ما أنزل الله، هو عاص، وليس كافرا.. وأن الحاكم المشرع بغير ما أنزل الله، إذا كان جاحدا لما أنزل الله، فهو كافر.. أما إذا كان مضطرا أو متأولا، فهو عاص، وليس بكافر.. وكل ذلك فى الأحكام الشرعية القطعية التى لا تأويل لها ولا اجتهاد فيها؛ إذ «الحكم الإسلامى نوعان»:

١ - حكم لم يرد به قرآن ولا سنة، أو ورد به أحدهما ولكن لم يكن الوارد به قطعيا فيه، بل محتملا له ولغيره، وكان بذلك محلا لاجتهاد الفقهاء والمشرعين، فاجتهدوا فيه، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره - وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادى -.. والحكم فى هذا النوع الاجتهادى لو جاء بما يخالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية؛ فإن الإسلام لا يمنعه ولا يمقته، فضلا عن أن يراه ردة يخرج

(١) [الفتاوى] ص ١٧٨ - ١٨٧.

القاضى به عن الإسلام؛ ذلك أن الإسلام ليس له فى هذا النوع حكم معين، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبنى على تحرى المصلحة والعدل، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه.

٢ ـ وحكم هو القطعى المنصوص عليه فى كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة، التى لم يظهر فيها خصوصية الوقت أو الحال.. والحكم بغيره، إن كان مبنيا على اعتقاد أن غيره أفضل منه، وأنه هو لا يحقق العدل ولا المصلحة، ، ردة يخرج بها القاضى عن الإسلام.

أما إذا كان القاضى الذى حكم بغيره مؤمنا بحكم الله، وأنه هو العدل والمصلحة دون سواه، ولكنه فى بلد غير إسلامى، أو بلد إسلامى مغلوب على أمره فى الحكم والتشريع، واضطر أن يحكم بغير حكم الله لمعنى آخر وراء الجحود والإنكار؛ فإن الحكم فى تلك الحالة لا يكون كفرا، وإنما يكون معصية، وهو نظير من يتناول الخمر وهو يعتقد حرمتها.

فيجب على القاضى المسلم أن يرد نفسه عن الحكم متى استطاع إلى ذلك سبيلا، وإذا لم يستطع أن يرد نفسه ـ خوفا من ضرر فادح يلحقه أو يلحق جماعته ـ فإن الإسلام يبيح له ذلك، ارتكابًا لأخف الضررين، ما دام قلبه مطمئنا إلى حكم الله.

والآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. قد جاءت فى قوم يملكون أنفسهم وتشريعهم، ويعرفون حكم الله ويرفضونه مؤثرين عليه حكم الهوى والشهوة.. ويشهد لذلك مجيئها فى سياق قول الله سبحانه: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].. ومن هنا يتبين أنها ليست فى حق كل من حكم حكما غير إسلامى فى قضية ما..»[١].

* * *

(١) المصدر السابق. ص ٤٣ ـ ٤٦.

(ج) الدين والدولة.. والنظام السياسى

• وفى علاقة الدين بالدولة

ربط الإسلام الدين بالدولة، والدولة بالدين.. فلا يتصور قيام الإسلام بلا دولة.. والإسلام هو أساس سياسة الدولة.. ومع هذا، فالسلطة الدينية مرفوضة إسلامياً، فى التفسير والفهم للنص الدينى.. وفى سلطات الخليفة والإمام.. وفى أحكام القاضى.. وفى فتاوى المفتين..

ومبادئ الإسلام فى الحكم هى:

١ـ السيادة: لله وحده؛ لأنه الخالق المالك. وهى فى كل شعب للشعب نفسه بعد الله الذى استخلفه فى وطنه.

٢ـ الحكم: لله، وهو حقه وحق الشعب يباشره نيابة عن الله.

٣ـ الحاكم: وكيل للأمة، وليس له عليها سيادة، بل هى سيدته، وهو خادمها الأمين.

٤ـ الشورى: أساس الحكم، وكل حكم لا يقوم على الشورى لا يكون شرعياً.

٥ـ التضامن الجماعى: الأفراد جميعا يتضامنون فى المسئولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة.

٦ـ الرقابة الشعبية: حق للأمة أن تراقب حكامها، وتحاسبهم، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحها، وتشرف على التنفيذ، وتُعد له حسب مصلحتها.

٧ـ عزل الخليفة: للأمة إذا جار وظلم وظهر غشمه، ولم يرعو لناصح أو زاجر، فإن رفض العزل، عزلته بالقوة، ولو أدى ذلك إلى نصب الحرب وشهر السلاح فى وجهه إذا رأت الأمة ذلك فى مصالحها.

٨ـ أهل الحل والعقد: هم أهل العلم والرأى والخبرة فى كل نواحى النشاط الحيوى بالأمة، وهم لسانها المعبر عن رضاها وسخطها، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة، وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضاً واختيار، دون ضغط أو قهر، ومن حق كل مسلم أن يكون له رأى فى اختيار الخليفة، وأن يُمكَّن من إعلان رأيه

بحرية تامة، دون أن يضار بسبب رأيه ولو خالف الأغلبية، وعليه مع هذا أن يلزم الجماعة.

٩ ـ هدف الحكم: سعادة المحكومين، وتحقيق السلام في الداخل، والعزة في الخارج، ونشر السلام»[١].

«.. والإسلام لا يخص أحدا بحق الاستثناء بتفسير النصوص، ولا بحق إلزام الناس برأيه، بل يمنح هذا الحق لكل مسلم حائز لأهلية البحث.. والخليفة أو الإمام ليس معصوما من الخطأ، ولا هو مهبط الوحي، ولا أثرة له بالنظر والفهم، وليس له سوى النصح والإرشاد، وإقامة الحدود والأحكام في دائرة ما رسم الله، وهو نائب في وظيفته عن الأمة، تُوليه وتُبقيه، وتُطيعه ما دام قائمًا بمهمته، وقائما على حدود الله، وتعزله إذا انحرف عن الحدود، واقتحم حدود الله.

وكما أن هذا وضع الخليفة، فهو وضع القاضي والمفتي، وشيخ الإسلام و«الملا». فوظيفة القاضي لا تعدو الفصل في الخصومات.. ووظيفة المفتي لا تعدو بيان المسائل التي يُسْأل عنها.. وفتواه ليست ملزمة لمن يستفتيه، وللمستفتي مطالبته بالدليل، وله أن يستفتي غيره ممن يطمئن إلى علمه.

أما شيخ الإسلام، والملا، فإن المسلمين لا يعرفونهما إلا لقبين علميين شاع في بعض العصور والأقطار إطلاقهما على من عُرفُوا في بيئاتهم بامتياز خاص في علوم الدين والشريعة، ولا يرتبط بهما حق تحليل أو تحريم في الشريعة، وليس لهما من حق في العصمة من الخطأ؛ بل لا يعرفهما الإسلام»[٢].

• والاستبداد والشورى

الاستبداد عدو الإنسانية.. والشورى: فريضة إسلامية.. وصفة من صفات الأمة المؤمنة... وهي حق لجمهور الأمة، تأثم جميعها بتركه.. وهي عامة في كل ميادين الحياة.. وملزمة... وليست مجرد «محمدة اختيارية»، كما يذهب إلى ذلك صنائع الملوك المستبدين.

(١) [من توجيهات الإسلام] ص ٥٦٠ ـ ٥٦٩. طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.
(٢) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٥٤٧، ٥٤٨.

«.. وبتقرير القرآن مبدأ الشورى، قضى الإسلام على عدو الإنسانية الفاضلة ومفسدها، وهو: الاستبداد بالحكم والرأى، واحتكار التشريع والتصريف والإدارة. وحقق للفرد كرامته الفكرية، وللجماعة حقها الطبيعى فى تدبير شئونها.. والقرآن لا يريد من «الشورى» حين يضعها بين عنصرى الصلاة، والإنفاق فى سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] لا يريد هذه الصورة الهزلية التى ألفناها فى الماضى، وتواضع أرباب البغى والاحتكار عليها، واتخاذها ستارا يخفون به طغيانهم النفسى فى إرادة سلب الحقوق، وإنما يريدها حقيقة نقية فى واقعها، كما يريد من الصلاة والإنفاق، حقيقتهما المحققة لأثرهما، الخالصة مما يكدر صفوهما.

والإسلام لا يمكن أن يهمل من أصول الحكم، ذلك المبدأ الطبيعى فى الحياة، وهو «الشورى» كما لا يمكن أن يريده حين يضعه «محمدة اختيارية» يقصد بها مجرد تأليف القلوب، وتطييب النفوس، دون العمل به، كما يذهب إلى ذلك صنائع الملوك المستبدين، ولا أن يريده «صورة مفتعلة» يبرر بها أرباب الطغيان طغيانهم، وإنما يريده أمرا ثابتا مقررا، مأمورا به، هو حق للأمة تأخذه بالقوة، وواجب عليها، تأثم جميعها بتركه، وحقيقة لها أثرها العملى فى الحكم وسياسة الجماعة.

إذن، فالشورى التى تنسج خيوطها بكثرة العدد، أو عن طريق الإغراء، والإرهاب لا قيمة لها عند الله، والشورى التى تجعل من الفرد المفسد، أو الذى لا يعقل حاكما بأمره فى الأمة، لا قيمة لها عند الله، والشورى التى لا يجد المخلصون فى جوها متنفسا يكشفون فيه عن عبث العابثين، وفساد المفسدين، لا قيمة لها عند الله، والشورى التى يلبس المنافقون فى جوها مسوح الصدق والإخلاص، ويكتمون عن الحاكم المخلص بذور الشر والفساد، لا قيمة لها عند الله»[1].

وجدير بالملاحظة أن شلتوت قد كتب هذا، وأذاعه فى ظل نظام مخاصم للشورى وللديمقراطية!..

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٤١، ٤٤٢.

(د) الاقتصاد والمعاملات المالية

● وفى الأموال والثروات

الملكية الحقيقية - ملكية الرقبة - فى الأموال والثروات لله سبحانه وتعالى.. والناس - والأمة - مستخلفون فيها، لهم فيها ملكية مجازية واجتماعية، محكومة بالشريعة - التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف -.. والاستخلاف فى الأموال والثروات، فلسفة مالية إسلامية متميزة بين الفلسفات المالية والاجتماعية، تمثل الوسطية بين الطغيان المالى للرأسمالية، وبين التفريط الشيوعى - بإلغاء الملكية ومصادمة الحوافز الفطرية -.. ولذلك بلغت هذه الفلسفة الإسلامية فى الأموال والثروات على طريق العدل الاجتماعى ما لم يبلغه دعاة الاشتراكية الغربية.

«ففائدة المال يجب أن تعم المجتمع كله، لتقضى به حاجته.. ولقد أضاف الله - سبحانه وتعالى - المال تارة إلى نفسه - تنويها بشأنه - وجعل المالكين له مستخلفين فى حفظه وتنميته، وإنفاقه بما رسم لهم فى ذلك: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].. وأضافه أخرى إلى الجماعة، وجعله كله بتلك الإضافة ملكا لها ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].. وأرشد بذلك إلى أن الاعتداء عليها، أو التصرف السيئ فيها، هو اعتداء أو تصرف سيئ واقع على الجميع.

وإذا كان المال مال الله، وكان الناس جميعا عباد الله، وكانت الحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله، هى لله، كان من الضرورى أن يكون المال - وإن ربط باسم شخص معين - لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع، وينتفع به الجميع، وقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومهما رفع دعاة الاشتراكية رءوسهم ونادوا بها فيما بين الناس، فإنك لست واجدا فى تعبيرهم ولا فى واقع حياتهم ما يقرب من تلك الاشتراكية النابعة من ضمير الإيمان، والتى يجعلها الإسلام دينا تقرن - فى الدعوة إليه - بالصلاة وشهادة التوحيد،

والتى يكون بها كل المال ملكا للأمة، تحفظه اليد المستخلفة فيه وتنميه، ثم تنتفع به كلها.. فهو منها كلها، وهو إليها كلها، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة، كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية، ولا خادم منها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هى «شخصية المجتمع»، الذى لا قوام له ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه.

ولعل بهذا يظهر معنى «الوسطية» التى حل بها الإسلام المشكلة المالية، تلكم المشكلة التى ظل بها العالم، فى أمسه وحاضره، يتردد بين طرفى الإفراط، بالطغيان المالى، والتفريط بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أواصر الرحم الإنسانى، وسخّر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة، وأفلست دعاوى المدعين، الذين يخدمون أنفسهم فى واقع الأمر، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الإنسانى، وما ربك بغافل عما يفعلون»[(١)].

• وفى المعاملات المالية المستحدثة

تلك التى لم تعرفها العصور الإسلامية السابقة، ومن ثم لم تعرض لها اجتهادات الفقهاء الأقدمين.. والتى تحتاج إلى نظر جديد وفقه جديد، يبدأ بفقه «الواقع الجديد»، ثم يبحث لهذا الواقع الجديد عن الحكم الذى لا يخالف روح الشريعة، وقواعد الفقه ونظرياته.. ومن هذه المعاملات المستجدة:

١ ـ الشركات المساهمة:

المحدد ربح الأسهم فيها.. وهى حلال.. لأنها معاملة مستجدة، وليست من المضاربة، حتى يشترط فيها عدم تحديد نسبة الربح «إنها نوع جديد من الشركة أحدثه أهل التفكير فى طريق الاقتصاد والاستثمار، ولم يكن معروفا للفقهاء من قبل.

وإذا كانت هذه الشركات إنما تنشأ للبقاء والاستمرار، ورأى مؤسسوها لذلك أن توزع أرباحها بنسب للأسهم ثابتة على مرتبات العمال، وعلى دعم رأس المال وجهات الخير وأرباب الأسهم، كان كل ذلك خيرا لا ظلم فيه لأحد ولا استغلال فيه لحاجة

---

(١) المصدر السابق. ٢٥٦، ٢٥٧، ٩٥.

أحد، بل كله نفع وفائدة . . ولا بد أن تكون هذه الشركات قد ضمَّنت قانونها الأساسى فرض الاحتمالات من جهة عجز الإنتاج عن قيامها بتلك الجهات، وجهة الخسارة التى قد تلحق رأس المال، ووضعت لها أحكاما خاصة يعرفها المساهمون ويطمئنون إليها دون أن تنقطع الشركة بينهم .

ومن هذا يتبين أن هذه الشركات ليست ربوية تستغل حاجة المحتاجين، وليست من مضاربة الفقهاء، حتى تكون فاسدة بتحديد الربح، على فرض تسليم شروطهم فى المضاربة»[1] .

٢ ـ والأسهم :

داخلة فى المضاربة، ولذلك يخضع عائدها للربح والخسارة .

٣ ـ والسندات :

هى قرض بفائدة محددة . . فهى ربا . . ولا تجوز إلا للضرورة الواضحة .

«والفرق بين الأسهم والسندات، أن الأسهم من الشركات التى أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهى التى تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها . وأما السندات، وهى القرض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسارة؛ فإن الإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت الضرورة الواضحة، التى تفوق أضرار السندات التى يعرفها الناس ويقررها الاقتصاديون .

ولو أن الأمم الإسلامية تكاتفت على وضع أساس اقتصادى يحقق مصالحها، ويقيها شر التحكم الأجنبى، لوجدوا من مبادئ الإسلام الاقتصادية ما يجعلهم فى مقدمة الأمم اقتصادا وقوة وحضارة»[2] .

٤ ـ وصندوق التوفير :

معاملة جديدة . . ربحها المحدد حلال . . وهى ليست مضاربة، حتى يحرم تحديد ربحها . . وليست قرضا حتى تحرم المنفعة التى تجرها . . «فالربح الذى تدفعه مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة فى صندوق التوفير . . حلال لا حرمة فيه . . ذلك أن

---

(١) [الفتاوى] ص ٣٤٩، ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٥٥ .

المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما تقدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعا مختارا، ملتمسا قبول المصلحة إياه. وهو يعرف أن المصلحة تستغل الأموال المودعة لديها فى مواد تجارية ويندر فيها - إن لم يعدم - الكساد والخسران.

وقد قصد بهذا الإيداع أولا: حفظ ماله من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد.

وقصد ثانيا: إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها، ليتسع نطاق معاملاتها، وتكثر أرباحها فينتفع العمال والموظفون، وتنتفع الحكومة بفاضل الأرباح.

ولا شك أن هذين الأمرين - تعويد النفس على الاقتصاد، ومساعدة المصلحة الحكومية - غرضان شريفان كلاهما خير وبركة، ويستحق صاحبهما التشجيع؛ فإذا ما عينت المصلحة لهذا التشجيع قدرا من أرباحها منسوبا إلى المال المودع - أى نسبة تريد - وتقدمت به إلى صاحب المال، كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاونى عام، يشمل خيرها صاحب المال والعمال والحكومة، وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلم أحد، أو استغلال لحاجة أحد، ولا يتوقف حل هذه المعاملة على أن تندمج فى نوع من أنواع الشركات التى عرفها الفقهاء وتحدثوا عنها وعن أحكامها.. فهذه المعاملة، بكيفيتها وبظروفها كلها وبضمان أرباحها، لم تكن معروفة لفقهائنا الأولين وقت أن بحثوا الشركة ونوعوها. واشترطوا فيها ما اشترطوا.

وليس من ريب أن التقدم البشرى أحدث فى الاقتصاديات أنواعا من العقود والاتفاقات المركزة على أسس صحيحة لم تكن معروفة من قبل، وما دام الميزان الشرعى: فى حل التعامل وحرمته قائما في كتاب الله: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ [البقرة: ٢٢٠].. ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [البقرة: ٢٧٩]. فما علينا أن نحكّمه، ونسير على مقتضاه.

ومن هنا يتبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حراما، على فرض صحة النهى عنه، وإنما هو كما قلنا تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع»[1].

---

(١) المصدر السابق. ص ٣٥١، ٣٥٢.

٥ ـ والاقتراض بفائدة:

ربًا، محرّم.. لا يجوز إلا فى حالة الضرورة، التى تقدر بقدرها، من حيث مصدر القرض، وحجم الفائدة، وآثار الاقتراض على الاستقلال الوطنى»[١].

٦ ـ والاستقلال الاقتصادى:

للأمة: فريضة اجتماعية.. وهو شرط لاستقلالها السياسى والإدارى، وأساس لعزتها وحريتها «ولقد قرر علماء الإسلام أن كل ما لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية. قالوا: ومن ذلك أصول الصناعات، مما هو ضرورى، أو كالضرورى.. ويسر الحياة.. ودفع الحرج عن الناس.. فإذا لم يتحقق ذلك فى الأمة كلها، أثمت الأمة كلها..

وليس من ريب فى أن أساس هذه الفرضية، هو العمل على تحقيق المبدأ الإسلامى الذى يوجبه الإسلام على أهله، وهو مبدأ استقلال الجماعة الإسلامية فى تحقيق ما تحتاج إليه من الضروريات والحاجات، فيما بينها، وبيد أبنائها، دون أن تمد يدها إلى غيرها من الأمم؛ وبذلك لا تجد الأمم الأخرى ـ ذات الصناعات والتجارات ـ سبيلا إلى التدخل فى شئونها، فتظل محتفظة بكيانها وعزتها ونظمها وتقاليدها، وخيرات بلادها. وكثيرا ما اتخذ هذا التدخل سبيلا لاشتراك الدول الأجنبية فى إدارة البلاد وتنظيمها واستعمارها، استغلالا لحاجتها فى الصناعات والتجارات.

وإذا كان من قضايا العقل والدين، أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكانت الحياة متوقفة على هذه العمد الثلاثة: الزراعة والتجارة والصناعة، كانت هذه العمد الثلاثة واجبة، وكان تنسيقها على الوجه الذى يحقق خيرها واجبا»[٢].

* * *

---

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق. ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(هـ) الغزو الفكرى
الشيوعية ـ والداروينية

• الموقف من الشيوعية والفلسفة المادية

كفر وإلحاد، بسبب فلسفتها المادية . . وليس بسبب نظريتها الاقتصادية . . وهى عدوة للإسلام ولسائر الأديان . . والإسلام عدو لها عداوة لا هوادة فيها «فلو كانت الشيوعية مذهبا اقتصاديا، لا يمس الإيمان ولا يهتك حرمته، ولا يفتن الناس فى تدينهم بأصول التعاليم الإلهية، لأمكن ألا نقول بعداوتها للإسلام، ولا بعداوة الإسلام لها.

أما واقعها، كما ينقل عن مخترعيها، ويُقرأ فى كتبها، أنها لا تؤمن إلا بالمادة، وأنها تنكر الألوهية والوحى والبعث، وأنها تقتحم فى سبيل مادتها كل ما قدسه القرآن، وقدسته الشرائع السماوية من حرمات العقيدة والعبادة، والمال والعمل، والروابط الجنسية الشرعية، وما إلى ذلك من أسس الإسلام؛ فإنها بلا شك تكون عدوة للإسلام، وعدوة لسائر الأديان السماوية، ويكون الإسلام وسائر الأديان السماوية عدوا لها عداوة لاهوادة فيها»[1].

• وفى نظرية التطور.. والنشوء.. والارتقاء

هذه النظرية مخالفة للإسلام . . ليس بسبب القول بالتطور، وإنما بسبب زعمها تطور الإنسان عن نوع آخر . . وهو زعم يرجم بالغيب، ويخالف حديث القرآن عن خلق الإنسان «فهذه النظرية التى تقول بتطور الإنسان عن نوع آخر من الحيوانات، بطريق النشوء والارتقاء، نظرية لم يرفضها رجال الدين تزمتا أو تعسفا، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة، وعلى أساس مما قرره الدين فى رفض ما لم يدل عليه برهان، أو يشهد بصحته حس أو تجربة.

ولقد جاء صريحا فى القرآن الكريم الحديث عن خلق الإنسان، تحدث عن خلق

---

(١) [الفتاوى] ص ٣٩٩.

الإنسان الأول، وم كان، وتحدث عن خلق أبنائه، وم كانوا وكيف كانوا. ففى خلق الإنسان الأول يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ [الحجر: ٢٦]. ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] وفى خلق أبنائه يقول: ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣].. ويقول: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].. وفى تطور خلق الأبناء من هذا الماء يقول: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم﴾ [الحج: ٥].

فهذا ونحوه خبر الله الصادق، الذى قامت على صدقه المعجزات، يحدث بأن الإنسان خلق نوعا مستقلا، وليس متطورا عن نوع آخر من أنواع الحيوانات، أيا كان ذلك النوع، وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان فى بعض الخصائص، وبعض الأوضاع الجسمية..

والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس، ولا محل فيها للتجربة، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها.. ومثل هذه المسألة من المسائل التى ينحصر مصدر العلم بها فى خصوص الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات الواصل إلى الناس من عالم الغيب، ومكون الأنواع والمخلوقات. وقد نفى القرآن أن يكون مبدأ الخلق عامة مما يعلمه الإنسان بنفسه، وما منح من قوى الإدراك، قال تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ [الكهف: ٥١].. فهذا هو السند القوى الذى يعتمد عليه رجال الدين فى رفض نظرية التطور الفردى، ولم يكن رفضهم إياها مجرد تزمت..»[1].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤.

(و) المرأة.. والأسرة

• وعن المرأة.. وعلاقتها بالرجل

مساواة المرأة للرجل، مع توزيع العمل بينهما وفق فطرة تمايز الذكورة عن الأنوثة، وتمايز الأنوثة عن الذكورة.. هو حكم الإسلام.. «فلقد رفع القرآن الكريم من شأن المرأة إلى درجة لم تكن تحلم بها من قبل، ولم تصل إليها من بعد فى غير جو الإسلام.. جعل لها حقا فى المال كالرجل، ومنحها حق التصرف فيه دون رقابة عليها أو ولاية، وجعل إذنها شرطا فى صحة زواجها، وجعل لها من حقوق الزوجية مثل ما عليها، وجعلها ذات مسئولية مستقلة فى العبادات والمدنيات والجنائيات، وفى الثواب والعقاب عند الله: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ [النساء: ١٢٤].. ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١٠) وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾ [التحريم: ١٠، ١١].. فالمرأة فى وضع القرآن، لا يؤثر عليها ـ وهى صالحة ـ فساد الرجل وطغيانه، ولا ينفعها ـ وهى طالحة ـ صلاح الرجل وتقواه، فهى ذات مسئولية أمام الله، وفى أحكام الله»[1].

وليس صحيحا أن الإسلام ينتقص من أهلية المرأة فى الميراث، وفى الشهادة «فوضع الرجل والمرأة فى الميراث لا علاقة له بالإنسانية التى يشتركان فيها على حدٍّ سواء.. وكذلك الشهادة، فقول الله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ليس واردا فى مقام الشهادة التى يقضى بها القاضى ويحكم، وإنما هو وارد فى مقام الإرشاد إلى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ [البقرة: ٢٨١]. إلى أن قال: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من

---

(١) [من توجيهات الإسلام] ص ٢٢٨.

الشُّهداء أن تضل إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ [البقرة: ٢٨١]. فالمقام مقام استيثاق على الحقوق، لا مقام قضاء بها.. والآية ترشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضى، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو «البينة». وقد حقق العلامة ابن القيم: أن البينة فى الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم، ومن ذلك يحكم القاضى بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها، واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذى يتبع نقص إنسانيتها، ويكون أثرا له، وإنما هو: أن المرأة ـ كما قال الشيخ عبده ـ «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها».

«والآية جاءت على ما كان مألوفا فى شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات، ولا يشتغلن بأسواق المبايعات، واشتغال بعضهنّ بذلك لا ينافى هذا الأصل الذى تقضى به طبيعتها فى الحياة. وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون فى بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها، وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه.

هذا وقد نصّ الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها، وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء فى القضايا الباطنية. وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده، وهى القضايا التى تثير موضوعاتها عاطفة المرأة، ولا تقوى على تحملها، على أنهم قد رأوا قبول شهادتها فى الدماء إذا تعينت طريقا لثبوت الحق واطمئنان القاضى إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معا.

وما لنا نذهب بعيدا، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل ـ سواء بسواء ـ فى شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقوله شهود: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

أربع شهادات من الرجل يعقبها استمطار لعنة الله عليه، إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويبطل عملها أربع شهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها، إن كان من الصادقين.. فهذه عدالة الإسلام فى توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة، وهى عدالة تحقق أنهما فى الإنسانية سواء».

«لقد قرر الإسلام الفطرة التى خلقت عليها المرأة.. فطرة الإنسانية ذات العقل والإدراك والفهم.. فهى ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن جماعتها.. وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية أخيها الرجل، وإن منزلتها فى المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة، وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة، ومعصيته لا تضرها وهى صالحة مستقيمة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهى ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾، ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل، وكيف حد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة. وليس فى الإمكان ما يُؤدِّى به معنى المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التى تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة، والتى تتجلى فى حياتهما المشتركة، دون تفاضل وسلطان: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

وإذا كانت المرأة مسئولة، مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها، فهى فى نظر الإسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير، والأمر

بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل. وقد صرح القرآن بمسئوليتها فى ذلك الجانب، وقرن بينها وبين أخيها الرجل فى تلك المسئولية؛ كما قرن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللمسلمين ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٧١].. ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (٦٧) وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ [التوبة: ٦٧ـ٦٨].

فليس من الإسلام أن تُلقى المرأة حظها من تلك المسئولية ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى أكبر مسئولية فى نظر الإسلام ـ على الرجل وحده، بحجة أنه أقدر منها عليها، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، فللرجل دائرته، وللمرأة دائرتها، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما؛ فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما؛ انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم.

والإسلام ـ [فوق ذلك] ـ لم يقف بالمرأة عند حد اشتراكها مع أخيها الرجل فى المسئوليات ـ جميعها، خاصها، وعامها ـ بل رفع من شأنها، وقرر ـ تلقاء تحملها هذه المسئوليات ـ احترام رأيها فيما تبدو وجاهته، شأنه فى رأى الرجل تماما سواء بسواء. وإذا كان الإسلام جاء باختيار آراء بعض الرجال، فقد جاء أيضًا باختيار رأى بعض النساء.

وفى سورة المجادلة، احترم الإسلام رأى المرأة، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول ﷺ، وجمعها وإياه فى خطاب واحد ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ [المجادلة: ١].. وقرر رأيها، وجعله تشريعا عاما خالدا.. فكانت سورة المجادلة أثرا من آثار الفكر النسائى، وصفحة إلهية خالدة تلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأى المرأة، فالإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة، ينعم الرجل بشم رائحتها؛ وإنما هى مخلوق عاقل مفكر، له رأى، وللرأى قيمته ووزنه.

وليس هناك فارق دينى بين المرأة والرجل فى التكليف وأهليته، سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل، وذلك لوصولها - بطبيعتها - إلى مناط التكليف، وهو البلوغ، قبل أن يصل إليه الرجل»[1].

• **وفى الزواج السرى**

وهو حرام إذا لم يشهد عليه شهود.. وحرام كذلك إذا شهد عليه شهود طُلب منهم الكتمان «فالزواج السرى هو نوع قديم من الزواج افترضه الفقهاء، وبينوا معناه، وتكلّموا فى حكمه، وقد أجمعوا على أن منه العقد الذى يتولاه الطرفان دون أن يحضره شهود، ودون أن يعلن، ودون أن يكتب فى وثيقة رسمية، ويعيش الزوجان فى ظله مكتوما، لا يعرفه أحد من الناس سواهما، وأجمعوا على أنه باطل؛ لفقده شرط الصحة، وهو الشهادة؛ فإذا حضر شهود وأطلقت حريتهم فى الإخبار به لم يكن سرّا، وكان صحيحا شرعا، تترتب عليه أحكامه. أما إذا حضره شهود وأخذ عليهم العهد بالكتمان، وعدم إشاعته والإخبار به، فقد اختلف الفقهاء فى صحته بعد أن أجمعوا على كراهته:

فرأت طائفة أن وجود الشهود يُخرجه عن السرية، والشهادة وحدها تحقق العلانية، وإذن فلا تأثير فى صحة العقد للتوصية بالكتمان، ويرى الإمام مالك وطائفة معه: أن التوصية بالكتمان تسلب الشهادة روحها، والقصد منها، وهو الإعلان الذى يضمن ثبوت الحقوق، ويزيل الريبة، ويفصل فى الوقت نفسه بين الحلال والحرام - كما جاء فى الحديث الصحيح: «فصل ما بين الحلال والحرام.. الدف والصوت». والشهادة التى تحقق الإعلان المقصود: هى التى تقترن بالتوصية على الكتمان، ومجرد العدد لا يزيل السرية، وكم من سر بين أربعة وبين عشرة لا تزول سريته ما دام القوم قد تواصوا بها وبُنى العقد عليها، ولعل المجالس الخاصة التى يعرفها اليوم أرباب الفجور المشترك من أوضح ما يدل على أن كثيرا ما يكون بين أكثر من اثنين.

وإذا كان الزواج السرى بنوعيه، الذى لم يحضره شهود، أو حضروه مع التوصية بالكتمان دائرا بين البطلان والكراهة، وأنه يحمل السرية التى هى عنوان المحرم، كان

(1) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٣٩ - ٢٤١، ٢٢٣ - ٢٢٨. طبعة القاهرة، سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.

جديرا بالمسلم ـ الذى شأنه أن يترك ما يريب إلى ما لا يريب ـ أن يمتنع عنه، ولا يقدم عليه، ولا يزج بنفسه فى مداخله الضيقة التى لا تحمد عاقبتها»[1].

• وفى زواج المتعة

زواج المتعة حرام.. وهو مفتقر للمقاصد الإنسانية والشرعية التى أرادها الإسلام من وراء الزواج.. فهذا الزواج «زواج المتعة ـ ومنه الزواج إلى أجل ـ هو أن يتفق رجل مع امرأة خالية من الأزواج على أن تقيم معه مدة ما، معينة أو غير معينة، فى مقابلة مال معلوم.

وهذا لا يُقصد به سوى قضاء الحاجة، وينتهى دون طلاق بمضى مدته، أو بالمفارقة إن لم تضرب له مدة. ولا ريب فى أن هذا الزواج ليس هو الزواج الذى شرعه الإسلام ونزل به القرآن.

فالقرآن يرشد إلى أن أساس الزواج السكن والمودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين، وإلى أن ثمراته تكوين الأسر وتحصيل الأبناء والأحفاد، والتعاون على تربيتهم. وما أبعد زواج المتعة عن هذا الأساس وهذه الثمرات.

والقرآن قد ربط بعنوان الزوجية أحكاما كثيرة كالتوارث، وثبوت النسب، والنفقة، والطلاق، والعدة، والإيلاء، والظهار، واللعان، وحرمة التزوج بالخامسة، وغير ذلك مما يعرفه الناس جميعا، وليس شىء من هذه الأحكام بثابت فيما يعرف بزواج المتعة.

والقرآن قد عرض للزواج بلفظه تارة، وبلفظ النكاح أخرى فى آيات كثيرة، ولا يفهم منهما ناطق بالضاد سوى الزواج الذى جعله أساس الدوام، وتكوين الأسر، وربطت به تلك الأحكام التى أشرنا إليها، واقرأ فى ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾ [البقرة: ٢٢٨].. ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٨].. ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ [البقرة: ٢٣٠].. ﴿وأنكحوا الأيامى منكم

(١) [الفتاوى] ص ٢٦٨، ٢٦٩.

والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ [النور: ٣٢]. . ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ [النساء: ٢١].

اقرأ هذه الآيات وأمثالها لتعلم أنها ـ على رغم ما يحاول المفتونون بمشروعية زواج المتعة من تحريفها عن مواضعها ـ بعيدة كل البعد عن زواجهم الذى يعلنون أنه مشروع لغاية فى نفوسهم، أو تعصبا لآراء لا تعرفها حجة.

نعم، ثبت أن النبى ﷺ أباحه للمحاربين فى بعض الغزوات، وثبت أيضا ـ مما لا شك فيه ـ أنه نهى عنه نهيا عاما وحرمه تحريما مؤبدا. وقد جمع مسلم فى صحيحه، والحافظ بن حجر فى شرح البخارى أحاديث النهى، فليرجع إليها من شاء.

وما كان نهى عُمر عنها ـ وتوعده فاعلها أمام جمع من الصحابة، وإقرارهم إياه ـ إلا عملا بهذه الأحاديث الصحيحة، واقتلاعا لفكرة مشروعيته من بعض الأذهان. وقد كان النبى ﷺ يتخذ قرب عهد الناس بالإسلام ـ فى أوقات الضرورة ـ سبيلا للترخيص فيما يخفف عنهم تلك الضرورة، حتى إذا ما أنسوا الإسلام وأحكامه عاد فحرمه التحريم الذى يريده الله، وهو التحريم العام المؤبد.

وبهذا القدر من البيان يتضح: أن الرأيين فى زواج المتعة لا يمكن أن يوضعا فى ميزان واحد، فضلا عن تساوى كفتيهما، وأن الترخيص فى زواج المتعة لم يخرج عن أن يكون ترخيصا بأخف المحرمين فى وقت الضرورة، وحداثة عهد الناس بالإسلام، ومثل هذا الترخيص لا يصلح دليلا على المشروعية.

وإن الشريعة التى تبيح للمرأة أن تتزوج فى السنة الواحدة أحد عشر رجلا، وتبيح للرجل أن يتزوج كل يوم ما تمكن من النساء، دون تحميله شيئا من تبعات الزواج، إن شريعة تبيح هذا لا يمكن أن تكون هى شريعة الله رب العالمين، ولا شريعة الإحصان والإعفاف»[(١)].

• وفى النسل بين التحديد والتنظيم

تنظيم النسل، كموقف فردى، لضرورات فردية، حلال. . أما تحديد النسل، كسياسة عامة فى الدولة والمجتمع، فغير مباح. . «**والأصل فى الشريعة الإسلامية هو**

(١) المصدر السابق. ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

الحمل على كثرة النسل والتوالد، وأن الولد لم يكن حقا لوالديه إلا بمقدار ما يهيئانه لخدمة الأمة والقيام بنصيبه فيها.

ولقد رغَّب القرآن الكريم، وحثت الأحاديث النبوية على الزواج، مع أنه أمر طبيعي لا تكاد النفس المهذبة تفكر في الإضراب عنه ما استطاعت إليه سبيلا. انظر إلى قوله تعالى في معرض الامتنان على عباده: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]. وقوله جل شأنه بيانًا لمكانة البنين في هذه الحياة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].. ثم انظر إلى قوله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة» وقوله: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم»، وقوله: «من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا».

ومن هذا يتبين أن القول بإباحة منع الحمل على الإطلاق - كما يراه الغزالي - أو برضا الزوجين - كما يراه الحنفية - فيه إهدار لحق الأمة الذي تُشير إليه هذه النصوص، وتقضي به روح الشريعة، وأن حق الأمة يجب أن يكون له المكان الأول من النظر والاعتبار، خصوصا في زمننا هذا الذي أصيبت فيه الشعوب الإسلامية بالضعف والانحلال والتمزق.

وأن إباحة منع الحمل - كما يراه الغزالي أيضا لمجرد المحافظة على الجمال والمتعة الجنسية - منع للطبيعة المستعدة للإثمار عن تأدية وظيفتها، وإيتاء ثمرتها..

إن الشريعة والطب يلتقيان في وجوب دفع الضرر الذي يلحق الزوجة أو الأمة من جراء إطلاق الحرية في تحصيل النسل وكثرته.

وإن الشريعة، في الوقت الذي حثت فيه على كثرة النسل - إنماءً للأمة وتكوينا لقوتها - قضت بصيانة هذه الكثرة من الضعف، ومن أن تكون غثاء كغثاء السيل..

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تطلب كثرة قوية، فما هو السبيل إلى الحصول على هذه الكثرة القوية؟!..

إن السبيل إلى هذا: هو العمل على تنظيم النسل تنظيمًا يحفظ له قوته ونشاطه، ويحفظ للأمة كثرتها ونماءها..

ونحن نرى أن يكون أساس التنظيم المنشود على نحو ما يأتي:

أولاً: العمل على منع الحمل منعا مؤقتا يُمَكِّن الأم من إرضاع الطفل إرضاعا كاملا نقيًا، وقد حددت الشريعة الإسلامية مدة الرضاع بحولين كاملين: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ثانيًا: منع الحمل بين الزوجين منعا باتا إذا كان بهما أو بأحدهما داء عضال من شأنه أن يتعدى إلى النسل والذرية، وفى حالة امتناع الزوجين عن قبول عملية منع الحمل يكون لولى الأمر الحق فى التفريق بينهما جريا عل قاعدة أن على ولى الأمر سد أبواب الضرر الذى يصيب الأفراد أو الأمة..

ويقى النظر بعد هذا فى شأن من يخشى الوقوع فى الحرج بسبب عدم القدرة على تربية أولاده والعناية بهم، أو يخشى أن تسوء صحته بضعف أعصابه عن تحمل واجباتهم ومتاعبهم، فهل يباح له أن يعمل على تحديد نسله أو تقليله إلى الحد الذى لا يخشاه اعتمادا على ما عرف من أن خوف الوقوع فى الحرج من الأعذار التى يسوغ بها فى الشريعة ترك الواجبات؟!..

إنا نرى أن العلاج السابق لا بد له من عنصر آخر ينضم إليه حتى يشمل العلاج جميع الفروض والحالات، وهو:

العمل على اتخاذ تدابير اجتماعية ومالية لمساعدة الفقراء الأصحاء، فى تربية أطفالهم وتعليمهم، ومنحهم ما يرفه عنهم ضيق الحياة المادية الذى يعرضهم إلى الضعف بسبب الجهل وسوء التغذية. وإذا كان للأمة - كما قلنا - حق فى الولد تنتفع به وتستثمره فى الحياة العامة، والغنم بالمغرم - كما يقولون - فالواجب على الحكومة أن تتخذ لهذه التدابير والوسائل التى تحقق بها تلك الغايات»[1].

* * *

---

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٠٦ - ٢١٣.

(ز) الفنون الجميلة

• الموقف الإسلامى من الفنون الجميلة

الغناء والموسيقى: الأصل فيهما الحلُّ.. والحرمة عارضة... وحب اللذة: غريزة فطرية في الإنسان.. والشرع ينظمها، دون قمع، ودون إفراط... ومرويات التحريم: ضعيفة.. أو تتحدث عن توظيف الغناء والعزف فى المحرمات..

«إن الأصل الذى أرجو أن ينتبه الناس إليه.. هو أن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التى يجد لها أثرا فى نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه ينشرح صدره بالمناظر الجميلة، كالخضرة المنسقة والماء الصافى الذى تلعب أمواجه، والوجه الحسن الذى تنبسط أساريره، وينشرح صدره بالروائح الزكية التى تحدث خفة فى الجسم والروح، وينشرح صدره بلمس النعومة التى لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذة المعرفة فى الكشف عن مجهول مخبوء، وتراه بعد هذا مطبوعا على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث.

ولعل قيام الإنسان بمهمته فى هذه الحياة ما كانت لتتم - على الوجه الذى لأجله خلقه الله - إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية، توجهه نحو المشتهيات، وتلك المتع التى خلقها الله معه فى الحياة، فيأخذ منها القدر الذى يحتاجه وينفعه.

ومن هنا قضت الحكمة الإلهية: أن يخلق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه - بعد أن خلقه هذا الخلق، وأودع فيه لحكمته السامية هذه العاطفة - نزعها أو إماتتها أو مكافحتها فى أصلها؛ وبذلك لا يمكن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية - فى أى مرحلة من مراحل الإنسانية - طلب القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التى لا بد منها فى هذه الحياة.

نعم، للشرائع السماوية بإزاء هذه العاطفة مطلب آخر، يتلخص فى كبح الجماح، ومعناه: مكافحة الغريزة عن الحد الذى ينسى به الإنسان واجباته، أو يفسد عليه خُلُقه، أو يحول بينه وبين أعمال هى له فى الحياة ألزم، وعليه أوجب.

ذلك هو موقف الشرائع السماوية من الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقصد، لا موقف الإفراط، ولا موقف التفريط، هو موقف التنظيم، لا موقف الإماتة والانتزاع. هذا أصل يجب أن يفهم، ويجب أن توزن به أهداف الشريعة السماوية، وقد أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الجزئيات: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ [الإسراء: ٢٩] ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [الأعراف: ٣١] ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ [لقمان: ١٩].

وإذن، فالشريعة توجه الإنسان في مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط، فهي لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا جشع فيه ولا إسراف، وهى لم تنزل لانتزاع الغريزة فى حب المناظر الطيبة، ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر. وهى لم تنزل لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا هلع فيه ولا جزع. وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز.

وقد كلف الله العقل - الذى هو حجته على عباده - بتنظيمها على الوجه الذى جاء به شرعه ودينه، فإذا مال الإنسان إلى سماع الصوت الحسن، أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان، أو آلة كيفما كانت، أو مال إلى تعلم شيء من ذلك، فقد أدى للعاطفة حقها، وإذا وقف بها عند هذا الحد الذى لا يصرفه عن الواجبات الدينية، أو الأخلاق الكريمة، أو المكانة التى تتفق ومركزه، كان بذلك منظما لغريزته، سائرا بها فى الطريق السوى، وكان مرضيا عند الله وعند الناس.

وبهذا يتضح أن تعلم الموسيقى - مع الحرص على الفرائض والتكاليف - نابع من الغريزة التى حكمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته، وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس فى هذه الحياة.

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف فى معرفة حكم الشرع فى الموسيقى، وفى سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته، لولا أن كثيرا من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه فى معرفة الحلال والحرام، إنما يقنعهم عرض ما قيل

فى الكتب وأثر عن الفقهاء؛ وإذا كان ولا بد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع فى إثارة الشوق إلى الحج، وفى تحريض الغزاة على القتال، وفى مناسبات السرور المألوفة، كالعيد، والعرس، وقدوم الغائب وما إليها. ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين:

يقرر أحدهما الحرمة، ويستند إلى أحاديث وآثار.

ويقرر الآخر الحل، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائل بالحل: «إنه ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا فى معقولهما من القياس والاستدلال، ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات»..

وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة، وقالوا: إنه لا يصح منها شيء.

وقد قرأت فى هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادى عشر - المعروفين بالورع والتقوى - رسالة هى [إيضاح الدلالات فى سماع الآلات] للشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى، قرر فيها أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم - على فرض صحتها - مقيدة بذكر الملاهى، وبذكر الخمر والقينات، والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة.. أنه إذا اقترن بشيء من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع فى المحرمات كان حراما، وأنه إذا سلم من كل ذلك، كان مباحا فى حضوره وسماعه وتعلمه. وقد نقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء، أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء، وهو يوافق تماما فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.

وكان الشيخ حسن العطار - شيخ الجامع الأزهر فى القرن الثالث عشر الهجرى - ذا ولع شديد بالسماع، وعلى معرفة بأصوله، ومن كلماته فى بعض مؤلفاته: «من لم يتأثر برقيق الأشعار، تُتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، فى ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار».

وإذن، فسماع الآلات، ذات النغمات، والأصوات الجميلة، لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة، أو صوت إنسان، أو صوت حيوان، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم، أو ألهى عن واجب.

وهكذا يجب أن يعلم الناس حكم الله في مثل هذه الشئون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يلقى جزافا في التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يحرمه الله، أو تحليل ما حرمه الله كلاهما افتراء وقول على الله بغير علم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣][1].

* * *

(ح) التقريب بين المذاهب

• وفي التقريب بين السنة والشيعة

والإفتاء بجواز التعبد وفق فقه المذهب الجعفري ـ مذهب الإمام الصادق: أبو عبد الله جعفر بن محمد [٨٠ - ١٤٨هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٥م] ـ وهو المذهب الفقهي للشيعة الاثنى عشرية ـ فلقد تداعت ـ في أربعينيات القرن العشرين ـ كوكبة من كبار العلماء والمفكرين إلى تأسيس جماعة للتقريب بين الشيعة والسنة، ولإزالة الجفوة التي اتخذها ويتخذها الاستعمار ثغرة لاختراق صفوف الأمة الإسلامية، وإضعاف وتمزيق جميع شعوبها ومذاهبها.. ولتبيان مناطق الاتفاق ـ وهي كبيرة جدا ـ وللتعرف على مناطق الاختلاف للتعامل معها بالحكمة الإسلامية التي قررت وتقرر أن الاختلاف والتنوع سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل..

---

(١) [الفتاوى] ص٤٠٩ - ٤١٤.

وكان الشيخ محمود شلتوت واحدا من أنشط العلماء الذين بذلوا الجهود الكبيرة فى تأسيس وتدعيم هذه الجماعة، التى رأسها الزعيم المصلح محمد على علوبة باشا [١٢٩٢ - ١٣٧٥هـ/ ١٨٧٥ - ١٩٥٦م] والتى ضمت من أئمة مشيخة الأزهر: الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ محمد مصطفى المراغى، والشيخ مصطفى عبد الرازق، ومن كبار علمائه: الشيخ على الخفيف، والشيخ عبد العزيز عيسى [١٣٢٧ - ١٤١٥هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٩٤م]، والشيخ محمد المدنى، والشيخ سيد سابق، والإمام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردى، والسيد محمد تقى الدين القمى - الأمين العام للجماعة - والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء، والسيد شرف الدين الموسوى، والسيد محمد جواد مغنية، والسيد صدر الدين شرف الدين..

ولقد أصدرت هذه الجماعة مجلة «رسالة الإسلام»، فكانت منبرا للاجتهادات الداعمة لوحدة الأمة الإسلامية.. وعلى صفحات هذه المجلة تعددت وتوالت اجتهادات الشيخ شلتوت فى التقريب بين المذاهب الإسلامية - الموثقة - وبين الشيعة والسنة على وجه الخصوص..

ومن نماذج اجتهاداته فى هذا الميدان قوله:

«إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام.. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ويربئون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذى لا مرية فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: «هذا مذهبى، وما وصل إليه جهدى وعلمى، ولست أبيح لأحد تقليدى واتباعى دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت؛ فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتى، والحديث إذا صح فهو مذهبى».

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهاج قويم، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة.. ثم تهيأ لى بعد ذلك، وقد عُهد إلىّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة

الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.. وقرّت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها فى الحين بعد الحين، فيما أبعث من رسائل للمتوضحين، أو أرد به على شُبَه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد؛ حتى أصبحت ـ والحمد لله ـ حقيقة مقررة تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلّمة، بعد أن كان المرجفون، فى مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى، يثيرون فى موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان..»[1].

أما الفتوى التى أصدرها الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفرى، فلقد جاءت ردا على سؤال نصه:

«إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الاثنى عشرية مثلا؟!».

فكان جواب الشيخ شلتوت:

«إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أى مذهب كان ـ ولا حرج عليه فى شىء. إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما

(١) [مشيخة الأزهر] جـ٢ ص ١٨٧، ١٨٨.

كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات. .»[1].

فبجهود الشيخ شلتوت - الفكرية والعملية - تبنى الأزهر الشريف، واحتضن كل المذاهب الإسلامية الموثقة المصادر. . ودعمت مصر الدولة - من خلال المؤتمر الإسلامى. . الذى كان الشيخ شلتوت مستشاره - دار التقريب ومجلتها. . وتفردت مصر - عندما أصدرت الموسوعة الفقهية - باعتماد المذاهب الفقهية الإسلامية الثمانية - الحنفى، والشافعى، والمالكى، والحنبلى، والجعفرى، والزيدى، والإباضى، والظاهرى - فى هذه الموسوعة على قدم المساواة. .

وهو موقف يتفرد به الأزهر الشريف بين كل الجامعات الإسلامية. . وتتفرد به مصر بين سائر الدول الإسلامية حتى كتابة هذه الصفحات!. .

ولم نر من الآخرين - بمن فى ذلك علماء الشيعة، الذين احتفوا بفتوى الشيخ شلتوت - لم نر منهم موقفاً مماثلا لموقفه فى السماحة والتقريب بين مذاهب الإسلام!!

* * *

تلك إشارات إلى معالم بارزة ومتميزة فى المدرسة الفكرية التى تربى فيها وعليها الشيخ شلتوت. . وإلى معالم سيرته ومسيرته التعليمية والعلمية. .

وإلى نماذج من الميادين التى تجلَّى فيها إبداعه الفكرى بالاجتهاد والتجديد.

رحمه الله رحمة واسعة. . وجعل حياته. . وجهاده. . واجتهاده. . معالم على طريق أمتنا نحو التقدم والتحرر والنهوض. . وآخر دعوانا أن الحمد لله العالمين. . وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين. . ومن عمل بسنته، وسار على طريق جهاده إلى يوم الدين.

* * *

(١) المرجع السابق. جـ٢ ص١٨٨.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* كتب السنة النبوية .

* معاجم القرآن . . والسنة .

الأفغانى، جمال الدين : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م، وطبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

الطهطاوى، رفاعة رافع : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

على عبد العظيم : [مشيخة الأزهر] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

الغزالى، أبو حامد : [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح . القاهرة . بدون تاريخ.

محمد عبده : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

محمود شلتوت : [الإسلام عقيدة وشريعة] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ سنة هـ / سنة ١٩٨٠ م.

: [من توجيهات الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

: [الفتاوى] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

: [تفسير القرآن الكريم] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

(٥)

إمام الفقه والقانون

الدكتور عبد الرزاق السنهوري

[١٣١٣ - ١٣٩١هـ /١٨٩٥ ـ ١٩٧١م]

تقديم

منذ منتصف ستينيات القرن العشرين . . بل ومنذ كتابتي لما كتبت عن عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] - وأنا طالب بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة - فى النصف الثانى من عقد الخمسينيات - آمنت أن إحياء تراث أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى - من رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] إلى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] إلى محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] إلى الكواكبى . . إلى على مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١هـ/ ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] ورشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] . . إلخ . . إلخ - هو بمثابة التوجيه لعقل الأمة وأنظار صفوتها الفكرية نحو منابع المشروع الحضارى النهضوى الكفيل بإخراج هذه الأمة من متاهة فكريات ونظريات التغريب والاستلاب الحضارى . . وإخراجها أيضًا من مستنقع التقليد والجمود . أى من شقى التقليد الأعمى . . تقليد الغرب، وتقليد عصر التراجع فى تاريخنا الحضارى . .

ففى تراث أعلام هذا التيار الإحيائى التجديدى نقاط الانطلاق، والمعالم الأساسية لمشروع حضارى نهضوى . . فيه تتواصل الروح الحضارية الأصولية الإسلامية السارية فى ضمير الأمة ومدنيتها وتاريخها وثقافتها . . وفيه - كذلك - استشراف فقه الواقع الذى عاش فيه هؤلاء الأعلام . . وفيه - أيضًا - التطلع إلى المستقبل الذى تستعيد فيه الأمة الإسلامية مكانتها الطبيعية فى إمامة الأمم وطليعة الحضارات .

وعلى هذه المعالم الأساسية، فى هذا المشروع الحضارى، يجب أن يكون البناء . . والإضافة والتطوير . .

ولقد حققت - بحمد الله وعونه - إنجازًا متميزًا بإحياء وتحقيق ودراسة تراث كوكبة

من هؤلاء الأعلام، الذين عاد تراثهم إلى الفعل والتأثير فى حياتنا الفكرية والثقافية المعاصرة من جديد.

***

واليوم.. والجدل يتزايد حدة حول «هوية القانون» الذى نختار لتنظيم وحكم الواقع الحياتى الذى نعيشه ونتطلع إليه ـ وهو الجدل الذى يدور بين دعاة «**أسلمة الفقه**» الحديث والقانون المعاصر، وبين دعاة «**استعارة فلسفة القانون الوضعى الغربى**» ـ هذا الجدل الذى أحدث ويحدث صدعا فى عقل النخبة، أدى إلى تبديد طاقاتها ـ **لا أجد أفضل ولا أقدر على حسم هذا الجدل والحكم فى هذا النزاع من قاضى مصر الأكبر، ومشرعها الأبرز، وأعظم فقهاء الأمة فى القانون الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م].. فإمامته فى القانون الحديث قد انعقد عليها إجماع فقهاء وقضاة وأساتذة هذا القانون الحديث ـ عربا ومسلمين وأجانب ـ.. وإمامته فى الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى ـ وهى التى يجهلها الكثيرون ـ والتى ستكشف هذه الدراسة عن معالمها وحقائقها ـ.. هذه الإمامة فى هذين الميدانين، هى التى ترشح السنهورى ليكون أقدر وأعدل القضاة فى هذا النزاع المحتدم حول «هوية القانون» الأنسب لحكم واقع العرب والمسلمين.**

فأهل القانون العصرى قد توّجوا السنهورى إماما لفقهاء القانون الحديث.. وأكبر وأهم الدول والحكومات العربية قد عهدت إليه ببناء صرح القوانين المدنية الجديدة، فأنجزها.. أما فقهاء القانون فى أوروبا فإنهم أدركوا ـ وخاصة الذين جمعوا منهم بين فقه القانون الغربى وفقه قوانين الشريعة الإسلامية ـ أدركوا رسوخ قدم السنهورى فى الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى، فأطلقوا عليه لقب «**الإمام الخامس**»، إشارة إلى إمامته فى هذا الميدان بعد الأئمة العظام للمذاهب الإسلامية الأربعة ـ أبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٧م] ومالك [٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م] والشافعى [١٥٠ - ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م] وأحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م] ـ أطلقوا عليه هذا اللقب، منذ مرحلة دراسته للدكتوراه ـ بباريس ـ فى منتصف عشرينيات القرن العشرين ـ والتى أنجز فيها رسالتين للدكتوراه، **إحداهما فى القانون المدنى، والثانية فى**

فقه الخلافة الإسلامية، كعصبة أمم إسلامية، تقوم على المدنية الإسلامية والشريعة الإسلامية، والتجديد لتراث الأمة في فقه المعاملات . .

لقد أدرك فقهاء القانون الأوروبي في السنهوري - منذ فجر حياته العلمية - حامل رسالة تجديد الفقه الإسلامي، وبعث المدنية الإسلامية، وبناء النهضة الشرقية . . فعلقوا عليه الآمال - كفقهاء قانون - في بعث وتجديد الدراسات الفقهية الإسلامية، وذلك لإغناء المنظومات القانونية العالمية، عندما تقارن بالفقه الإسلامي الجديد . .

وحمل السنهوري هذه «الرسالة - الحلم» . . وعبر سنوات حياته الخصبة - التي قاربت الثمانين عاما - أنجز الرجل ما لم ينجز عظيم من عظماء الجيل الذي عاش فيه .

فهو عندما وضع القانون المدني المصري - ومراعاة لارتباط القانون المصري بالقانون الفرنسي منذ القرن التاسع عشر . . وللقيود الاستعمارية التي كانت تحول دون الاستقلال القانوني لمصر - قد جعل مصادر هذا القانون المدني :

١ - **القانون الغربي** . . وخاصة في صياغاته المتقدمة وتقنيناته المضبوطة . .

٢ - **والقضاء المصري** . . الذي أرسى الكثير من التقاليد والمبادئ التي احتكمت إلى العرف والواقع . . والشريعة الإسلامية . .

٣ - **والشريعة الإسلامية**، وتراث فقه المعاملات الإسلامي . .

فخطا بذلك خطوة كبيرة نحو هدفه وحلم حياته : أسلمة القانون . .

فلما وضع القانون المدني العراقي - والسوري - والكويتي - اقترب أكثر . . ونضج أكثر في اكتشاف أبعاد وإمكانات الفقه الإسلامي . . وأعانه على الاقتراب الأكثر من أسلمة هذه القوانين، ذلك الارتباط التاريخي بين قوانين تلك البلاد وبين الفقه الإسلامي، ممثلا في مجلة الأحكام العدلية، التي قننت فيها الدولة العثمانية فقه معاملات المذهب الحنفي منذ سنة ١٢٨٦هـ/ سنة ١٨٦٩م . . فجعل السنهوري مصادر القوانين المدنية الحديثة، التي وضعها لهذه الأقطار :

١ - **الشريعة الإسلامية** - ممثلة في مجلة الأحكام العدلية . . وفي كتاب مرشد الحيران، الذي قنن فيه الفقيه والقانوني الفذ : محمد قدري باشا [١٢٣٧ - ١٣٠٦هـ/

١٨٢١ – ١٨٨٨م] فقه المذهب الحنفى ـ على نحو أكثر دقة وتقدما وعصرية من مجلة الأحكام العدلية ـ . وأيضا كما تمثلت هذه الشريعة فى تراث مذاهب الفقه الإسلامى، والتى أبحر فيها السنهورى بعظمة ووعى واقتدار . .

٢ ـ **والقانون المدنى المصرى** . . الذى جعله السنهورى حلقة الوصل التى أفادت هذه القوانين ميزات الصياغة وفنون التقنين . . وثمرات المقارنات بين المنظومات المتميزة فى القانون . . ولقد اعتبر السنهورى عمله فى إنجاز هذه القوانين المدنية ـ المستندة إلى الشريعة الإسلامية . . وإلى القانون المدنى المصرى ـ اعتبر ذلك بمثابة مرحلة للمقارنة، تستحث على النهوض بالفقه الإسلامى ـ دراسة . . . واجتهادا . . وتقنينا ـ حتى نصل إلى الهدف الأعظم: **قانون عربى خالص الإسلامية يضاهى ـ بل ويتفوق على ـ المنظومات القانونية العالمية . .**

* * *

إن أفضلية الشريعة الإسلامية، وفقه معاملاتها ـ عند السنهورى ـ لم تكن مجرد موقف نظرى، مرده الانحياز للإيمان الدينى بالإسلام . . وإنما كانت هذه الأفضلية ـ فوق ذلك ومعه ـ ثمرة لخبرة غنية نابعة من مقارنة القوانين الغربية والمصرية بالشريعة الإسلامية . .

وفى دراسته عن [تنقيح القانون المدنى المصرى وعلى أى أساس يكون هذا التنقيح] ـ والتى كتبها فى العيد الخمسينى للمحاكم الأهلية المصرية ١٩٣٣م ـ مقارنات غنية بين أحكام الشريعة الإسلامية ونظائرها فى القانون المصرى ـ المأخوذ عن القانون الفرنسى ـ والقوانين الغربية ـ يرصد فيها السنهورى تميز الشريعة الإسلامية وامتيازها، إن فى فلسفة التشريع، أو فى ملاءمة هذه الفلسفة التشريعية الإسلامية للواقع المعاصر، أو حتى فى الصياغة الفقهية والقانونية المضبوطة لكثير من الأحكام . . ولقد غاص السنهورى فى بحار مذاهب الفقه الإسلامى ليضرب الأمثال على امتياز الشريعة الإسلامية فى كثير من التقنينات . . من مثل «مسئولية التمييز» و «نظرية تحمل التبعة» و«حوالة الدين» و «هلاك الزرع فى العين المؤجرة» و «انقضاء الإيجار بموت المستأجر» و «انقضاء الإيجار بالعذر» و «الإبراء» و «الملكية الشائعة» و «حقوق الارتفاق»

و«التزامات المؤجر» و«إيجارات الأراضي الزراعية» و«ضمان المستعير في عارية الاستعمال» و«الدعوى البوليصية» و«الغبن في القسمة».. إلخ.. إلخ.. إلخ..

بل لقد رأينا حتى اختيارات السنهوري - في القانون المدني المصري - اختياراته من القوانين الغربية، وترجيحاته بين أحكامها، قد حكمتها الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، قبل أن تحكمها فلسفة تلك القوانين في التشريع.. فهو قد اختار ورجح من تلك التقنينات الغربية ما اتفقت فيه مع الشريعة الإسلامية، في فلسفة التشريع والمبادئ والقواعد.. فرأيناه قد فضل النزعة المادية على النزعة النفسية الباطنية - وهي التي اعتمدها القانون الجرماني - على عكس القانون الفرنسي، لا لأن القانون الجرماني قد اختارها، وإنما لأنه قد وافق فيها الشريعة الإسلامية.. ثم أخذ الأحكام التطبيقية المادية، استنادا للفقه الإسلامي، واستعان بالصياغات الفقهية الإسلامية، مع الاستفادة من ثراء القانون الغربي في الصياغة وفن التقنين.

لقد تبوأ السنهوري باشا عرش التجديد القانوني في الوطن العربي والشرق الإسلامي على امتداد عقود القرن العشرين.. وكانت بداية التجديد في مذهب السنهوري - هي العودة إلى فقه فقهائنا القدماء.. وكان تميز الفقه المصري - مثلا.. في مذهبه - هو عين إسلامية هذا الفقه.. وكان اعتماد المنهاج المقارن بين الفقه الإسلامي والمجموعات القانونية الغربية هو السبيل لجعل الفقه الإسلامي عنصرا من عناصر نهضة وإثراء الفقه العالمي.. وكانت - عند السنهوري - إسلامية الفقه والقانون المصري هي الرباط الجامع بين مصر وبين أمم الشرق العربي الإسلامي.. فوحدة الشريعة والقانون هي مَعْلَم من معالم وحدة الشرق، كمدنية وحضارة وجامعة سياسية لعصبة الأمم الإسلامية..

فالرجل لم يكن مجرد «صانع للقوانين»، وإنما كان إماما من أئمة النهضة الشرقية الإسلامية، التي ينهض فيها القانون بدوره المتميز في إقامة الجامعة الإسلامية من جديد!.

* * *

لذلك.. كان البعث الإسلامي للأمة وللشرق هو حلم السنهوري ورسالة حياته، منذ وعى هذه الرسالة إلى أن صعدت روحه إلى مولاه.

وإذا كان الرجل قد جعل من ذكرى عيد ميلاده ـ طوال سنوات حياته ـ كما سجل ذلك في [أوراقه الشخصية] ـ مناسبة لتجديد إيمانه بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ودعائه لمولاه ـ فإننا لا نجد في دعواته لله ـ طوال سنوات عطائه ـ دعوة واحدة خاصة به كفرد، ولا نعثر في رجواته على رجاء ذاتي . . وإنما كانت كل أدعيته حول العون الإلهي الذي يرجوه كي يحقق لأمته ما نذر نفسه لتحقيقه لها من الآمال العظام . .

وحتى في سنوات المرض ـ أواخر حياته ـ كانت دعواته إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يهبه الصحة، مقرونة بالأمل والعزم، كي يحقق لأمته المشروعات الكبرى التي نذر نفسه لتحقيقها . .

* * *

لقد كان السنهوري باشا «أمَّة في رجل عظيم» . . وإذا كان فقهاء وقضاة وأساتذة القانون الحديث ـ على امتداد الوطن العربي . . بل وفي الغرب ـ يعرفون أفضال وإنجازات الرجل في هذا الميدان . . فإن الوجه الإسلامي للسنهوري باشا غائب تماما عن وعي الكثيرين . . ومنقوص كثيرا لدى نفر قليل ! . .

لذلك ـ وتصحيحا لهذا الخطأ . . ووفاءً ببعض ما لهذا الرجل العظيم من دين في أعناق أمته ـ فإننا نستدعيه . . نستدعي الوجه الإسلامي للسنهوري باشا ـ عندما نجمع ما تناثر من كتاباته ودراساته الإسلامية ـ في علاقة الدين بالدولة . . وفي إسلامية المدنية الحديثة التي تتطلع إليها . . وفي إحياء وتجديد الفقه الإسلامي . . وفي تقنين الشريعة الإسلامية . . إلخ . . إلخ . . نستدعيه ـ بإحياء تراثه هذا ـ لننصفه أولا . . وأيضا ليفصل ـ هذا القاضي العادل العالم ـ في هذا النزاع المحتدم بين تيارات النهضة العربية والإسلامية، حول «هوية القانون» .

ـ أسلمة هذا القانون؟

ـ أم الانطلاق فيه من الفلسفة الوضعية التي حكمت المنظومات القانونية في الحضارة الغربية؟

* * *

إن هذه الدراسة تبتغى إعادة السنهورى إلى موقعه الطبيعى . . موقع الإمامة والقيادة والريادة فى تيار الإحياء الإسلامى، والتقدم والنهوض بالإسلام . . وذلك بعد أن غابت صورته هذه عن جمهور المثقفين والمفكرين والباحثين والسياسيين فى بلادنا . . حتى لقد سلبه غير الإسلاميين من الإسلاميين عندما لم يبرزوا سوى جهوده فى القانون المدنى الحديث . . بل لقد حجبوا - عن العيون والعقول - ما أحدثه من تحول فى ميدان القانون المدنى الحديث - بمصر . . وسوريا . . والعراق . . والكويت . . وغيرها - من وَصْل القانون الحديث بالفقه الإسلامى والشريعة الإسلامية.

تطمح هذه الدراسة إلى ذلك، بتقديم الصفحات والأفكار والدراسات والبحوث والمحاضرات التى كتبها السنهورى عن المدنية الإسلامية . . والشريعة الإسلامية . . والفقه الإسلامى . . وعلاقة الدين بالدولة فى الإسلام . . وما كتبه من نقد لاذع وعميق للنزعة العلمانية التى حاولت علمنة الإسلام، بادعاء أنه دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وروحانية لا سياسة فيها . .

هذه الصفحات والدراسات التى تناثرت، بل وغابت عن عيون مفكرينا ومثقفينا - والتى نجمعها ونبعثها لتنضم إلى إنجازاته الإسلامية الكبرى - رسالته للدكتوراه فى فقه الخلافة الإسلامية وتطورها - وسفره الكبير عن مصادر الحق فى الشريعة الإسلامية - ووصله بين القانون المدنى والشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى - وذلك لنجلى الوجه الأكثر إشراقا للسنهورى باشا: الإمام الخامس فى الفقه الإسلامى، كما هو الفقيه الفذ فى القانون المدنى الحديث.

وحتى يعلم الذين لا يعلمون أننا بإزاء عبقرية فذة، وجامعة بين إمام الفقه . . وفقيه القانون . .

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل - الخالص لوجهه - إنه أفضل مسئول، وأكرم مجيب.

* * *

- ١ -

بطاقة حياة

* الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] . . هو أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، وعميد فقهاء القانون المدنى فى العالم العربى . . وأحد أعظم القضاة فى القرن العشرين، وصاحب الأحكام التى انتصرت لحريات الأمة - عندما رأس مجلس الدولة - فى مصر إبان مرحلة الغليان السياسى والاجتماعى التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م .

وهو فوق كل ذلك : إمام الفقه الإسلامى، الذى جعل رسالة حياته العمل على تقنين الشريعة الإسلامية، وتجديد الفقه الإسلامى، لتعود الشريعة الإسلامية مصدر القانون الحديث، والرباط الموحد لشعوب الشرق فى الجامعة الشرقية وعصبة الأمم الإسلامية، التى هى الصورة العصرية للخلافة الإسلامية .

* ولد السنهورى بمدينة الإسكندرية، فى ١٩ صفر سنة ١٣١٣هـ / ١١ أغسطس سنة ١٨٩٥م فى أسرة فقيرة، لوالد كان يعمل موظفا صغيرا «بمجلس بلدى الإسكندرية» . . ولقد توفى والده سنة ١٩٠٠م - وهو فى السادسة من عمره - تاركا سبعة من البنين والبنات . .

* ولقد بدأ السنهورى تعليمه فى «الكُتَّاب» . . ثم انتقل إلى «مدرسة راتب باشا الابتدائية» . . وبعد حصوله على شهادة الابتدائية التحق «بمدرسة العباسية الثانوية» - بالإسكندرية - ومنها حصل على شهادة الثانوية سنة ١٩١٣م، وكان متفوقا طوال سنوات دراسته . . وجاء ترتيبه - فى الثانوية - الثانى على جميع طلاب مصر .

* وفى نفس العام - ١٩١٣م - التحق السنهورى «بمدرسة الحقوق» بالقاهرة - مرحلة التعليم العالى الجامعى - وكانت الدراسة فيها باللغة الإنجليزية - . . وبسبب من رقة

حاله الاجتماعية، وحتى يواصل دراسة الحقوق، جمع إلى الدراسة العمل موظفا بمراقبة الحسابات في وزارة المالية، إلى أن تخرج من الحقوق، ونال درجة «الليسانس» سنة ١٩١٧م. . وكان ترتيبه الأول على جميع الطلاب.

* وإبان دراسته للحقوق، تفتحت ملكاته الأدبية، مواكبة ومعبرة عن مشاعره الوطنية والإسلامية. . هذه المشاعر التي تكونت في تيار الوطنية والجامعة الإسلامية ـ فتلك هي مدرسة الزعيم الوطني الإسلامي مصطفى كامل باشا [١٢٩١ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] التي تأثر بها السنهوري في مرحلة التكوين ـ . ولقد عبر عن هذه الحقيقة من حقائق تكوينه المبكر فقال: «**إن الجيل الذي أنا منه تتلمذ في الوطنية لمصطفى كامل قبل أن يتتلمذ لزغلول، وإني مدين بشعوري الإسلامي لرجال آخرين غير هذين الرجلين، أذكر منهم الكواكبي وجاويش وفريد وجدي، أما عبده وجمال الدين فلم أحضرهما في حياتهما، وتركا من الكتابة شيئا قليلا لم يمكني من أن أتأثر بأفكارهما، ولكنهما تركا أبلغ الأثر في نفسي، ويعتبرهما العالم الإسلامي بحق أكبر المصلحين في العصر الحديث.**

لقد قلت لصديق ـ وأنا في الخامسة عشرة ـ: إن أملي في الحياة قد تعيَّن بين مصطفى كامل وسعد زغلول، والفرق بينهما: أن مصطفى كامل بدأ أن يكون وطنيا فجاءت عظمته من الوطنية، أما سعد فبدأ أن يكون عظيما فجاءت وطنيته من العظمة. .»

* وكان يقرض الشعر أحيانا ـ وشعره جيد ـ ولقد عبر عن اهتماماته العامة بشئون أمته وعن انتمائه الإسلامي ـ وهو طالب بمدرسة الحقوق سنة ١٩١٦م ـ فقال:

أأرضى أن أنام على فراشي ... ونوم المسلمين على قتاد؟!

وأهنأ في النعيم برغد عيش ... وقومي شُتتوا في كل واد

فلا نعمت نفوس في صفاء ... إذا نسيت نفوسا في الصِّفاد

* ولأن نفسه كبيرة، ومقاصده عظيمة، فلقد جعل من فقره ومعاناته الاجتماعية حوافز للسير الحثيث على طريق العظمة والعظماء. . وعبر عن هذه الحقيقة من حقائق حياته فكتب يقول: «**شيء يشترك فيه أكثر العظماء: حياة الشظف والفاقة التي عاشوا فيها أول حياتهم، فنفخت في أخلاقهم روح الصلابة، وعوَّدتهم مكافحة الشدة، فأذاقوا الحياة بأسهم بعد أن أذاقتهم بأسها!**».

* وفى نفس العام الذى نال فيه «ليسانس» الحقوق ـ سنة ١٩١٧م ـ عين وكيلا للنائب العام ـ فى سلك القضاء ـ بمدينة المنصورة . . وأثناء عمله وكيلا للنائب العام تفجرت أحداث ثورة مصر الوطنية ـ فى سبيل الاستقلال وإجلاء جيوش الاحتلال الإنجليزية ـ سنة ١٩١٩م . . ولم تمنع حساسية الوظيفة القضائية الشاب الوطنى عبد الرزاق السنهورى من الانخراط فى مواكب الثورة الوطنية، فكان من الدعاة إلى إضراب الموظفين، بل وتزعم الإضراب! . . وانخرط فى الثورة التى قادها سعد زغلول باشا [١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ/ ١٨٥٧ - ١٩٢٧م] فعاقبته السلطة الاستعمارية بالنقل ـ بسبب هذا النشاط الوطنى والثورى ـ من مدينة المنصورة إلى مدينة أسيوط ـ بصعيد مصر .

* وفى سنة ١٩٢٠م انتقل السنهورى من العمل فى النيابة العامة إلى تدريس القانون فى «مدرسة القضاء الشرعى» ـ وهى واحدة من أهم مؤسسات التعليم العالى المصرى التى أسهمت فى تجديد الفكر الإسلامى الحديث والمعاصر . . والتى درس فيها وتخرج منها كوكبة من أعلام التجديد الإسلامى المعاصر ـ . . وفى التدريس بها زامل السنهورى كوكبة من مجددى العصر . . منهم الأساتذة أحمد إبراهيم [١٢٩١ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٤٥م] وعبد الوهاب خلاف [١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م] وعبد الوهاب عزام [١٣١٢ - ١٣٧٩هـ/ ١٨٩٤ - ١٩٥٩م] وأحمد أمين [١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨ - ١٩٥٤م] . . إلخ . . إلخ . .

* وبعد عام دراسى ـ فى مدرسة القضاء الشرعى ـ سافر السنهورى إلى فرنسا ـ فى بعثة علمية لدراسة القانون ـ فركب السفينة ـ من ميناء الإسكندرية ـ قاصدا إلى مدينة «ليون» فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢١م . . أى فى صبيحة اليوم التالى لذكرى عيد ميلاده ـ وهو فى السادسة والعشرين من عمره . .

وفى السنوات الخمس التى أمضاها بفرنسا تبحر فى علوم القانون الغربى ـ الأصول الرومانية . . والتقنينات الأوروبية الحديثة ـ . . ونهل من الثقافة الفرنسية والأوروبية . . واتصل بالحركات والتيارات الاجتماعية والثورية ـ والاشتراكية منها بوجه خاص ـ . . وزامل المبعوثين العرب إلى مؤسسات العلم الفرنسية . . وساح فى كثير من البلاد الأوروبية متأملا ودارسا .

* وتشهد مذكراته فى سنوات الابتعاث - التى دونها فى [أوراقه الشخصية] - على أن وطنه وأمته وإسلامه وتجديد الفقه الإسلامى وتقنين الشريعة الإسلامية، ونهضة الشرق بالإسلام، ونهضة الإسلام بالشرق كانت هى شغله الشاغل. والحلم الذى سهر على رسم معالم تحقيقه، جاعلا منه رسالته فى الحياة..

* وإذا كانت مصر قد ابتعثت ابنها عبد الرزاق السنهورى إلى فرنسا ليتخصص فى القانون وينجز رسالة الدكتوراه، فإن الرجل العظيم قد أنجز فى تلك السنوات الخمس أضعاف المطلوب والمأمول.. أنجز رسالة للدكتوراه فى القانون - عن [القيود التعاقدية الواردة على حرية العمل] - بالفرنسية - من جامعة «ليون» - سنة ١٩٢٥م.. وأنجز رسالة للدكتوراه فى العلوم الاقتصادية والسياسية.. وأنجز دبلوما من معهد القانون الدولى - بجامعة باريس -..

ومع هذه الإنجازات العلمية، وتعبيرا عن الهم الإسلامى، الذى كان أكبر هموم حياته، تصدى - وهو الذى سقطت الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م إبان غربته عن وطنه.. وقرأ حملات التشويه لهذه الخلافة - عبر تاريخها فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - الصادر سنة ١٩٢٥م - للشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م]... وشهد فرحة الغرب الأوروبى بتحطيم وعاء الوحدة الإسلامية ورمز الجامعة الإسلامية -.. تصدى السنهورى لهذا الحدث الذى زلزل كيان الشرق والإسلام، فأنجز رسالة أخرى للدكتوراه - بالفرنسية - عن [الخلافة الإسلامية وتطورها؛ لتصبح هيئة أمم شرقية] - سنة ١٩٢٦م -..

* وفى منتصف سنة ١٩٢٦م عاد السنهورى من باريس إلى وطنه مصر.. وعين مدرسا للقانون المدنى فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية..

* وبعد عام من عودته إلى مصر عقد قرانه فى ٥ مايو سنة ١٩٢٧م.. وبنى بزوجته فى الشهر التالى - فى ٢ يوليو سنة ١٩٢٧م.. وسافرا فى رحلة إلى أوروبا دامت ثمانين يوما..

* وبدأ السنهورى - فى مصر - منذ ذلك التاريخ مرحلة التأليف للكتب... والتربية للشباب والرجال.. لا بالتدريس والفكر وحدهما؛ وإنما أيضا بالمواقف ونماذج القدوة والسلوك.

بدأ التأليف فى: أصول القانون.. وعقد الإيجار... ونظرية العقد.. كما بدأ التربية لطلابه على خلق الرجولة، فقال: «**نصيحتى إلى الطلبة هى: أن يتمسكوا بالرجولة. والمعنى الذى أقصده من الرجولة هنا هو أن تكون شجاعتهم مستمدة من نفوسهم، لا من الملابسات الخارجية، وإذا كنت أنصحهم بعدم الخنوع عند وقوع الظلم؛ فإنى لا أكون أقل نصحا لهم بعدم التمرد عند إطلاق الحرية. فالخنوع للظلم والتمرد على الحرية هما على قدر واحد من الدلالة على الضعف النفسى، فليطهروا أنفسهم من ضعف الخنوع ومن ضعف التمرد!، حتى يكونوا رجالا يدخرون فى أنفسهم قوة ذاتية تكون عدتهم فى التغلب على الصعاب**».

* وواصل - فى حقل الفكر - الدعوة إلى تجديد الفقه الإسلامى، بتقنينه، وفتح باب الاجتهاد فيه، ومقارنته بالمنظومات الفقهية العالمية، ليستفيد من فنون صياغتها، وليفيدها بمبادئه ونظرياته وقواعده المتقدمة.. والدعوة إلى تكامل وشمول الإسلام للدين والدولة، مع تمييز الجانب العقدى فى الإسلام - الذى هو خاص بالمسلمين - عن الجانب المدنى - إسلام الحضارة والمدنية والثقافة والشريعة وفقه المعاملات - والذى هو الميراث الحلال للأمة والشرق بملله المتنوعة وأممه وشعوبه وقومياته المختلفة.. فالشرق هو الإسلام، والإسلام هو أساس الرابطة الشرقية.. فكتب عن الدين والدولة فى الإسلام.. وعن الرابطة الشرقية.. وكان العيد الخمسون للمحاكم الأهلية سنة ١٩٣٢م المناسبة لجهود فكرية كبيرة ومتميزة قدمها السنهورى فى الدعوة إلى العمل على إعادة الشريعة الإسلامية إلى عرش القانون والتشريع والقضاء من جديد..

* وفى هذه المرحلة من حياة السنهورى دخلت أحلامه فى تجديد الفقه الإسلامى، واستدعاء حاكمية الشريعة الإسلامية مرحلة النضج، عندما وضعت هذه الأحلام فى الممارسة الفكرية والعملية، فلم تعد مجرد أمنيات طيبة يتمناها السنهورى الشاب.. وعن ذلك النضج لأحلامه، وهذه الواقعية التى صبغت أفكار شبابه.. كتب فى ذكرى عيد ميلاده الأربعين - ١١ أغسطس سنة ١٩٣٥م - يقول: «**أمضيت العشرين عاما الأولى من حياتى تلميذا فى المدرسة، وأمضيت العشرين عاما الثانية تلميذا فى مدرسة الحياة. فهل كسبت من التجارب ما يكفى لخلع رداء التلمذة وخوض غمار الحياة؟**

كنت من عشرة أعوام أجيش بالعواطف المتدفقة، وأحب المجد والعظمة. كنت ممعنا فى أحلام الشباب، كنت أستمد المجد من الخيال. أما اليوم، فعواطفى قاربت النضوب

والجفاف، وقد هجرت الخيال إلى الحقيقة، وأصبحت لا أرى المجد إلا فى أن أكون نافعا، نافعا لنفسى، ونافعا لأهلى، ونافعا لبلدى، ونافعا للناس. . »

هكذا حمل السنهورى ـ منذ فجر حياته ـ هموم أمته ـ وهكذا تحوّلت هذه الهموم ـ فى مرحلة الممارسة العملية ـ من نطاق الحلم والخيال والتخطيط على الأوراق إلى ميادين العمل والإبداع والإنجاز. . فى التربية. . والتدريس. . والتقنين والتشريع. . وفى المواقف الكبيرة التى تجسد القيم والأحلام، نماذج حية للأسوة والاقتداء فى واقع الحياة.

* ولم تكن طريق الإصلاح ـ أمام السنهورى ـ خالية من الأشواك والصعاب والعقبات. . ففى مرحلة الممارسة والتطبيق اصطدم بالعقبات، وكان عليه أن يقدم التضحيات. . ففى سنة ١٩٣٤م، وإبان توالى حكومات الأقلية ـ الموالية للقصر الملكى والاستعمار الإنجليزى ـ حكومات الانقلاب على الدستور والقانون ـ أنشأ السنهورى «جمعية الشبان المصريين» ـ وكان قد كتب منذ سنة ١٩٣٢م عن الحركة الشبابية الداعية إلى «الرابطة الشرقية» ـ والتى كان فى طليعتها الشاب «فتحى رضوان» وصحبه. . . فكان أن فصل السنهورى من الجامعة بسبب ذلك. . ثم أعيد إلى الجامعة ثانية. .

* وفى المحيط الأسرى. . رزق السنهورى ـ فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥م ـ بابنته «نادية» ـ الدكتورة نادية ـ التى ادخرها الله لترعى تراثه، وتحيى ذكراه ـ والتى كانت عواطفه إزاءها تثير ملكاته الشعرية فيداعبها ـ شعرا ـ وهى فى السادسة من عمرها ـ فيقول لها وعنها:

بنيتــــى ناديــــــة ... بنيــــة غــــاليـــة
رأيتـــــها مـــرة ... لاعـــــبة لاهــــية
ولهـــا رفـيـقـــة ... عمــرهـــا ثمـــانيـــة
ســألتـهـــا مـــا الــــفـــر ... ق فــى الســن يـــا نـــاديـــة؟
فـــأجــــابت: أنـــا أصــ ... ــغــر عامــين عــمـا هـــيه
قـلــت: إذن بعـد عــــا ... مـين أنـتـمـا ســواسيـة
فـــأجـــابت: وهـل تـرا ... هـا على سنها باقـيـة؟!

* وكان الشهر الذى ولدت فيه ابنته نادية ـ ديسمبر سنة ١٩٣٥م ـ هو ذاته الذى سافر فيه إلى بغداد ـ بدعوة من الحكومة العراقية ـ بعد المعاهدة التى خطت بالعراق نحو الاستقلال السياسى . . والتى فتحت الباب أمام العراقيين لتجديد وتحديث حياتهم القانونية والتشريعية والقضائية . . فدعوا الدكتور السنهورى ليقود ـ فى بغداد ـ هذا التجديد . .

وفى العام الدراسى الذى أمضاه ـ السنهورى ـ ببغداد أنجز أعمالا عظيمة، ما زالت راسخة حتى اليوم فى المجتمع العراقى؛ فلقد:

ـ أنشأ ببغداد كلية الحقوق . . وتولى عمادتها . .

ـ ومجلة القضاء ـ التى أصدرها على أسس جديدة ـ وأسهم فى تحريرها .

ـ وبدأ خطة إعداد القانون المدنى العراقى الجديد، الذى ينظم الفوضى القانونية التى كانت سائدة هناك ـ فى العهدين العثمانى . . والاستعمارى الإنجليزى ـ وهو العمل الذى خطط السنهورى ليجعله خطوة متقدمة على القانون المدنى المصرى، تقترب أكثر فأكثر من هدفه فى «أسلمة القانون المدنى فى كل أنحاء الوطن العربى» . . فبدأ إنجاز هذا العمل الكبير بدراسة مقارنة لكل من :

١ ـ مجلة الأحكام العدلية ـ العثمانية ـ التى كانت مطبقة فى العراق منذ العهد العثمانى ـ والتى هى تقنين لفقه المذهب الحنفى فى المعاملات . .

٢ ـ وكتاب محمد قدرى باشا [مرشد الحيران فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، ملائما لعرف الديار المصرية وسائر الأمم الإسلامية] وهو الذى يمثل خطوة أكثر تقدما من مجلة الأحكام العدلية فى تقنين الفقه الإسلامى تقنينا عصريا مضبوطا . .

٣ ـ والفقه الإسلامى فى مصادره العديدة، بمختلف المذاهب الإسلامية ـ والذى رجع السنهورى إلى أمهات مصادره ـ ليستمد منها القواعد والمبادئ والنظريات والأحكام وفلسفة التشريع .

٤ ـ والقانون المدنى المصرى، الذى استلهم السنهورى منه الثراء والغنى فى فن الصياغة والتقنين . . كما جعل منه سبيلا لمقارنة عطاء الفقه الإسلامى بالمنظومات القانونية الغربية، التى مثلت منبعا رئيسيا من منابع هذا القانون المصرى .

ـ ودرّس في كلية الحقوق العراقية أصول القانون، ومقارنة مجلة الأحكام العدلية مع القوانين المدنية الحديثة، فلقد كانت مقارنة الفقه الإسلامي بالمنظومات القانونية الأخرى ـ عنده ـ من أعظم السبل لتجديد هذا الفقه . .

ـ وألف كتابين لطلاب كلية الحقوق . .

وبعد هذا العام الدراسي ـ الحافل بالإنجازات ـ اضطر السنهوري للعودة إلى مصر بسبب مرض والدته . .

* وفي مصر ـ بعد العودة من بغداد ـ ترك السنهوري الجامعة المصرية إلى سلك القضاء، فأصبح قاضيا بالمحكمة المختلطة ـ بالمنصورة ـ حتى سنة ١٩٣٩م.

* وفي سنة ١٩٣٩م عين وكيلا لوزارة المعارف العمومية . . واستمر في هذا المنصب حتى ١٦ مايو سنة ١٩٤٢م . .

* ثم انتقل للاشتغال بالمحاماة . . لكنه تركها، وعاد إلى العراق ثانية في أغسطس سنة ١٩٤٣م، وذلك لاستكمال العمل الذي بدأه في وضع القانون المدني العراقي الجديد . . وأخذ ينجز هذا العمل الكبير، مستلهما في وضعه كنوز الفقه الإسلامي . . حتى لقد عبر عن ذلك شعراً خاطب فيه الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان، فقال ـ في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣م ـ:

أبا حنيفة هذا فقهكم بقيت ... منه الأصول وقامت أفرع جدد

ماذا على الدوحة الشماء إن ذهبت ... منها الفروع وظل الجذع والوتد

وبعد أن بدأ السنهوري العمل ـ رئيسا للجنة وضع القانون المدني ـ في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٤٣م ـ طلبت الحكومة المصرية ـ وكان يرأسها مصطفى النحاس باشا [١٢٩٣ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٦٥م] ـ وكانت في مرحلة الوفاق مع الاحتلال الإنجليزي بمصر، إبان الحرب العالمية الثانية ضد النازية والفاشية ـ وفي مرحلة المواجهة مع الاتهامات التي أثارها مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٦١م] في [الكتاب الأسود] ـ طلبت من الحكومة العراقية طرد السنهوري من بغداد . . فرفضت الحكومة العراقية . . وحدثت أزمة بين الحكومتين، تدخل لحلها رئيس وزراء سوريا ـ

سعد الله الجابرى [١٣٠٩ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٩٢ - ١٩٤٧م] عارضا على الحكومة المصرية استضافة السنهورى فى دمشق - كحل وسط - ليضع هناك القانون المدنى السورى، ويستكمل القانون العراقى.. وبالفعل انتقل السنهورى إلى دمشق - فى نوفمبر سنة ١٩٤٣م - واستقر فيها حوالى ثمانية أشهر.. لكن إصرار الحكومة المصرية على موقفها، وتهديدها العراق وسوريا بمنع الأساتذة المصريين من السفر إليهما.. اضطر السنهورى إلى العودة إلى مصر فى يوليو سنة ١٩٤٤م.. وفى مصر التحق به عدد من الأساتذة العراقيين لاستكمال وضع القانون المدنى العراقى..

ولقد عكست مذكراته - فى [أوراقه الشخصية] - مشاعر هذه الأزمة.. فالقانون المدنى العراقى - الذى. سافر لإنجازه - «**أرادوا ألا يتم، ويريد الله إلا أن يتمه**»!.. وفاضت بهذه المشاعر شاعريته - بدمشق فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣م - فقال:

إذا ما نابنى خطب كبير ... أقابله بعزم منه أكبر

ومن تعْركه أحداث شداد ... يعاركها فيكسر أو فيكسر

* وفى ١٥ يناير سنة ١٩٤٥م تولى السنهورى وزارة المعارف العمومية - فى وزارة أحمد ماهر باشا [١٣٠٥ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٨٨ - ١٩٤٥م].. ثم تولى نفس الوزارة - بعد اغتيال أحمد ماهر باشا - فى وزارة محمود فهمى النقراشى باشا [١٣٠٥ - ١٣٦٨هـ/ ١٨٨٨ - ١٩٤٨م] التى تألفت فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥م، وبقى فيها حتى فبراير سنة ١٩٤٦م.. ثم تولى ذات الوزارة - للمرة الثالثة - فى وزارة النقراشى الثانية - فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦م - وبقى فيها حتى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م - عند اغتيال النقراشى.. ثم تولاها للمرة الرابعة - فى وزارة ابراهيم عبد الهادى باشا فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م، وبقى فيها حتى ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٩م.. عندما انتقل من وزارة المعارف إلى رئاسة مجلس الدولة..

* وإبان توليه وزارة المعارف العمومية شارك فى وفد مصر لدى مجلس الأمن الدولى، حيث عرض الوفد - برئاسة النقراشى باشا - قضية مصر، ومطلبها فى جلاء جنود الاحتلال الإنجليزى عنها.

كذلك استمرت جهوده فى مشروعاته الكبرى لتقنين القوانين المدنية الجديدة للعراق.. وسوريا.. ومصر.. فأنجزها جميعا فى تلك السنوات.. ولقد عبر عن فرحته بإتمام العمل بالقانون المدنى المصرى ـ فى أغسطس سنة ١٩٤٩م ـ فقال شعرا:

إنى ختمت بذلك القا ... نون عهدا قد مضى وبدأت عهدا

وأقمت للوطن العز ... يز مفاخرا وبنيت مجدا

كما عبر عن سعادته بامتداد إنجازاته ـ فى القانون المدنى ـ إلى البلاد العربية ـ عبر عن ذلك شعرا ـ فقال:

جهود منهكات مضنيات ... وصلت الليل فيها بالنهار

وكنت إذا استبد اليأس يوما ... أسل عزيمة الأسد المثار

إذا افتخروا بمال أو بجاه ... فقانونى من الدنيا فخارى

* وفى الأول من مارس سنة ١٩٤٩م حلف السنهورى باشا اليمين رئيسا لمجلس الدولة المصرى.. وسجل ـ فى [أوراقه الشخصية] ـ دعاءه لربه: «**اللهم تولنى بهداك وتوفيقك فى هذا العمل الجديد**».

وكانت مصر تمر بمرحلة من الغليان، استشرى فيها الفساد، واهتزت الأرض من تحت قوائم نظام الحكم الذى أصيب بالعجز والشيخوخة والفساد.. كما أصاب العجز الأحزاب التقليدية، فلم تنهض بمهام التغيير.. وأراد النظام معالجة أزمته بالبطش بالحريات العامة، وحرمان القوى الاجتماعية والسياسية الجديدة من فرصها فى التغيير.. فكان السنهورى ـ على رأس مجلس الدولة ـ حصن الأمة وملاذ حرياتها فى سنوات الأزمة والغليان والتحولات..

ولم يقف عمله بمجلس الدولة عند «عدالة القاضى.. ونزاهة المحكمة» ـ التى يخاصم الناس إليها الدولة والسلطة ـ وإنما كان الرجل واعيا بأنه يقود تغييراً قوميًا لإصلاح كل مؤسسات الحكم، بدءا بإصلاح السلطة القضائية، وتطلعا إلى إصلاح السلطتين التشريعية والتنفيذية ـ فكتب فى مذكراته ـ ٢٣ مارس سنة ١٩٥٠م ـ يقول: «**نظام الحكم فى مصر فى أشد الحاجة إلى الإصلاح والاستقرار، ويبدو لى أنه يصعب**

البدء بإصلاح السلطة التشريعية، أو بإصلاح السلطة التنفيذية، على أهمية هاتين السلطتين. فيجب، إذن، البدء بإصلاح السلطة القضائية. ويكون هذا الإصلاح فى النُّظم، بحيث يكفل استقلال هذه السلطة استقلالا تاما، وبحيث تستطيع السلطة أن تقوم بوظيفتها بما ينبغى من النزاهة والحيْدة، ثم يكون هذا الإصلاح فى رجال القضاء أنفسهم، فيُختارونَ من بين الرجال القادرين على تأدية هذه الرسالة المقدسة، من ناحية الخلق ومن ناحية الكفاية...».

* وفى سنة ١٩٤٩م منحته الحكومة الفرنسية وسام «ليجيون دونير» لتنظيمه - أثناء وزارته للمعارف - تعليم الفرنسية - كإحدى اللغتين الأجنبيتين - فى المدارس الثانوية.. وكتب - فى مذكراته - عن تسلمه للوسام: «.. **ويعلم الله أننى لم أعن بتنظيم هذه اللغة؛ إلا لأن التلاميذ المصريين فى حاجة إليها، ولو أن وساما مصريا منح لى لقاء هذه الخدمة الوطنية لاستسخت ذلك. فالحمد لله الذى أراد ألا أمنح وساما أجنبيا إلا لسبب خدمة وطنية**».

* ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م تعاون معها، وعلق عليها الآمال فى الإصلاح. لكنه اختلف مع مجلس قيادة الثورة فى «أزمة مارس سنة ١٩٥٤م» - بسبب انحيازه للدستور والحريات والقانون - فسيرت «هيئة التحرير» - التنظيم السياسى للثورة - والبوليس الحربى، والمباحث العسكرية مظاهرة من الدهماء والغوغاء المأجورين، يقودها الضباط، وتوجهت إلى مجلس الدولة، فاقتحمته واعتدت على الدكتور السنهورى..

ولقد كتب فى مذكراته - عقب خروجه من المستشفى الذى عولج فيه من آثار هذا الاعتداء - فى ١٥ مايو سنة ١٩٥٤م - فقال: «**يقول شوقى فى رثاء المرحوم أحمد أبو الفتح:**

يا أحمد القانون بعدك غامض　　　قلق البنود مجلل بسواد!!

لما خرج النبى ﷺ من الطائف، وقد أصم من فيها آذانهم عن دعوته، وقذفته الأولاد بالحجارة، قال يخاطب ربه:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربى؛ إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى

عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك . . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وهى سطور بليغة فى التعبير عن مأساة العدوان عليه ، وهو فى حضن القضاء ! . .

* وفى سنة ١٩٥٣م أثمرت جهود السنهورى افتتاح «معهد الدراسات العربية العالية» ، الذى أراده معهداً لخدمة الفقه الإسلامى . . وكتب فى مذكراته ـ فى ذكرى عيد ميلاده ١١ أغسطس سنة ١٩٥٣م ـ :

« . . وقد شاء الله أن يكون هذا العام هو الذى يفتتح فيه معهد الدراسات العربية العالية ، فاللهم وفقنى إلى خدمة الفقه الإسلامى فى هذا المعهد ، واجعل جهودى فى خدمته نواة لغرس عظيم » . .

* ومنذ ذلك التاريخ . . وحتى وفاته فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٩١هـ / ٢١ يوليو سنة١٩٧١م ـ كرس السنهورى سنوات حياته ، وجميع جهوده للشريعة الإسلامية . . والفقه الإسلامى . . . والوحدة العربية . . والجامعة الإسلامية . . وتحديث وتجديد القانون ، على امتداد الوطن العربى الكبير . .

* وعندما انتقل إلى بارئه . . كان قد خلّف لأمته ـ غير السيرة العطرة . . والقدوة الحسنة ـ تراثا فى العدل والقضاء ، وحيثيات للأحكام المتميزة ، التى يباهى بها القضاء المصرى حتى الآن . . وصروحا من القوانين المدنية التى لا تزال المجتمعات العربية تعيش عليها وبها حتى الآن . . ومئات البحوث والمقالات والمحاضرات ، فى الشريعة الإسلامية . . والفقه الإسلامى . . والقانون المدنى . . والإصلاح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى . . والوحدة العربية والشرقية والإسلامية . .

وذلك غير أعمال فكرية أساسية ، لا تزال حتى الآن المرجع للعقل القانونى العربى . . من مثل كتبه :

١ ـ **الوسيط فى شرح القانون المدنى :** وهو فى عشرة أجزاء ، تقترب صفحاتها من خمسة عشر ألف صفحة . .

٢ ـ **الوجيز** ـ فى ثلاثة أجزاء.

٣ ـ **رسالته الأولى للدكتوراه** ـ عن [القيود التعاقدية الواردة على حرية العمل] ـ سنة ١٩٢٥م.

٤ ـ **رسالته الثانية للدكتوراه** ـ عن [الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح هيئة أمم شرقية] ـ سنة ١٩٢٦م.

٥ ـ **عقد الإيجار** سنة ١٩٣٠م.

٦ ـ **نظرية العقد**.. سنة ١٩٣٤م.

٧ ـ **الموجز فى النظرية العامة للالتزامات** سنة ١٩٣٨م.

٨ ـ **أصول القانون** ـ بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حشمت أبو ستيت ـ سنة ١٩٣٨م.

٩ ـ **التصرف القانونى والواقعة المادية** ـ دروس لقسم الدكتوراه سنة ١٩٥٤م.

١٠ ـ **مصادر الحق فى الفقه الإسلامى** ـ فى ستة مجلدات ـ تبلغ صفحاتها نحواً من ألف وخمسمائة صفحة.. ولقد صدرت أجزاء هذا السفر النفيس فى أعوام ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ و ١٩٥٩م..

وهو بناء فكرى ـ كصاحبه الذى أبدعه ـ مما تباهى به أمتنا وحضارتنا غيرها من الأمم والحضارات[1].

* * *

(١) انظر فى ذلك كله: [عبد الرزاق السنهورى فى أوراقه الشخصية] إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى. طبعة الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة سنة ١٩٨٨م. و [مجلة قضايا الدولة] عدد خاص عن «الفقيه الإمام عبد الرزاق السنهورى» القاهرة ـ يونية سنة ١٩٨٩م. و [مجلة القانون والاقتصاد] عدد خاص ـ فى مجلدين كبيرين ـ مقالات وأبحاث للسنهورى، وعنه ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م. ود. محمد عمارة [إسلاميات السنهورى باشا] ـ فى مجلدين ـ طبعة دار الوفاء سنة ٢٠٠٦م.

(٢)

من كتابات السنهورى باشا عن:

(أ) الدين والدولة فى الإسلام

(ب) المدنية الإسلامية.. والنهضة الشرقية(*)

(أ) الدين والدولة فى الإسلام(**)

لحضرة الأستاذ المحقق عبد الرزاق بك السنهورى

مدرس القانون المدنى بكلية الحقوق بالجامعة المصرية

* الإسلام دين ودولة * السلطات العامة فى الدولة الإسلامية * ملخص تاريخ هذه السلطات بمصر

أولا: الإسلام دين ودولة

١ - يمتاز الإسلام بأنه: دين ودولة. وقد أرسل النبى ﷺ لا لتأسيس دين فحسب؛ بل لبناء قواعد دولة تتناول شئون الدنيا. فهو بهذا الاعتبار مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبى المسلمين. وهو بصفة كونه مؤسس حكومة، كانت له الولاية على كل من كان خاضعًا لهذه الحكومة، سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، وبوصف كونه نبيًا، لم يكن يطلب من غير المسلمين من الذين تركهم على دينهم الاعتراف بنبوته. ولو أن دعوته عامة شاملة لجميع البشر.

(*) هذه صفحات من كتابات الدكتور عبد الرزاق السنهورى فى موضوعات «الدين والدولة».. و«المدنية الإسلامية.. والنهضة الشرقية».. أما إسلامياته التى جمعناها فلقد طبعتها دار الوفاء سنة ٢٠٠٦م فى مجلدين - نحو ١٠٠٠ صفحة - مع مقدمة ضافية عن مذهبه ورؤيته الإبداعية فى هذه الإسلاميات، التى تسلت الكثير من ميادين الفكر الإسلامى الحديث..

(**) مقال بالعدد الأول من مجلة المحاماة الشرعية - السنة الأولى ١٩٢٩م.

من هنا وجب التمييز بين الدين الإسلامى والدولة الإسلامية . وإن كان الإسلام يجمع الشيئين . وفائدة هذا التمييز فى أن مسائل الدين تدرس بروح غير التى تدرس بها مسائل الدولة ، فالدين ينظر إلى العلاقة بين العبد وخالقه ، وهذه لا تتغير ولا يجب أن تتغير ، فالخالق سبحانه وتعالى أبدىّ أزلىّ لا يجوز عليه التغيير ولا التبديل ، فالعلاقة بينه وبين العبد ثابتة لا تتطور .

أما مسائل الدولة : فالنظر فيها يكون نظر مصلحة وتدبير ، ولها على ما أرى خاصيتان :

(**الأولى**) أنها خاضعة لحكم عقولنا : وقد وهبنا الله تلك العقول لنميز بين الحسن والقبيح . فالأحكام الدنيوية تنزل على حكم العقل ، وتبنى على المصلحة . والعقل هو الذى يهدينا إلى المصلحة . ونحن نبنى عليه ما نسميه علماً ؛ لأن العلم اجتماعيًا كان أو طبيعيًا لا يدرك إلا بالعقل ، فهو الأساس .

ولقد كان النبى ﷺ يستشير فى تدبير الشئون الدنيوية ؛ ذلك لأن تدبير هذه الشئون مبنى على العقل كما تقدم ، والنبى ﷺ كان بشراً مثلنا ، فاحتاج إلى المشورة فيما يكون أساسه العقل . ولذلك نزلت الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

والسيرة النبوية الشريفة تضمنت كثيراً من الأخبار التى تثبت أن النبى ﷺ كان يستشير كبار الصحابة . كأبى بكر ، وعمر ، وغيرهما . استشار ﷺ بعد غزوة بدر فيما يفعل بالأسرى من قريش ، واستعان برأى زعيمى الأنصار فى غزوة الخندق ، لما أراد أن يفرق بين قريش والأعراب ، فعدل عن رأيه بعد الاستشارة ، وأخذ برأى الزعيمين .

ويوجد غير ذلك أمثلة كثيرة مذكورة فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما من كتب التاريخ الإسلامى .

(**الثانية**) : أن الأحكام فى مسائل الدولة تتطور مع الزمان والمكان . فهى تابعة للتطور الاجتماعى الذى يهدينا إليه العلم ، وقد سبق أن هذه الأحكام خاضعة للعلم المبنى على العقل ، فهى تابعة بالضرورة لما يكشفه العلم الاجتماعى من قوانين التطور .

الأحكام الدنيوية تتطور، وقد تطورت بالفعل في عهد النبي ﷺ، وما نظرية الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، والتحريم التدريجي لبعض الأشياء كالخمر، واختلاف المذاهب الفقهية، واختلاف أئمة كل مذهب إلا أثرا من آثار هذا التطور الذي اقتضته المصلحة العامة، والظروف. وإني أذكر على سبيل التمثيل حادثة تشريعية واحدة يرى فيها كيف تطورت الأحكام تبعًا للمقتضيات الاجتماعية والاقتصادية، وقد اخترتها من الحوادث التي وقعت في عهد النبي ﷺ لتكون أبلغ في التدليل.

نعرف أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة، كان معه عدد من المهاجرين، وجدوا أنفسهم في مدينة غريبة دون مأوى ودون مرتزق؛ فشرّع النبي ﷺ - نظرًا لهذه الظروف الاقتصادية الاستثنائية - سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فكان لكل مهاجر أخ من الأنصار يشترك معه في ماله، وفي بيته. وكان لهذه المؤاخاة من الأثر القانوني ما يجعل الأخوين يتوارثان - نظام الأخوة هذا يشبه من بعض الوجوه نظام التبني في بعض الشرائع الأجنبية - واستمر العمل به مدة من الزمن حتى أيسر المهاجرون بما غنموه في غزوة بدر. فتغيرت الظروف التي اقتضت التشريع الأول. وبذلك تطور التشريع نفسه وأبطل النبي ﷺ سنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. واستقل كل بماله. فانظر كيف يتطور التشريع من عمل إلى إبطال، ومن خلق نسب قانوني إلى الرجوع إلى النسب الطبيعي، وذلك تمشيا مع التطور الاقتصادي. وتبعا لما تقتضيه الظروف والمناسبات، وتلمسا للمصلحة في النظم التي تقرر.

٢ - إذا تقرر أن الإسلام دين ودولة، فالقول مع بعض الكتاب[(١)] بأن رسالة النبي ﷺ قاصرة على أمور الدين فقط، وأن شئون الدنيا ليست مندرجة في تلك الرسالة. . وأن محمداً ﷺ كان نبيا لا ملكا. القول بهذا تأويل غير صحيح للرسالة المحمدية، وإنكار دون دليل للحقائق التاريخية الثابتة. ولئن صح أن النبي ﷺ كان في مكة نبيا فحسب، فلقد كان في المدينة زعيم أمة ومنشئ دولة، ولا ضير أن نقول إنه كان ملكا إذا أريد بهذه اللفظة أنه كان رأس الحكومة الإسلامية، ووليا على المسلمين في أمور دنياهم، كما كان الهادي لهم في شئون دينهم. ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - يجعل لأوامره ونواهيه - وهي لا شك من عند الله - جزاء يصيب الناس في

(١) الإشارة إلى الشيخ على عبد الرازق، ولقد سبق رد السنهوري عليه.

أنفسهم وأموالهم في هذه الدنيا، ولم يقتصر على مجرد الوعد والوعيد بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى . .

٣ ـ تبين إذا أن الدين والدولة في الإسلام شيئان مجتمعان . . وأن التمييز بينهما مع ذلك له أهمية كبرى . وإذا اقتصرنا ـ نحن المشتغلين بالقانون ـ على الفقه، وجدنا أن الفقهاء أدركوا ضرورة هذا التمييز، فوضعوا أبوابا للعبادات، وأبوابا للمعاملات، وبذلك فرقوا بين المسائل الدينية، وبين القانون بمعناه الحديث؛ لذلك يجب أن نقتصر من الفقه في أبحاثنا على أبواب المعاملات، فهذه هي الدائرة القانونية . . . وإذا أردنا إلا أن نبقى الشريعة على معناها المصطلح عليه من قديم، من أنها تشمل العبادات والمعاملات، فلنخلق اصطلاحا آخر يدل على ما أردناه ولنسم أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات «بالقانون الإسلامي» ولندخل ضمن هذا القانون إلى جنب هذا الجزء من علم الفقه ـ علم أصول الفقه، وهو يبين لنا مصادر القانون وكيفية استنباط الأحكام من تلك المصادر . ولندخل أيضا في القانون الإسلامي جزءاً من علم الكلام هو المتعلق بمباحث الإمامة، فإن هذا أساس القانون العام . . ولنقسم القانون الإسلامي بهذا التحديد تقسيما إلى قانون خاص، وقانون عام . فالقانون الخاص يشمل القواعد التي تضبط علاقات الأفراد بعضها بالبعض الآخر . فأبواب المعاملات، والأحوال الشخصية تدخل في القانون الخاص . والقانون العام يشمل القواعد التي تسرى على السلطات العامة، وعلاقة هذه السلطات بالأفراد . . وإذا أردنا أن نحدد في كل قسم فروعه سهل علينا دون كبير مشقة أن نجد في القانون الإسلامي الخاص: قانونا مدنيا، وقانون مرافعات، وأساسا لقانون تجارى، وأن نجد في القانون الإسلامي العام: قانونا دستوريًا، وقانونا إداريا، وقانونا جنائيا . ولأمكن أن نكتشف أصولا نبنى عليها: قانونًا دوليا عاما، وقانونا دوليا خاصا .

وأهمية تقسيم القانون الإسلامي هذا التقسيم الحديث: أن ذلك يرتب أبواب هذا القانون ترتيبا أقرب إلى نظام المدنية الحديثة . وأكثر انطباقا على طرق البحث القانونية، بعد أن تخطى علم القانون أدوارًا غير قليلة في سبيل الرقي .

ولا يراد بهذا التقسيم أن تندمج الشريعة الإسلامية في القانون الحديث، وأن تفقد استقلالها، وإنما يراد بهذا تسهيل المقارنة بين الشيئين، وفتح باب لترقية طرق البحث في الشريعة الإسلامية بحيث تتمشى مع القانون الحديث في تقدمه . . .

٤ ـ قلنا إن أساس تقسيم القانون الحديث هو التفريق بين القانون الخاص والقانون العام.. فهل نجد في القانون الإسلامي محورا ترتكز عليه هذه التفرقة؟ لعلنا نجد في تقسيم الأصوليين الحقوق إلى: حق للعبد، وحق لله، وحق مشترك؛ ولكن حق العبد غالب، وحق مشترك، ولكن حق الله غالب. فحقوق العبد، والحقوق المشتركة التي فيها حق العبد غالب، تصلح ـ كما أرى ـ أن تكون موضوعات للقانون الخاص، وبعض حقوق الله، وكذلك الحقوق المشتركة التي فيها حق الله غالب تصلح أن تكون موضوعات للقانون العام..

ثانيا: السلطات العامة في الدولة الإسلامية

نريد من هذه المقدمة أن نقول إنه ما دام لدى المسلمين (قانون إسلامي) فلديهم حكومة إسلامية، والحكومة الإسلامية ـ ككل حكومة ـ تشتمل على ثلاث سلطات: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية.

١ ـ السلطة التشريعية

السلطة التشريعية في الدولة الإسلامية لا يمكن تحديدها إلا بعد بحث واستقصاء. السلطان عندنا نحن المسلمين: هو الله تعالى. لا حد لسلطانه ولا راد لإرادته، فهو الشارع لأمور الدين والدنيا، مشيئته نافذة وأمره قانون، فهو إذا السلطة الكبرى؛ ولكن أوامر الله ونواهيه لا تُعرف إلا بالوحي.. ولما كان الوحي قاصرا على الأنبياء؛ كان علينا أن نتبين إرادة الله ـ عز وجل ـ بواسطة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولقد بلغنا النبي ﷺ كتاب الله الكريم: يتضمن إرادة الله ورسالته إلى عباده. فكان أول مصادر التشريع، وكانت سنته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مفسرة له، فهي: **المصدر الثاني**. ولما كانت الأحكام الدنيوية كما سبق أن قررنا تتطور تبعا لتطور المدنية، وكان لا بد من انقطاع الوحي بقبض الرسول ﷺ، أصبح محتما أن يكون لدى المسلمين مصدر ثالث للتشريع، هو الذي يضمن للأحكام الدنيوية جدتها وتمشيها مع روح الزمن.. كان هذا المصدر هو: إجماع الأمة. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»(١).

(١) رواه الدارمي.

نقف هنا قليلا، وننظر كيف يكون إجماع المسلمين قانونا، والاجماع هو اتفاق المجتهدين في عصر من العصور على حكم شرعي، وليس المجتهدون طبقة من الطبقات كما كان معهودا في طبقة النبلاء. أو في طبقة الكهنة. بل لكل مسلم أن يكون مجتهدا إذا وصل في العلم إلى الاجتهاد.. فمعنى أن الإجماع قانون: أن طائفة من المسلمين ينوبون عن الأمة الإسلامية، ونيابتهم آتية لا بطريق التصويت العام - كالمعتاد في المجالس النيابية الحديثة - بل بطريق: العلم؛ وهذه الطائفة تملك قوة التشريع في حدود الكتاب والسنة. فحكومة المسلمين حكومة علماء.

والعلماء في الأمة الإسلامية - كما يقول ﷺ - هم ورثة الأنبياء.

أما أن العلماء يملكون قوة التشريع في الدولة الإسلامية؛ فهذا أصل من أصول الفقه معروف.. بقي أن نحلله ونعرف مداه.. أراد الشارع الحكيم ألا يترك الأمة دون هاد بعد أن مضى عنها هاديها؛ فلم يجعل لفرد - مهما عظمت سلطته - أن يحل من الأمة محل المشرع. والسيد المطلق - حكومة ليست من تعاليم الإسلام. فالخليفة وهو على رأس الحكومة الإسلامية لا يملك من سلطة التشريع شيئا، ولا يشترك فيها باعتبار أنه خليفة، بل بوصف أنه مجتهد - إذا كان مجتهدا - شأنه في ذلك شأن سائر المجتهدين.. جعل سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية صاحبة السلطان في شئونها ما دامت تستعمل ذلك السلطان في حدود الكتاب والسنة. ولما كان غير متيسر أن يشترك كل فرد من أفراد الأمة في ذلك السلطان. كان لا بد من أن يكون للأمة ممثلون يتوفرون على ما يجب من كفاءة خاصة وهم: المجتهدون الذين يستعملون ذلك السلطان باسمها لا باعتبار أنهم سادة عليها؛ بل وكلاء عنها. فالأمة هي صاحبة السلطان، وهي خليفة الله في أرضه، وتستعمل سلطانها بواسطة وكلاء عنها؛ فإذا أردنا أن نبحث عن السلطة التشريعية في الدولة الإسلامية وجدناها بعد الله سبحانه وتعالى: في الأمة نفسها، لا في فرد من الأفراد، ولا في طبقة من الطبقات.

هل يمكن أن نبني على أصل الإجماع في الإسلام مشروعية المجالس النيابية الحديثة، هذا بحث آخر نرجو أن نوفق إلى بحثه في مقال آخر.

٢ - السلطة التنفيذية

أما السلطة التنفيذية في الإسلام فهي حكومة الخلافة، والخلافة حكومة خاصة تمتاز عن سائر الحكومات بالمزايا الآتية:

(أولا) : إن الخليفة ليس حاكما مدنيا فحسب، بل هو أيضا الرئيس الديني للمسلمين، ولا يتوهم أن للخليفة سلطة روحية شبيهة بما تنسبه النصارى للبابا في روما، فالخليفة لا يملك شيئا من دون الله، ولا يحرم من الجنة، وليس له شفاعة يستغفر بها للمذنبين. هو عبد من عباد الله لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولي أمور المسلمين في حدود معينة. ومعنى أنه الرئيس الديني للمسلمين، أن هناك مشاعر عامة يقوم بها المسلمون جماعة، كصلاة الجماعة، والحج، وهذه لا تتم إلا بإمام: هو الخليفة؛ لذلك نطلق كلمة الإمام خاصة على الخليفة؛ إذا ولي اختصاصاته الدينية، ونطلق عليه لقب أمير المؤمنين إذا ولي اختصاصاته المدنية.

(ثانيًا) : إن الخليفة في استعمال سلطته التنفيذية: يجب عليه أن يطبق أحكام الشريعة الغراء، وليس معنى هذا أنه ملزم بالسير على مذهب خاص من المذاهب المعروفة، فله بل عليه ـ وهو مجتهد ـ أن يراعي ظروف الزمان والمكان، وأن يطلب من المجتهدين أن تجتمع كلمتهم على ما فيه المصلحة لهذه الأمة ـ ولو خالف ذلك كل المذاهب المدونة في الكتب ـ ومعلوم أن إجماع المجتهدين مصدر من مصادر التشريع.

(ثالثًا) : إن سلطان الخليفة: يجب أن ينبسط على جميع العالم الإسلامي. فوحدة الإسلام حجر أساسي في الدولة الإسلامية، ووحدة الإسلام تستتبع وحدة الخليفة. ويجب أن يكون على رأس الإسلام خليفة واحد، وهذه هي الخلافة الكاملة. ولكن الظروف قد تلجئ المسلمين ـ وقد تمزقت وحدتهم ـ أن ينقسموا أممًا، لكل أمة حكومتها، فيجوز تعدد الخليفة للضرورة، ولكن الخلافة هنا تكون خلافة غير كاملة. على أن الخلافة الكاملة يمكن تحققها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلا، بل يكفي ـ على ما أرى ـ أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولا سيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل عنها يكون قاصراً على النظر في الشئون الدينية للمسلمين.

٢ـ السلطة القضائية

أما السلطة القضائية في الإسلام: فهي ليست مستقلة عن السلطة التنفيذية؛ إذ إن

الخليفة يجمع بين السلطتين، وهو الذي يولي القضاة ويعزلهم، ويجوز أن يلي القضاء بنفسه، وكان النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء الأربعة يقضون بين الناس، فلما اتسعت شئون الملك، وكثر عمال الخليفة، صار الخلفاء يولون القضاة في الأمصار والأقاليم، وصار القضاء يستقل شيئًا فشيئًا، حتى كسب له وجودًا متميزا عن دائرة عمال السلطة التنفيذية(١).

ثالثا: ملخص تاريخ هذه السلطات الثلاث بمصر

١ - اندمجت بلادنا المصرية في الدولة الإسلامية بالفتح العربي، وصارت مصر قطرًا إسلاميًا حتى يومنا هذا، وحلت الشريعة الإسلامية محل الشريعة الرومانية، وكان من شأن ذلك أن كثر الفقهاء والمجتهدون في مصر، ومن أعلامهم الإمام الشافعي ﷺ صاحب المذهب المعروف، قرب مذهبه بين المذهبين الكبيرين اللذين سبقاه: مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان - وهو مذهب أهل الرأي - ومذهب الإمام مالك ﷺ - وهو مذهب أهل الحديث - وما زال المجتهدون يتوالون على مصر، حتى أنشئ الجامع الأزهر في عهد الدولة الفاطمية، فضمن للعلوم الإسلامية مركزا ثابتا دائمًا، وجعل لمصر مكانة ممتازة بين الأقطار العربية، ولا شك في أن المصريين وضعوا حجرا كبيرا في بناء الشريعة الإسلامية، وساعدوا كثيرا على إعلائها، على أن ما ينتظر منهم في المستقبل أكبر خطرا مما فعلوه في الماضي، فهم أكبر أمة إسلامية تحمل في عنقها أمانة النهضة بهذه الشريعة الغراء، فتتخطى بها أعناق القرون، حتى يتسلمها الجيل المقبل مجددة حية، فيها قوة تميت جراثيم الجمود وتعيد إليها الجدة والشباب.

٢ - كان من شأن السلطة التنفيذية في مصر أن تبعت دهرا طويلا حكومة الخلافة في المدينة وفي دمشق وفي بغداد، حتى استقل بمصر ولاة معروفون في التاريخ، ونشأت فيها دول للخلافة، ثم رجعت تابعة بعد أن كانت متبوعة، وانتهى بها الأمر أن كانت فتحًا للعثمانيين من الأتراك، حكموها حتى جاء محمد على الكبير، فأخذ مقاليد الأمور، وأسس الدولة المصرية التي نعيش في ظلالها اليوم.

---

(١) المجلة، نظرية الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية لا يزال فيها الخلاف إلى الآن. فبعضهم يرى الفصل بينهما وبعضهم لا يراه. وحجته أن القضاة تعينهم السلطة التنفيذية، وأن تطبيق القانون لا يخرج عن كونه تنفيذا له. ولكل رأي أنصاره.

٣ ـ أما القضاء فى مصر فكان يليه قضاة ترسلهم حكومة الخلافة ، وكلما استقلت مصر بشئونها استقلت بقضائها ؛ حتى جاء محمد على باشا فأنشأ مجالس شرعية للمسائل الشرعية ، ومجالس إقليم للشئون الإدارية والمالية . وجعل على رأس هذه المجالس مجلس الأحكام ومقره العاصمة .

ولما وُلّى سعيد باشا ، أنشأ مجالس محلية للقضاء نظمت فى عهد إسماعيل باشا ، على أن الاضطرابات والفوضى كانت من مميزات القضاء فى مصر . وزاد الأمر تعقيدا وجود الامتيازات الأجنبية ، فسعى نوبار باشا سعيه المعروف حتى أنشئت المحاكم المختلطة فى دائرة اختصاص معين ؛ فلما استقام شأن القضاء فى هذه الدائرة ، كان مشجعا للحكومة المصرية على إنشاء المحاكم الأهلية .

أما القضاء الشرعى : فقد كان على رأسه قاضى مصر ، يعينه السلطان العثمانى (حتى سنة ١٩١٤ لما انقطعت التبعية بين مصر وتركيا) وقد سعى سعيد باشا لدى الباب العالى حتى جعل تعيين باقى القضاة من حقوق الحكومة المصرية ؛ ولكن من جهة أخرى أصبح القضاء الشرعى ـ بعد أن كان شاملا لاختصاص عام ـ قاصرًا على الأحوال الشخصية للمسلمين ، بعد أن انتقصه القضاء المختلط ، والقضاء الأهلى من أطرافه . . . ولعل تضييق دائرة القضاء الشرعى جعلت من السهل ـ نوعًا ـ بذل العناية فى إصلاحه ؛ فصدرت عدة لوائح لترتيب المحاكم الشرعية . وأهمها لائحة سنة ١٨٨٠ ولائحة سنة ١٨٩٧ ولائحة سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٠ وكل لائحة تتلو سابقتها تعدل وتنقح فيما يستحق التعديل والتنقيح ، وقد امتزجت فى هذه اللوائح الشريعة الإسلامية بالقانون الحديث امتزاجًا دلت التجربة على أنه كان موفقًا ، وهو يثبت من ناحية أخرى «أن الشريعة الإسلامية إذا صادفت من يُعْنَى بأمرها ، تستطيع أن تجارى القانون الحديث دون تقصير ؛ بل وتفوق عليه فى بعض المسائل » .

* * *

(ب) المدنية الإسلامية .. والنهضة الشرقية

[لقد رأى السنهورى الإسلام منهاجا شاملا . .

* فهو دين ودولة . .

* وشريعته فقه وقانون . . كما هى عبادات وقيم وأخلاق . .

* وهو - أيضا - مدنية وحضارة لكل شعوب الشرق - التى غلب الإسلام على عقائد أكثريتها ، وصبغ ثقافتها ومدنيتها وحضارتها - يستوى فى هذه المدنية الإسلامية المسلمون من أبناء الشرق ومواطنوهم الكتابيون . .

* ولأن الإسلام مدنية - أيضا - لكل شعوب الشرق . . فهو مشروع وصيغة وجامع لنهضة كل هذه الشعوب].

* * *

[من أوراقه الشخصية]

* أريد أن يعرف العالم أن الإسلام دين ومدنية ، وأن تلك المدنية أكثر تهذيبا من مدنية الجيل الحاضر ، وأنه إذا أعجزنا أن ننادى باسم الدين ؛ لأن عصر الأديان قد تباعد ، فمن مصلحة العالم - وقد فسدت قواعد الاجتماع التى يسير عليها - أن يلتفت إلى مدنية نمت وازدهرت فى عصور كان الجهل فيها مخيما على ربوع العالم الغربى .

نحن مسلمون للآخرة والدنيا : أما إسلامنا للآخرة فشىء نحفظه فى قلوبنا ، وأما إسلامنا للدنيا فهذا ما ننادى به أن يحترم(1) .

* أرى أن الأمم الشرقية أمامها أمران لا محيص عنهما : إما أن تجرى مع المدنية الغربية ، وهذا الطريق ليس مأمونا . وإما أن تختط لنفسها مدنية تصل فيها الماضى

---

(1) ليون - فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٢م .

بالحاضر، مع التحوير الذى يقتضيه الزمن، **فتحفظ لنفسها شخصيتها**، وتستطيع أن تجارى (تسابق) الغرب، بدلا من أن تجرى وراءه[1].

* مما استلفت نظرى فى تعريف الأمة: ما قرأته مرويًا عن الفيلسوف الفرنسى «رينان»: **إن الذى يكوّن الأمة ماضيها**، وبإرادة أفرادها أن يعيشوا متحدين[2].

* أرى أن الغرب لا يَحْسُنُ تقليده إلا فى الأشياء المادية، فهو متفوق فيها تفوقا لا ينازع فيه. **أما الأشياء المعنوية فيحسن للشرق أن يواصل تاريخه المجيد دون أن يقلد الغرب فى الجوهر، وإن أخذ منه الشكل**، وقد سرنى أن قرأت اليوم فى صحيفة مصرية رأيا سياسيا أفغانيا يتفق مع رأيى هذا[3].

* هناك رأى يقول: إن على مصر أن تنظر إلى المدنيات الغربية فتختار من كلٍّ أحسنه. وأرى أن أكبر ضعف فى هذا الرأى أنه ينسى أن مصر لها مدنية أصيلة، وحاجتها الآن هى جعل هذه المدنية ملائمة للعصر الحاضر. وليست مصر الدولة الطفيلية الحديثة التى ترقّع لها ثوبا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون[4].

* وددت لو تمكنت - قبل موتى - من زيارة كل بلاد العالم الإسلامى[5].

* أثبت هنا كلمة بالفرنسية قرأتها لأحد الأساتذة الفرنسيين يعرِّف بها الأمة (الجماعة) الإسلامية بقوله: «عندما نستعمل اصطلاح الأمة الإسلامية فإننى لا أعنى بذلك الإشارة إلى مجتمع من المسلمين فقط، وإنما أقصد بذلك **مجتمعا له طابع فذ من المدنية**، قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معا جنبا إلى جنب تحت **راية الإسلام**، والتى قدمت لنا بذلك **تراثا مشتركا لجميع سكان الشرق الإسلامى**. بنفس الصورة، وبنفس الأسباب التى اعتبرنا بها حضارة الغرب مسيحية، وهى تراث مشترك لا يتجزأ، ساهم فيها جميع الغربيين بمن فيهم اللادينيون والمفكرون الأحرار والكاثوليك والبروتستانت»[6].

---

(١) ليون - فى ١٧ أبريل سنة ١٩٢٣م.
(٢) ليون - فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٣م.
(٣) ليون - فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م.
(٤) ليون - فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٣م.
(٥) ليون - فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.
(٦) ليون - فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

* لا أرى ما يمنع التوسع فى معنى «المدنية الإسلامية» على النحو الذى قرره الأستاذ الفرنسي الذى نقلت قوله بالأمس، وأرى أن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية[1].

* آفة الجامعات الشرقية فى مصر فريقان: فريق يتمسك بالماضى الإسلامى تمسكًا أعمى ولا يتطور مع العصر، فيجلب بذلك عداوة العالم المتمدين، ويضحى بالأقليات الدينية النشطة المنبثة فى الشرق الأدنى، وهذه تلجأ إلى أوروبا طمعًا فى حمايتها، وبدلاً من أن تبذل مجهوداتها معنا تنقلب علينا، وفريق يريد أن يقطع حبل الماضى فلا يعود له به صلة، وعند ذلك يتمكن من إدخال المدنية الأوروبية فى مصر حتى تصبح جزءاً من أوروبا، دون أن يراعى تقاليد البلاد وتاريخها ومزاجها الشرقى. وكلا الفريقين خطر على الجامعات الشرقية.. على أنه يجب الاعتراف بأن حاجتنا إلى أوروبا الآن كبيرة، ولكن هذا ليس معناه تضحية تقاليدنا القومية وإدخال مدنية غريبة عنا فى بلادنا الشرقية؛ فنعدم بذلك روحنا القومية؛ فإن الذى يربط الأمة برباط قوى هو الماضى، ولن تستطيع أمة أن تتخلص من ماضيها إلا تاهت فى ظلمات لا تهتدى فيها. وأحرص ما يجب أن يحرص عليه المصرى - فى نظرى - هو صبغته الشرقية (أى الإسلامية) مهما جرفها تيار أوروبا القوى، فإننا نستطيع تغيير كل شيء إلا نفوسنا وإيماننا بالله[2].

* إن الجيل الذى أنا منه تتلمذ فى الوطنية لمصطفى كامل قبل أن يتتلمذ لزغلول، وإنى مدين بشعورى الإسلامى لرجال آخرين غير هذين الرجلين أذكر منهم الكواكبى وجاويش وفريد وجدى، أما عبده وجمال الدين فلم أحضرهما فى حياتهما وتركا من الكتابة شيئًا قليلاً لم يمكنى من أن أتأثر بأفكارهما، ولكنهما تركا أبلغ الأثر فى نفسى، ويعتبرهما العالم الإسلامى بحق أكبر المصلحين فى العصر الحديث[3].

---

(١) ليون - فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

(٢) باريس - فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

(٣) باريس - فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣م.

* الشرق يتنبه ويريد الآن أن يقوم بقسطه من العمل على سعادة العالم ورفع شأن المدنية بعد أن سكت عن ذلك مدة، ولكنه يريد أن يبذل مجهوداً جديا، وأن يختط لنفسه طريقًا لا أن يكون مقلداً للغرب، ويريد أن يميز مدنيته الجديدة شيئان:

١ ـ أن تكون تلك المدنية ذات صبغة شرقية تصل الماضى بالمستقبل.

٢ ـ أن تكون تلك المدنية بمثابة رد فعل للمادية المتغلبة اليوم على المدنية الغربية، فقد غالى الغربيون فى ماديتهم وأصبح ضحايا هذه المدنية أضعاف المتنعمين بها، فالعالم ينتظر الآن من الشرق أن ينقذه من تلك الوهدة. ومن أكفأ من الشرق فى القيام بهذه المهمة، وهو الذى كان مبعث النور والخير، ومهبط الحكمة والأديان؟! فلا تقولوا أن يقلد الغرب فى تركه للدين، فأنتم تسيئون للمدنية أكبر إساءة، وقد بدأت المدنية بالدين وستنتهى إلى الدين، ولكن قولوا له أن ينقى الأديان مما أحاطها من الأوهام، وأن يجعلها مكملة بعضها للبعض[1].

* تعرضت الليلة لخطر دون أن أشعر، ولما شعرت به فكرت فى الأمر، وساءلت نفسى.. ترى لو مت فما كان يحدث؟ خطر فى بالى ما أوفره على نفسى من آلام الحياة وعثرات الأمل بالانتهاء من حياة لا بد فيها من ذلك، ثم خطر على بالى ما أخسره من ساعات السرور والاغتباط بالانتهاء من حياة فيها شىء من ذلك، ووازنت بين المكسب والخسارة فغلبت المكسب من وجهة نظرية، وإن كان من الوجهة العملية لا يهون على النفس فقد الحياة؛ إلا إذا أصبحت تلك الحياة لا تطاق.. ثم فكرت بعد ذلك فوجدت أنه يجب ألا يدفعنى إلى استبقاء الحياة ما قد أناله منها من السرور والاغتباط؛ فإن وراء ذلك من الآلام ما يكفى لموازنة السرور.. والمثل الذى يجدر بمن يفكر أن يتمسك به هو ألا ينظر فى تقديره للحياة، وما تكسبه نفسه منها وما تخسره، ولكن فيما يستطيع أن يقوم به من الخير للغير: لأسرته ولبلاده وللإنسانية، إن الذى يميز الشرق عن الغرب ليس هو الدين، كما يدعى البعض، ففى الشرق مسلمون، ومسيحيون، ويهود وغيرهم، والكل فى التأخر سواء، والغربى ينظر إلى الشرقى ـ مهما كان دينه ـ نظرة الراقى إلى المتأخر، والقوى إلى الضعيف، فهل يستطيع الشرقيون أن يشعروا بأنهم متضامنون فى شرقيتهم مهما اختلفت أديانهم، وأن يجعلوا من الأديان لا مصدرا

---

(١) باريس ـ فى ٤ يناير سنة ١٩٢٤م.



* يمتاز الإسلام على المسيحية ـ على ما أعتقد ـ فى أن المسلمين استطاعوا أن يبنوا مدنية زاهرة مع محافظتهم على عقائد الإسلام، أما المسيحيون فلم يستطيعوا أن يتمدنوا إلا عندما تركوا الدين المسيحى بالفعل[1].

* يختلف الدين المسيحى عن الدين الإسلامى: بأن الأول لا يدفع إلى العمل، وإذا كان لا بد للمسيحى الأمين على مسيحيته من أن يعمل؛ فذلك بأن يدير خده الأيسر ليتلقى الصفعة التى تلقاها على خده الأيمن[2].

* لا تتناقض ـ مطلقًا ـ الروح الشرقية الإسلامية مع محبة الإنسان وخير الإنسانية، فنحن ـ الشرقيين ـ نريد أن ندافع عن كياننا ومدنيتنا الشرقية الإسلامية، ولكن هذا لا يمنعنا من حب الغربيين باعتبارهم إخوانًا لنا فى الإنسانية؛ ولا نريد بهذا الدفاع أن نقلق سلام العالم؛ بل أن نثبت دعائم هذا السلام الذى لا يتم إلا إذا رفع الظلم عن الأمم المظلومة، والشرقى يعتبر نفسه عضواً فى الجمعية البشرية.. يحب خيرها وسعادتها، ويعمل لذلك[3].

* أعتقد أن التربية الدينية مفيدة فى سن الصغر؛ حيث لا يتمكن العقل الناشئ من التفكير والتردد الذى يزعزع فى نفسه الفتية جذور الفضائل، حتى إذا شب العقل وتمكن من التفكير أمكنه أن يفكر على أساس الفضيلة التى تبقى وتنمو فى نفسه، ولا يغير تفكيره من جوهر تلك الفضيلة، ولكنه يجد من التفكير الحر مساعداً على الدفاع عنها بروح غير تقليدية (بالمعنى الضيق من التقليد) ولكنها روح تعترف على كل حال بعجز الإنسان وبحاجته إلى الفضيلة[4].

* الأمة الضعيفة مولعة بتقليد الأمة القوية التى تحتك بها كما قال ابن خلدون، ولكن لما كان تقليد الفضيلة أصعب من تقليد الرذيلة.. كان أول ما تأخذ الأمة الضعيفة من الأمة القوية الرذائل التى يسهل تقليدها.

---

(١) باريس ـ فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤م.
(٢) باريس ـ فى ١٦ فبراير سنة ١٩٢٤م.
(٣) باريس ـ فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٢٤م.
(٤) باريس ـ فى ٩ أبريل سنة ١٩٢٤م.

* من الحزم إذا رأى إنسان ما لا بد من وقوعه مما يخشاه ألا يأتي أي مجهود لمنع ما لا طاقة له بمنعه؛ بل عليه أن يمهد السبيل لتخفيف أثر ما سيقع بقدر المستطاع مع التسليم بوقوعه[1].

*** هذه رءوس موضوعات هامة أسجلها هنا حتى يتيسر لي بحثها في المستقبل: -**

١ ـ كيف كانت الجماعات الشرقية قبل انتشار الإسلام، وعلى أي أساس تكونت هذه الجماعات.

٢ ـ نسبة تأثير الرابطة الإسلامية إلى تأثير الرابطة الجماعية في هذه الجماعات في الماضي.

٣ ـ ما يجب أن تكون هذه النسبة في المستقبل.

٤ ـ مهما كانت هذه النسبة قوية أو ضعيفة.. فالرابطة الإسلامية يجب أن تفهم بمعنى المدنية الإسلامية، أساس هذه المدنية الشريعة الإسلامية، وفقه هذه الشريعة كثوب راعى الشارع في صنعه جسم من يلبسه، وكان صغيرا، ولحظ في صنعه نمو هذا الجسم في المستقبل، فبسط في القماش؛ بحيث يمكن توسيع الثوب مع نمو الجسم، ولكن هذه الحقيقة غابت عن عامة المسلمين فانقسموا فريقين: **أحدهما** لبس الثوب على ضيقه فاختنق، **والثاني** لم يطق هذا الضيق فمزق الثوب ولبث عاريًا، على أن الثوب صالح للتوسيع دون أن يضطر لابسه إلى الاختناق أو التمزيق[2].

* في مصر ـ في الوقت الحاضر ـ يمكن أن نقول: إن اللغة العربية تدخل فيها أساليب حديثة في أغراض مختلفة، ففي مبدأ هذا القرن دخل في اللغة العربية أسلوب اللغة العملية في العلوم الاجتماعية المختلفة. وقبل ذلك دخل أسلوب اللغة السياسية، وكذلك أسلوب اللغة الخطابية ونشر الدعوة، ولا شك في أن الأفكار والتراكيب الغربية أثرت كثيرا في ذلك. ويحسن أن يتقصى باحث هذه الأساليب المختلفة ويتتبع طريقة أصولها في اللغة العربية، وما يجب أن يصنع لترقيتها، مع عدم الخروج عن روح اللغة العربية[3].

---

(١) سان جالجلف ـ في ٧ أغسطس سنة ١٩٢٤م.

(٢) لاهاي ـ في ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٤م.

(٣) لاهاي ـ في ١ سبتمبر سنة ١٩٢٤م.

* من الوسائل العلمية - على ما أرى - فى تقوية الرابطة الشرقية (الإسلامية) أن تنتشر وتقوى النهضة اللغوية، أى اللغة العربية واللغتان الشرقيتان (الإسلاميتان) الأخريان التركية والفارسية. ومن وسائل إنجاح هذه النهضة وتعميمها، عقد مؤتمرات لتنظيمها وتشجيعها، وأقترح هنا شيئا من ذلك:

أولا: مؤتمر للغة العربية ينعقد فى القاهرة: تؤلف أولا من المصريين لجنة تحضيرية لترتيب أعمال المؤتمر، ووضع البرامج اللازمة لبحثها فى المؤتمر..

وبعد ذلك ينعقد المؤتمر ويقسم أعماله بين لجان ثلاث على النحو الذى اتبعته اللجنة التحضيرية، ثم يجتمع فى جلسات عامة ويتخذ ما يصل إليه من النتائج على شكلين:

(١) قرارات ينفذها المكتب الدائم (الذى ينشأ كما تقدم) كوضع مؤلفات فى العلوم المختلفة بتكليف علماء إخصائيين بذلك، وطبع كتبهم ونشرها فى الأقطار العربية، وتأليف مجمع لغوى لوضع الألفاظ التى تنقص اللغة العربية فى العلوم المختلفة، وتأليف مجمع أدبى لتشجيع الآداب العربية وتجديدها؛ بحيث تتفق مع روح العصر الحاضر، وإنشاء المكتبة المشار إليها والتى تلحق بالمكتب الدائم، وإنشاء ما يُرى إنشاؤه من المجلات والصحف العربية لخدمة اللغة (وعلى ذكر الصحافة قد يكون من المستحسن أن ينضم إلى المؤتمر صحافيون من كل البلاد العربية، ويكوِّنون لجنة خاصة بهم للنظر فى ترقية الصحافة العربية، وإيجاد روابط الاتصال بينها. أو يكون مؤتمر الصحافة العربية خاصا بالصحافة، وينعقد فى وقت آخر) وغير ذلك من القرارات الموصلة للغرض.

(٢) توصيات يقوم بتبليغها المكتب الدائم إلى الحكومات العربية بالإصلاحات التى يرى المؤتمر إدخالها فى برامج التعليم للنهوض باللغة العربية وآدابها.

ثانيا: مؤتمر للغات الشرقية (الإسلامية): وهذا ينعقد بعد انعقاد مؤتمر اللغة العربية، ولا أطيل البحث فيه الآن، وإنما يمكن القول - على وجه الإجمال - إنه أيضًا يسبقه لجنة تحضيرية، ويكون الغرض من المؤتمر نشر اللغات الشرقية فى البلاد الشرقية، وإنشاء المعاهد اللازمة لذلك فى هذه البلاد، والاجتهاد فى جعل هذه اللغات من اللغات التى تدرس فى مدارس الحكومات، والذين يشتركون فى هذا المؤتمر يكونون

مبدئيا مندوبين من مؤتمر اللغة العربية؛ لتمثيل جميع البلاد العربية، وعلماء من الأتراك والفرس والأفغان والحبشة إن أمكن(١).

* العروبة هي الغاية العليا التي تسعى لتحقيقها البلاد العربية في الوقت الحاضر، ولا شك في أنها غاية سامية، وأنها قابلة للتحقيق؛ فإذا اقترن بهذه الفكرة الأساسية فكرتان تساعدانها هما فكرتا: الإسلام والشرق، هيأ ذلك للعروبة خير الظروف الملائمة(٢).

* البلاد العربية إزاء المدنية الغربية تجتاز مرحلة انتقال دقيقة.. ففي هذه البلاد تقوم الطوائف المحافظة على القديم وتعادي الغرب ومدنيته. وإلى جانب هذه الطوائف المحافظة ـ بل على النقيض منها ـ تقوم الطوائف المفتونة بالمدنية الغربية تحاول أن تقلد هذه المدنية تقليدا أعمى.. وقد يكون من علائم الرقي والنضج في بلد عربي أن يقوم ما بين هذين النقيضين ـ طائفة المحافظين على القديم وطائفة المفتونين بالمدنية الغربية ـ طائفة وسطى تستبقي التقاليد العربية في كل ما هو صالح، وتتمثل المدنية الغربية وتمزجها بالمدنية العربية مزجا موفقا يحمل طابع الأمة وتتجلى فيه روحها.. عند ذلك تصبح هذه الطائفة الوسطى هي نقطة الارتكاز، إليها تتقدم العناصر الصالحة من طائفة المحافظين، وإليها ترجع العناصر الصالحة من طائفة المتفرنجين(٣).

* أقرأ الآن تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، وما كان من مناوءة الدول الأوروبية لتركيا واقتناصها ممتلكاتها واحدة بعد أخرى. وفرضها عليها شروط الغالب، سواء كانت غالبة أو مغلوبة، أقرأ كل هذا فلا يدهشني منه ما أظهرته أوروبا من التعصب والجور، ولا ما استحلته من ضروب الخيانة والغدر، ولا ما انتهزت من فرصة ضعف تركيا لتغرس فيها أنيابها فتمتص دماءها قطرة قطرة بدعوى أنها تفصد منها الدم الفاسد. كل هذا لم يدهشني، إنما يدهشني أن أرى المسلمين يتعجبون مما أظهرته أوروبا من الوحشية تحت ستار المدنية كأنهم ـ أيقظهم الله من سباتهم ـ يجهلون أن المدنية والإنصاف والعدالة والقانون ألفاظ مترادفة توجد في المعاجم وتسمع على

(١) لاهاي ـ في ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٤م.
(٢) دمشق ـ في ٣ فبراير سنة ١٩٤٤م.
(٣) دمشق ـ في ٩ مايو سنة ١٩٤٤م.

ألسنة الساسة والكُتّاب، وإذا بحثت عن مدلولها لم تجده. ولا تجد أمامك غير القوة فى هذا العالم، فهى التى يتخذها الظالم سلاحًا فيسمى منصفًا، وهى التى يتدرع بها الوحش الهمجى فيعد فى أعلى طبقات المدنية. فبارك الله فى القوة.. فهى سلاح من يريد الحياة..

نعم إنى لا أدهش مما أصاب الدولة العلية من أوروبا، فإن الذى تم كان على وفق السنن الطبيعية، وأن القوى إذا زاحم الضعيف فلا ينتظر هذا منه مبرراً لاغتيال حقوقه أكثر مما قدمه الذئب للخروف الذى عكر عليه الماء... وأن الخروف ليكون فى أقصى درجات البلاهة والسذاجة إذا قدر فى نفسه أن الذئب قد يعيش معه فى صفاء، وأن ينزلا معًا على حد المساواة، وما له إلا أمر واحد ليأمن غائلة الذئب: عليه أن يخلع قرونه التى تفتت، وأن يتخذ له قرونًا من حديد يستطيع أن يخرق بها أحشاء الذئب؛ إذا حدثته نفسه بالاعتداء عليه[1].

* أتمنى أن تكون جمعية أمم شرقية إلى جانب جمعية الأمم الغربية[2].

* قرأت اليوم فى جريدة مصرية خبر محالفة عقدها الأفغان مع العجم. ليس فى الخبر ما يبعث على الأمل فى نتيجة عاجلة منتجة، ولكنه يبث فى نفسى أملا فى مستقبل للشعوب الإسلامية بغير حاضرهم، وعادت إلى نفسى آمال فتى صغير كان يسير وراء الخيال، ثم آمال شاب يافع بدأ يتروى بشىء من التعقل.

كنت أحلم صغيرا بالجامعة الإسلامية، وكنت أتعشقها، ولم تكن أمامى إلا رمز الحقيقة.. مبهمة خالية من كل تحديد ووضوح.. أما الآن فأراها فى صورة أخرى أقل إبهاما وأكثر تحديدا.. على أن دون تحديدها تحديدا كافيا سنين من التجارب والدراسة أرجو أن أجتازها[3].

* وددت لو وفقنى الله إلى خدمة بلادى فى الوجوه الآتية:

١ ـ أشترك فى عمل لإنهاض الشريعة الإسلامية وجعلها صالحة للتقنين فى الوقت الحاضر.

---

(١) ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨م.

(٢) ليون ـ فى أول أغسطس سنة ١٩٢٣م.

(٣) ليون ـ فى ٢٣ يناير سنة ١٩٢٢م.

٢ ـ أشترك فى نهضة اقتصادية ومالية فى مصر .

٣ ـ أشترك فى نهضة لإصلاح طرق التربية والتعليم ، وما يدخل فى ذلك من تربية المرأة وإصلاح حالتها الاجتماعية .

٤ ـ أشترك فى نهضة لإصلاح اللغة العربية .

هذه النهضات الأربع نحن فى أشد الحاجة إليها . وفقنى الله إلى أن آخذ بنصيبى فى ذلك ، وأن أقوم بما يجب علىّ مما يتسع له مجهودى[١] .

* كلما تقدمت فى السن ازداد إيمانى وتعلقى بقيام الشرق الإسلامى من نومه ومناهضة الطامعين فيه ، وأمنيتى ألا أموت قبل أن أرى الإمبراطورية البريطانية تتمزق[٢] .

* يطلب الشرق من الغرب أن يتحمل من قسطه من المسئولية فى مدنية العالم ، وفى تقدم العلوم البشرية ، وهو طلب عادل لا يستطيع الغرب أن ينكره على الشرق ، وهو واجب على الشرق قام به فى الماضى ، وحالت فترة خمول يستيقظ الآن منها ليواصل مجهوده . ويقول الشرق للغرب : إن من مصلحتك أن أستيقظ أنا من نومى ، فما جلب الحروب والرزايا على الغرب إلا نوم الشرق وصلاحيته لأن يكون محلا للتنازع بين أمم الغرب . فإذا نهض الشرق انعدمت أسباب أغلب الحروب التى تقوم فى أوروبا ، إذن فمن مصلحة الغرب أن يقوم الشرق ، والأمم الغربية الرشيدة لا ينقصها لتدرك هذه الحقيقة إلا أن تُراجع التاريخ ، ولا تنقاد لآراء الحكومات والمستعمرين والماليين والتجار . ثم يقول الشرق لأبنائه : إن نهضتى هى نهضة دين ، وتقوم على سائر الأديان ، فإنى مَقَر الأديان الثلاثة ، وكلها من عند الله ، وهى نهضة لجميع الأمم الشرقية على اختلاف أديانها ، وكل أمة تقوم بشأنها ، مع عقد محالفات بين الأمم الشرقية من شأنها أن تقوى الروابط العلمية والاقتصادية والسياسية ، وتكون عند الضرورة معاهدات دفاعية ضد المعتدى . فهل قدر الله للأمة المصرية أن تعطى مثالاً صالحًا للأمم الشرقية فى ذلك؟![٣] .

---

(١) ليون ـ فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٢م .

(٢) ليون ـ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢م .

(٣) ليون ـ فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٣م .

* ألخص إذن نقطتين في بروجرام نهضة الشرق:

١ - ليس قيام الشرق معناه شن الحرب ضد الغرب، وليس في نهضة الشرق ما يتناقض مع الاستفادة من علوم الغرب ومدنيته؛ بل لا يزال الشرق حتى الآن في حاجة إلى ذلك، والشرق يستعين في قيامه بما استفاده من مدنية الغرب، كما استعان هذا في نهضته من قبل بمدنية الشرق. فلا يقلق الغرب من أن يرى الشرق يحاول النهوض؛ فإن هذا في مصلحة الغرب نفسه؛ إذ يقلل الحروب بسد باب المطامع، وتوجد إلى جانب الغرب أمم فتية ناشئة تقوم بنصيبها في مدنية العالم، وتقدم العلوم.

٢ - ليس قيام الشرق معناه قيام دين على دين أو إنشاء إمبراطورية واسعة تحكم أمم الشرق وتناصب أمم الغرب العداء، فالدين لا يمكن أن يسود إلا في الشرق؛ لأن الشرق مقر كل الأديان، والإمبراطورية الواسعة من آثار التاريخ القديم، وتطور الإنسانية لا يدع مجالاً للأحلام الفردية، وإنما أمم الشرق تريد أن تنهض كل أمة تقوم بشأنها، وأن يوجد بينها تحالف لرقيها الاقتصادي ولرد المعتدي.

وأضيف إلى هاتين النقطتين نقطة ثالثة هي أنه قد يكون من الصواب أن يجعل من الأمور الأولى التي يقوم بها في نهضة الشرق بعد استقلال شعوبه بث حركة علمية (إحياء العلوم الشرقية) تؤسس على علوم الشرق القديمة مع بث روح ما استفاده الغرب من التجارب حتى الآن؛ فليس للعلم وطن، وفي الوقت ذاته يعمل على تنمية الموارد الاقتصادية في كل بلد من البلاد الشرقية حتى تتخلص من الاستعمار الاقتصادي الذي لا يقل خطراً عن الاستعمار السياسي(١).

* أرى أن الغرب لا يحسن تقليده إلا في الأشياء المادية، فهو متفوق فيها تفوقاً لا ينازع فيه. أما الأشياء المعنوية فيحسن بالشرق أن يواصل تاريخه المجيد دون أن يقلد الغرب في الجوهر، وإن أخذ منه الشكل(٢).

* أرى أنه يمكن البدء عملياً في نهضة الشرق الأدنى بالسعي في جمع مؤتمر (في القاهرة أو في الأستانة) يضم مندوبين من مصر وتركيا والعجم والأفغان والحجاز، وهي البلاد الشرقية (الإسلامية) المستقلة ولو نظرياً. ويقسم هذا المؤتمر إلى ثلاث لجان:

---

(١) ليون - في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م.

(٢) ليون - في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م.

اللجنة الأولى : مهمتها وضع أصول للقانون الدولى العام للأمم الشرقية (ويقتدى فى ذلك بمثال الجمهوريات الأمريكية التى عقدت عدة مؤتمرات للبحث فى تقوية الجامعة الأمريكية، آخرها عقد فى السنة الماضية، ويحسن الاطلاع بالتفصيل على طريقة العمل التى اتبعتها هذه المؤتمرات والنتائج التى وصلت إليها؛ حتى نستفيد بما يمكن الاستفادة منه من تجارب غيرنا)، ويمكن من الآن أن يتوقع الشرقى وضع بعض أصول فى هذا القانون الدولى : منها عدم مشروعية الحرب بين الأمم الشرقية؛ وإيجاد هيئة تحكيم دائمة، ووضع قوة تنفيذية تحت تصرفها بشكل ما، واتخاذ مبدأ للأمم الشرقية يشبه مبدأ مونرو للجمهوريات الأمريكية؛ ويتلخص فى أن الأمم الشرقية لا تتدخل فى أى تنازع بين الأمم الغربية؛ إلا إذا كان شرفها أو مصالحها رهنًا لهذا التنازع، وفى الوقت ذاته يمكن لأية أمة شرقية أن تنظر بعين القلق لأى تدخل من الأمم الغربية فى شئون الأمم الشرقية، وكل هذا لا يتنافى مطلقًا مع حسن العلاقات والتفاهم الحسن بين الشرق والغرب، وتعاضد الجميع على تقدم الإنسانية والعلم.

واللجنة الثانية : تكون لجنة مالية تبحث فى الطرق اللازمة للتعاون على تنمية الموارد الاقتصادية للأمم الشرقية، ووضع اتفاق لاتحاد جمركى بين هذه الأمم، والنظر فى تأليف شركات من الأفراد تعطى الأفضلية على غيرها من الشركات فى القيام بالمشروعات التجارية والصناعات المختلفة، ووضع اتفاق تشترك بمقتضاه الأمم الشرقية فى إنشاء طرق المواصلات المختلفة بينها تصل البعض بالبعض من سكك حديدية وتليفونات وتلغرافات وأتومبيلات وطيارات، وغير ذلك مما وصل إليه العلم الحديث، والنظر فى إنشاء مصارف شرقية تشجع الصناعة والتجارة والزراعة إلى غير ذلك من المسائل الاقتصادية الهامة.

واللجنة الثالثة : تكون لجنة علمية، تضع أساسًا لنهضة علمية عامة دعامتها العلوم الشرقية القديمة، مع بث روح العصر فيها، والاستفادة من علوم الغرب بالقدر الذى يتلاءم مع عادات الشرق وتقاليده، ولا بأس من جعل أساس القانون المدنى الشريعة الإسلامية فى الجزء المدنى منها . . البعيد عن العقائد والدين . . مع النظر فى الطرق اللازمة للسير بالشريعة حتى تصل إلى القرن الذى نعيش فيه، ومتى كانت الشريعة أساسًا للقوانين المدنية فى الأمم الشرقية سهل على اللجنة العلمية وضع مشروع للقانون الدولى الخاص الموحد . . تطبقه كل الأمم الشرقية على السواء . . وتستطيع اللجنة

العلمية وضع قواعد وعقد مؤتمرات علمية من وقت لآخر. والمضي في بث تعليم اللغة العربية في البلاد التي لا تتكلم بها واتخاذها لغة رسمية للمؤتمرات والحكومات، وإنشاء مجامع علمية لغوية وفنية.

هذه بعبارة مختصرة الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها بحذر وتمهل وإمعان، فإذا أحسناها كانت أساسًا للنهضة العامة.

وأرى أنه قبل تقرير عقد هذا المؤتمر يجب أن تبث هذه الفكرة في الأمم الشرقية الخمس التي عددتها حتى تنضج في أوساطها المختلفة، وحتى تتمكن فئة من كل أمة من بحث المشروع من جميع نواحيه، وإعداد تقارير مفصلة في كل نقطة من نُقَطه، ولا أقل من عام أو عامين لتوافر ذلك؛ فإذا نضجت الفكرة وتم إعداد التقارير لدى كل أمة نظر في عقد المؤتمر، وفي الجهة التي ينعقد فيها، ولا أتعرض من الآن للفصل فيما إذا كان عقد هذا المؤتمر يكون بصفة رسمية من جهة الحكومات أو بصفة غير رسمية من جهة الأمم، فإن هذا ـ على ما أرى ـ أهميته في الشكل دون الجوهر، وعلى كل حال؛ فإذا رأينا أنه إذا توافر عقد المؤتمر بصفة رسمية فيحسن تأليف لجان غير رسمية إلى جانب اللجان الرسمية تكون أكثر حرية من هذه في مباحثها فتساعدها، وقد لا يكون غريبا عن أعمال هذا المؤتمر أن يبحث في مسألة الخلافة الإسلامية، وما تستطيع أن تقوم به من تقوية الروابط بين الأمم الشرقية.

وأرى أنه يحسن مبدئيًا أن تنعقد لجنة تضم بقدر ما يمكن عددًا من علماء كلّ أمة تكون مهمتها تنظيم النقط التي سيبحث فيها المؤتمر، والسعي في إنشاء فئات في كل الأمم وتوزيع هذه النقط عليها لبحثها، وتبقى اللجنة واسطة الاتصال بين هذه الفئات المختلفة عند إعداد تقاريرها حتى تحصل كل فئة على المعلومات التي تنقصها عن البلاد الشرقية الأخرى من فئاتها التي تعمل في إعداد التقارير في نفس هذه النقط؛ فإذا انتهت الفئات من إعداد تقاريرها تقوم اللجنة بتنظيم مكان وزمان لانعقاد المؤتمر[1].

* الاشتراك في مشروع كمشروع الشرق الأدنى يقتضي ما يأتي:

١ ـ دراسة اللغتين التركية والفارسية.

٢ ـ دراسة تاريخ البلاد العربية والتركية والفارسية القديم والحديث.

---

(١) ليون ـ في ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣م.

٣ ـ دراسة جغرافية هذه البلاد بالتفصيل .

٤ ـ دراسة النظام السياسى والدولى الخاص بكل من هذه البلاد ، والحالة الاجتماعية من وجوه كثيرة ، كالتقاليد والعادات والدين والتعليم والمركز الاقتصادى والمادى .

٥ ـ تتبع حركة الجامعة الأمريكية وما يشبهها من الجامعات الأخرى(١) .

* أقصر كلامى هنا على نهضة علمية فى مصر تكون أساسًا للنهضة العلمية فى بلاد الشرق الأدنى . ووددت لو أتيح لمصر أن تكون من البلاد الشرقية كإيطاليا من البلاد الغربية فى عهد إحياء العلوم ، والعمل على إيجاد هذه النهضة العلمية يحتاج إلى وقت ومجهود كبير وحبذا لو بدئ بتكوين مجامع علمية لغوية وفنية تتولى قيادة النهضة (وإن كنت أرى : أن المجامع العلمية لا ينجح تأسيسها قبل وجود النهضة ذاتها) . ولا بأس مطلقًا ؛ بل من الضرورى أن نستفيد من علوم الغرب حتى فيما كتبته عن العلوم العربية ، على شرط أن يكون لتكويننا العقلى ومزاجنا الجنسى أثر كبير فيما ننقله عن الغرب ، ولنا أسوة بالعرب عند نقلهم عن اليونان . وبأوروبا لما نقلت علوم العرب ، وقد أعود إلى هذا الموضوع الهام الذى يحتاج إلى كثير من العناية .

توحيد نظام التعليم فى مصر من الأمور المرغوب فيها ، ولكنى أعتقد أنها غير ممكنة التحقيق فى الوقت الحاضر ، ولذا يحسن الاقتصار على التقريب بقدر المستطاع بين التعليم الشرقى المحض ، والتعليم الغربى المحض(٢) .

* قد يكون فصل الخلافة عن السلطة فى تركيا فيه فائدة أن يسهل على الأمم الإسلامية فى الشرق الأدنى أن تظهر تعلقها بالخلافة دون أن يكون فى ذلك معنى تبعية سياسية لحكومة تركيا ، وقد تكون الخلافة ـ وهى هيئة قائمة بذاتها مستقلة عن الحكومة التركية ـ تصلح بهذا الشكل أن تكون نواة للتفاهم بين هذه الأمم(٣) .

* متى توفر الفرد على الكرامة الشخصية والكرامة القومية ، استحال أن يندمج فى شخصية أمم أخرى أو يذوب فيها ، ومحافظة الأمة على شخصيتها وطابعها الذاتى لازم لنهوضها بين الأمم(٤) .

---

(١) ليون ـ فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣م .

(٢) ليون ـ فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣م .

(٣) ليون ـ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣م .

(٤) ليون ـ فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣م .

* والجامع الأزهر يحتاج إلى كثير من الإصلاح، فلو جعل على ثلاثة أقسام: **القسم الابتدائي**: وهذا ينتشر في كل البلاد، **والقسم الثانوي**: منه ما يعد لقسم الدين والعقائد ويجعل مركزه في الأزهر الحالي وفي كل المديريات، ومنه ما يُعد لقسم الفقه الإسلامي (القانون) وهو القسم الثانوي بمدرسة دار القضاء، ويجعل منهاج الدراسة في هذه الأقسام مناسبًا لما يُعد الطالب نفسه لأجله من العلوم، مع جعل المبادئ الأساسية للغة العربية والعقائد مشتركة في الجميع، ومع مراعاة إدخال لغة أجنبية شرقية (الفارسية أو التركية) ولغة أجنبية غربية (الفرنسية أو الإنجليزية) في منهاج دراسة القسم الثانوي بدار العلوم. ثم يأتي بعد ذلك **الأقسام العالية**: وهي قسم الدين والعقائد وهو القسم العالي بالأزهر الحالي (ويُراعى فيه دراسة تاريخ الأديان الكتابية وخلاصتها، والمسيحية واليهودية)، وقسم الآداب وهو القسم العالي بدار العلوم، ويراعى فيه دراسة اللغة العبرية، عدا التوسع في اللغتين الأجنبيتين الأخريين، وقسم الفقه والقانون، وهو القسم العالي بمدرسة القضاء الشرعي، ويراعى فيه دراسة اللغة الفرنسية ومبادئ القانونين اللاتيني والإنجليزي. وتكون كل هذه الأقسام مكونة لأكبر جامعة إسلامية شرقية يبقى لها اسمها القديم وهو الجامع الأزهر، ويعد بكل قسم من الأقسام العالية درجات تتميم [دبلوم - ليسانس] ودرجات تفوق أو تخصص، وعالمية أو دكتوراه، وأقسام خاصة بالشرقيين غير المصريين يراعى فيها حاجيات بلادهم المختلفة[1].

* توحيد التعليم في مصر يصح أن يكون بروجراما لعمل منظم ومجهودات كبيرة، فروح التعليم ليست واحدة في الأزهر، وفي المدارس المشتقة منه، كالقضاء الشرعي ودار العلوم، وفي المدارس التي تسير على منهاج أوروبي كمدارس الحكومة والمدارس الحرة. ومن هذا التعليم المختلف تنشأ طبقات مختلفة بعيدة عن بعضها حتى في الزي، لا تفرق بينها الثروة ولا التعليم في ذاته ولا شرف النسب، وإنما العقلية المختلفة التي هي نتيجة لازمة لتعليم مختلف، فأحرى أن يعمل على تقريب مناهج التعليم حتى يتيسر الجمع بين كل هذه الطبقات في مدرسة واحدة، وعند ذلك تتحقق وحدة نتوق إليها في تكوين عناصر الأمة[2].

---

(١) ليون - في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٣م.
(٢) ليون - في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

* قرأت بعض ما كتب أخيراً عن السودان، وعن أنه جزء من مصر، وأنه حياتها، وغير ذلك، ولكن لم أر أننا عملنا أى مجهود فى حفظ هذا الجزء الذى لا يتجزأ، أو هذه الروح التى نموت بدونها. وعندى أن الطريقة العملية لذلك (مهما كانت نتيجة المفاوضة مع الإنجليز، وسواء انتهت باعترافها بوحدتنا مع السودان، أو بإبقاء النظام الحالى) هى أن نبادر من الآن بتحقيق ما نتحدث به فى المجالس من آن السودان جزء من مصر. ولن يكون السودان جزءاً من مصر بمجرد تأكيدنا ذلك؛ بل يجب أن يمتزج القطران امتزاجًا تامًا، وهذا ما أتصوره طريقا عمليا لذلك:

يجتمع بعض أغنياء المصريين ويؤسسون شركة لاستثمار أراض واسعة فى السودان قريبة من مصر، ويجتهدون فى ترحيل آلاف من فلاحى الوجه القبلى خصوصا، وهؤلاء لا يتعسر عليهم الرحيل إلى السودان؛ لأنهم يرحلون الآن بالنيل من ديارهم إلى جهات أخرى بالقطر المصرى للاقتيات. وتؤلف حركة منظمة يقودها أناس متنورون درسوا الأقطار السودانية دراسة عملية تكون مهمتها تسهيل المعيشة على هؤلاء الفلاحين؛ واختلاطهم بالسودانيين اختلاطًا تاما؛ بحيث يتزاوجون. وتزداد حركة الترحيل سعة، وحركة التزاوج انتشارا؛ حتى ينشأ فى بضع عشرات من السنين جيل جديد مصرى سودانى يكون هو العامل الأقوى فى جعل مصر والسودان قطراً واحداً. وفى أثناء انتشار هذه الفكرة يجب تأسيس مدارس حرة فى السودان تكون مهمتها تعليم السودانيين والفلاحين المهاجرين وتهذيب أخلاقهم وإفهامهم أنهم أخوة متضامنون فى السراء والضراء. وتؤلف بعثات على نفقة من يتطوع لهذا العمل الصالح من المصريين يرسل فيها من يتوسم فيه الذكاء من أبناء السودان حتى يتعلم تعليما عاليا فى مدارس مصر، مع بث روح التضامن ووحدة وادى النيل فى نفسه، ويكون هؤلاء هم دعاة الوحدة فى السودان عند رجوعهم إليها. وليحذر المصريون أن يملكوا مرافق الحياة على السودانيين أو يعاملوهم معاملة الأجانب المستعمرين، وليجتهدوا أن يحببوهم فيهم؛ ووحدة الدين واللغة كفيلة بتسهيل هذه المهمة الدقيقة.

والإنجليز مهما كان نفوذهم فى السودان وسلطتهم لا يمكنهم مقاومة هذه الحركة إذا نفذت بنظام وتدبر، ولن يستطيعوا مجاراتنا فى ذلك، فنحن نمتاز عنهم بقرب الدار ووحدة اللغة والدين؛ مما يسهل علينا العيش، ومما يجعلنا نحقق بالفعل ما نقوله الآن باللسان(١).

---

(١) ليون- فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

* لو كان للمصريين ـ باعتبارهم أفرادًا ـ مصالح مباشرة في السودان لعرفوا كيف يتمسكون بالوحدة، وخير طريقة لذلك دفع الممولين لشراء أرض في السودان، وإرسال اليد العاملة من الصعيد للعمل في هذه الأراضي والاختلاط بأهالي البلاد، وعند ذلك إذا فكر الإنجليز في سلب السودان قام في مقدمة المصريين لمقاومتهم أولئك المهاجرون يدافعون عن مصالح مصر، وعن مصالحهم الشخصية(1).

* «الجامعة الشرقية» و «الجامعة الإسلامية» و «الجامعة الطورانية» و «الجامعة العربية» و «الجامعة الفارسية» بل و «الجامعة المغربية» ما هي إلا أسماء مختلفة قد تدل على معان مختلفة من الوجهة الجنسية، ولكن ليس أسهل من التوفيق بينها؛ بل إن مصلحة الشرق تقتضي أن تعمل كل جامعة في تحقيق أغراضها؛ فإذا حققت ما ترمي إليه أمكن إيجاد الروابط المتينة التي تربط هذه الجامعات بعضها ببعض، فلتعمل الأتراك على نشر الدعوة الطورانية في بلاد القوقاز والتركستان، ولتعمل العجم على لم وحدتها، ولتعمل العرب على إحكام روابط الجزيرة، ولتقم مصر بما يجب عليها من جعل وادي النيل وحدة سياسية كما هو وحدة طبيعية، ولتستقر بلاد المغرب بما بينها من روابط تاريخية، ثم إذا نهضت كل هذه الأمم المختلفة الأجناس واللغات، وكل أمة في الجامعة الصغرى التي تجمعها بغيرها من الأمم.. أمكن عند ذلك تحقيق وجود لتلك الجامعة الكبرى «الجامعة الشرقية» أو «الجامعة الإسلامية» بمعنى واسع، وهذا لا يتناقض مع ما أشرت إليه قبلاً من لزوم انعقاد مؤتمر شرقي تشترك فيه الأمم الشرقية المستقلة؛ فإن من شأن هذا المؤتمر أن يسهل على كل جامعة عملها وألا يجعل عمل كل منها يضر بعمل الأخرى، وأن يحقق شيئًا من الوحدة والتضامن في عمل الجميع(2).

* يجب التفكير في ربط الأمم الشرقية بروابط اقتصادية ولغوية وقانونية قبل التفكير في ربطها بروابط سياسية؛ فإن هذه تأتي تالية لتلك، ومثل ذلك الدول الألمانية. ولتطبيق ذلك علميًا يمكن البدء بالنهضات الآتية:

---

(1) باريس ـ في 12 يناير سنة 1924م.

(2) ليون ـ في 19 أكتوبر سنة 1923م.

١ - **نهضة**: تتناول الشريعة الإسلامية وتجعلها مطابقة لروح العصر، وهذه النهضة تنتشر فى كل الدول الشرقية.

٢ - **نهضة**: تتناول اللغة العربية وإدخال ما يجب إدخاله عليها من التعديلات، وتوحيد اللهجات المختلفة فيها بقدر الإمكان، وهذه النهضة تنتشر فى البلاد العربية.. كمصر والشام وبلاد العرب والعراق وبلاد المغرب.

٣ - **نهضة اقتصادية**: وتتناول ربط البلاد المستقلة بمعاهدات تجارية واقتصادية واتحاد جمركى أو ما يشبهه، وهذه النهضة لا تتيسر إلا فى البلاد المستقلة كما تقدم كتركيا والعجم والأفغان والحجاز ومصر عندما يتم استقلالها.

٤ - **نهضة لإحياء العلوم والمعارف الشرقية**، وبخاصة الإسلامية، وهذه تتناول جميع الدول الشرقية، كما تناولت حركة إحياء العلوم فى أوروبا وأمم الغرب التى كانت مستعدة لذلك.

ومن المفيد جداً أن يبدأ فى تولى هذه النهضات جمعيات مؤسسة على مجهودات الأفراد، فإن كل عمل من هذا القبيل يبدأ دائمًا بمجهودات أفراد قبل أن تفكر فيه الحكومات، والواقع أن الأفراد هم الذين يؤسسون الجمعيات، وهذه هى التى تدرس الخطوات العملية للوصول إلى غرضها، وتأتى الحكومات من بعد ذلك وتأخذ بالنتائج التى وصلت إليها الجمعيات، وأرى أن هذه الجمعيات يجب أن تتعدد بتعدد الأغراض. فمثلاً توجد جمعية تعمل للجامعة العربية، وهذه تقصر عملها الأساسى على شد الروابط العربية بعضها ببعض وبخاصة اللغة العربية، وجمعية تعمل للجامعة الطورانية، وأخرى للجامعة الفارسية.. وهكذا، وكذلك يجب أن توجد جمعيات أعم من هذه تعمل للجامعات الشرقية (الإسلامية) وتتولى أعمالاً معينة مشتركة بين الجميع، فجمعية - مثلاً - تتولى القيام بنهضة الشريعة الإسلامية، وأخرى تبحث فى العلاقات الاقتصادية بين الدول الشرقية، وثالثة تقوم بنهضة إحياء العلوم والمعارف الشرقية، ومتى توافر العدد الكافى من هذه الجمعيات، ونظمت نظامًا متينًا أمكن إيجاد سبيل للتفاهم بينها، وأمكنها أن تعقد مؤتمرات سنوية تتبادل فيها ما وصلت إليه من النتائج، وأعتقد أنه يمكن وقت ذلك لتلك الجمعيات **تهيئة السبيل لعقد المؤتمر الشرقى العام** الذى أشرت إليه فى مذكراتى السابقة.

ويجب ألا ننسى أنه يحسن تخلية السبيل لكل جامعة من الجامعات الشرقية للعمل بقدر ما تستطيع، ومن الخطأ أن نفهم أن هناك جامعة شرقية واحدة؛ بل إن الشرق الأدنى والدول الإسلامية نفسها لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير دين الإسلام؛ بل يحسن أن نميز تمامًا بين ثلاث جامعات مستقلة:

١ ـ الجامعة العربية.

٢ ـ الجامعات الطورانية.

٣ ـ الجامعة الفارسية.

ولكن يجب من جهة أخرى أن نربط هذه الجامعات الشرقية الثلاث بروابط متينة من الدين والقانون والتجارة؛ ولذلك قلت: إنه يجب تأليف جمعيات يكون عملها ربط هذه الجامعات الثلاث بعضها ببعض وجعلها تسير في تيار واحد، دون أن تقف جامعة عثرة في طريق الأخرى؛ بل يجب عند اللزوم أن تساعد كل جامعة الأخرى على تكوينها. ومتى تكونت هذه الجامعات الثلاث أمكن أن يوجد بينها ـ بفضل الروابط التي تربطها من دين وقانون وتجارة ـ جمعية أمم شرقية وقانون دولي شرقي[1].

* أفكر في أنظمة سياسية للبلاد العربية، من قبيل أنظمة النمسا والمجر.. لما كانتا متحدتين من قبل، على أن الكلام في هذا قد يكون قبل أوانه، ولكنني لا أتمالك من التفكير في مملكة ثلاثية تتكون من مصر والسودان وسوريا.

إني على يقين تام من أن السعي لاستقلال مصر ووحدتها مع السودان يجب أن يتقدم كل مسعى في سبيل تحقيق الجامعات الشرقية، غير أنني أعتقد أن التفكير في هذه الجامعات من الآن لا يكون قبل أوانه؛ لأن مصر المستقلة تحتاج في حياتها الجديدة إلى منهاج مرسوم لها بعقول رشيدة تسير فيه بين دول الشرق، ومصر تخسر كثيرًا على ما أعتقد إذا انصرفت بعد استقلالها إلى تقليد الأوروبيين في مدنيتهم تقليدًا تامًا، ونسيت أنها من أهم الدول الشرقية.. وغير هذا؛ فإن مصر في حاجة إلى نهضة علمية وخاصة إلى إحياء الشريعة الإسلامية وبث روح العصر فيها، وكل مصري متعلم ينظر إلى تقاليدنا القومية وتاريخنا ومدنيتنا القديمة بغير تقدير كاف يكون إما مخطئًا أو يائسًا،

---

(١) باريس ـ في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

ولا نستفيد من الخطأ ولا من اليأس، وعندى أنه يحسن الآن البدء بنهضة علمية ترمى إلى إحياء العلوم العربية ونشر هذه الحركة فى مصر والشام والحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية، ويلتفت التفاتًا خاصًا إلى اللغة والشريعة، ومتى نجحت هذه الحركة العلمية تلتها نهضة اقتصادية ثم يأتى بعد ذلك الارتباط السياسى[1].

* الجامعة العربية من أهم الجامعات الشرقية؛ ولكن تحقيقها محفوف بالمصاعب لسببين:

١ ـ **نفوذ الدول الأجنبية فى جميع الأقطار العربية**: إنجلترا فى مصر وفلسطين والعراق وجزيرة العرب، وفرنسا فى الشام وبلاد المغرب، وإيطاليا فى طرابلس (ليبيا).

٢ ـ **كراهة جزء كبير من العرب للترك** وميلهم إلى صبغ الجامعة العربية بصبغة عداء للجامعة الطورانية، ويظهر أن هذا الميل العدائى يشجعه ما يبديه بعض الأتراك من النزق والعداوة للعرب.

على أنه يمكن مع حسن التفاهم أن يسود الوفاق بين العرب والترك، والمصريون خير معين على إيجاد هذا التفاهم فهم لا يكرهون الترك، ويحبون إخوانهم العرب، والترك لا مصلحة لهم فى معاداة العرب؛ بل يخسرون كثيرًا من ذلك. ولكن عقدة المسألة هى نفوذ الدول الأجنبية وبخاصة إنجلترا، فمطامع إنجلترا معروفة فى إنشاء إمبراطورية عربية تكون تحت حمايتها (لتحمى بها طريق الهند؛ ولتقاوم بها نفوذ الأتراك فى الشرق). فيجب التبصر قبل الإقدام، وعلى كل من يسعى لإنشاء جامعة عربية أن يفكر فى أمرين أساسيين:

١ ـ إزالة عوامل الخلاف بين العرب والترك، وجعل الجامعتين العربية والطورانية تسيران جنبًا إلى جنب تساعد كل منهما الأخرى، ولا تعارض نفوذها فى الدائرة المرسومة لها. وذلك بمجهودات تبذل لدى الشعب التركى والشعوب العربية.

٢ ـ الحذر والالتفات إلى عين إنجلترا الساهرة، فهى ترصد ـ بواسطة أعوانها الكثيرين المبثين فى الأقطار العربية ـ كل حركة ترمى إلى إيجاد الجامعة العربية،

(١) باريس ـ ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

وتحاول أن تستفيد منها بكل ما تستطيع، وهنا يحتاج القائمون بأمر الجامعة العربية إلى كثير من المهارة السياسية والتبصر في كل خطوة يخطونها لا سيما والأمر يزداد تعقيداً بوجود فرنسا إلى جانب إنجلترا في الشام، فالشاميون يبغضون طبعًا الفرنسيين، ويستفيد الإنجليز من هذا الشعور ومن علاقاتها المعروفة مع بيت ملك الحجاز الذي كونت منه أمراء لممالك عربية تحت نفوذها.. والأمر الواجب القيام به الآن: هو إيجاد جامعة عربية صديقة للجامعة الطورانية، وبعيدة عن نفوذ إنجلترا، مع الاجتهاد في عدم تمكين إنجلترا وفرنسا وإيطاليا من الاتفاق على المسائل العربية.. حتى لا تجتمع هذه الدول الثلاث عقبة في سبيل إنشاء الجامعة، وحتى يمكن الاستفادة مما يقع بينها من خلاف[1].

* منهاج عمل المصري الذي يريد أن يعمل لخير بلاده ينقسم إلى قسمين:

السياسة الداخلية، وتشمل نشر التعليم، وإصلاح الأخلاق، وإدخال الإصلاحات الاجتماعية الملائمة للوسط، وتحسين حال الفلاح المصري، والعناية بالصناعة والتجارة، وربط السودان ومصر بروابط اقتصادية واجتماعية وعلمية وسياسية، وإصلاحه على النحو الذي يدخل به الإصلاح في مصر، وتنمية وسائل القوة المادية في مصر للدفاع عنها وقت الحاجة، كإدخال التجنيد الإجباري، وتهذيب التعليم الحربي، وتناول شباب مصر بنصيب منه بما يجعل منهم عند الشدة جنوداً يدافعون عن بلادهم إلى جانب الجنود الرسميين، وإنشاء أسطول قوي يتلاءم مع مركز مصر البحري، وتعليم الشعب المصري كيف يحكم نفسه، وذلك يكون بتطهير الإدارة وتنظيمها، ونشر التعليم الذي يرمي إلى معرفة كل فرد حقوقه وواجباته، وبث روح الكرامة الذاتية في نفس كل فرد حتى يعلم معنى الحقوق العامة، كحرية الرأي والحرية الشخصية، ومتى تم تعليم الشعب أمكن تكوين رأي عام قوي ثابت لا يندفع وراء الأشخاص، وأمكن تكوين تقاليد لسياسة مصر مبنية على أساس ثابت. وتبنى كل هذه الإصلاحات على أساس شرقي (إسلامي) ديمقراطي.

أما السياسة الخارجية: فترمي إلى صد غارة الغرب والوقوف أمام مطامعه

---

(1) باريس - في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٣م.

الاستعمارية في الشرق الأدنى (العالم الإسلامى) وتوثيق الروابط بين أمم الشرق الأدنى، والبدء بالروابط الاجتماعية والاقتصادية، ثم البحث في خير الروابط السياسية التى تربط الأمم العربية، وبعد ذلك الأمم الشرقية (الإسلامية)، والعمل على نشر السلام فى العالم، وسعى الأمم جميعًا فيما هو لخير الإنسانية[1].

* إن اتحاد دول الشرق الأدنى - الذى يجب على كل شرقى أن يسعى إليه، يتضمن غرضين:

الأول: الدفاع عن مصالح تلك الدول، ودفع الاعتداء المرتكز على القوة عن أن ينتهك حرمات كل حق مقدس من حقوقها.

الثانى: إذا رأى هذا الاتحاد أنه ليس هناك قوة ظالمة تغتال حقوق دوله، وأن روح الإخاء بدأت تسود فى العالم، فعندئذ تبدأ مهمة أخرى سامية للاتحاد؛ وذلك بأن يجمع مجهودات دوله وينظمها فى سبيل تقدم الإنسانية، ونشر المدنية الصحيحة فى العالم، عاملاً فى ذلك مع الغرب على قدم المساواة والإخاء وحب الإنسانية[2].

*** ومن مبادئ الإسلام مبدآن يجعلانه سياجا لجميعة أمم عامة لا يتطرق إليها الضعف:**

١ - المساواة بين الشعوب والأفراد؛ فليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى.

٢ - المناداة بأن الإسلام مفتوح لجميع البشر، وأنه دين الإنسانية جمعاء[3].

*** إن فكرة القومية دبت فى الشرق، ولا يمكن أن تنتشر، وكل ما يطلب من الشرقيين هو أن يتدبروا التاريخ فيروا أن الغرب انتشرت فيه هذه الروح وأصبح القوم أقوامًا، ولكن كانت نتيجة المبالغة فى هذا المبدأ.. أن صار كل قوم عدوا للأقوام الأخرى، ووقعت بينهم الحروب. فالشرق إذا أراد أن يبنى نهضته على مبدأ القومية فلا بد له فى الوقت ذاته من أن يوجد شيئا من الاتصال بين أقوامه المتعددة فى مبدأ نهضتها، حتى يسهل بعد ذلك أن تكون هذه الأقوام على صفاء ووداد، ويجمعها كثير من عوامل**

(١) باريس - فى ١٢ يناير سنة ١٩٢٣م.
(٢) باريس - فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٤م.
(٣) باريس - فى ١١ أبريل سنة ١٩٢٤م.
(٤) باريس - فى ١١ أبريل سنة ١٩٢٤م.

التوحيد[٤].

* أحاول هنا أن أرسم باختصار خطة عمل (لإنشاء جامعة للأمم الإسلامية):

١ - السعي في إنشاء معهد القانون الدولي منظور إليه من الوجهة الشرقية، ويكون مجمعا لعلماء القانون الدولي في الشرق الأدنى.. يجدون فيه متسعا لنشاطهم العلمي، من تأليف وإلقاء محاضرات ووضع مشروعات، ويكون متصلاً بما يوجد من المجامع الدولية في الغرب، ويلحق بهذا المجمع معهد لتدريس القانون الدولي بفروعه، وإذا أمكن التوسع في المشروع، كان هذا المعهد مدرسة جامعة على ثلاثة أقسام: -

قسم سياسي، قسم للصحافة، قسم للعلوم الاقتصادية والمالية، وبذلك يمكن تخريج من يصلح لتولي الوظائف السياسية في السفارات والقنصليات ووزارة الخارجية على العموم، وتخريج من يستطيعون العمل في الصحافة، بعد تزويدهم بما يحتاجون إليه من المعلومات في مهنتهم الكثيرة التشعب، وأخيراً تخريج إخصائيين في المسائل الاقتصادية والمالية؛ بحيث يمكن أن نجد حاجتنا فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية على العموم، وبالأخص في أعمال المصارف والبورصات، وواضح أن هذا المعهد إذا وصل إلى هذا الحد من التقدم انفصل عن المجمع العلمي الشرقي للقانون الدولي، وصار كل في طريقه.

٢ - إنشاء معهد لتدريس الشريعة الإسلامية في ظل القانون المقارن، وهذا يمكن إلحاقه بمدرسة الحقوق.

فإذا انتشرت فكرة تجديد الشرق وإحياء علومه بفضل هذين المعهدين وبفضل (ما عسى أن ينشأ من المجلات لنشر هذه الفكرة) تبدأ الخطوة الثانية: وهي جمع مجهودات من يعملون في هذا السبيل، وتنظيم تلك المجهودات فيما يقرب من حزب يكون «بروجرامه» مبنيًا على أمرين أساسيين:

أولا: تأسيس دعائم قويمة تبنى عليها أنظمة البلاد العلمية والاقتصادية والدفاعية؛ وتراعى في الأنظمة العلمية فكرة تجديد الشرق، وفي الأنظمة الاقتصادية إعطاء قسط ممكن من العدالة والمساواة في حالات الناس الاقتصادية.

ثانيًا: ربط دول الشرق الأدنى بعضها بالبعض بروابط اقتصادية وعلمية، والسعي

فى إنشاء جمعية أمم لهذه الدول تجمعهم على أساس المساواة والاستقلال وتكون وسائل العمل لهذا الحزب ما يأتى : ـ

١ ـ لتحقيق الغرض الأول : يوالى الحزب تعهد نهضة إحياء الشرق وتجديده، ويساعد على نمو هذه النهضة التى تكون قد وجدت بالفعل، أن يساعد على تأليف الجمعيات والمعاهد العلمية التى تنشر علوم الشرق وترقيها فى ظل العلوم الحديثة، وذلك كالنهوض باللغة العربية وآدابها، ونشر اللغات الشرقية (التركية والفارسية على الأخص)، والنهوض بالشريعة الإسلامية وعلوم العرب ودراسة المدنيات الشرقية القديمة وتواريخها، والاهتمام ـ بصفة خاصة ـ بالعلوم الاجتماعية؛ بحيث تدرس بتقدمها الذى وصلت إليه فى العصر الحاضر، مع بث الروح الشرقية فيها، ومراعاة أن الغرض من دراستها القيام بالقسط الواجب على الشرق من النهضة بالعلوم، بحيث يساعد الغرب على تقدمها، ولا يظل واقفا من الغرب موقف التلميذ من المعلم. هذه إحدى الوسائل، وتتلخص فى السعى فى تجديد مدنية الشرق وعلومه بواسطة الالتجاء إلى الحكومة نفسها، وذلك بالقبض على زمامها، أو على الأقل بإيجاد عنصر قوى له تأثير محسوس فى أعمال الحكومة، وذلك بأن يتقدم أفراد الحزب الذين يأنسون فى أنفسهم استعدادا للحياة البرلمانية للانتخاب، ويكونون حزبا برلمانيا داخل الحزب الأصلى يعمل على وضع القوانين اللازمة لتقوية الحركة الشرقية (الإسلامية) ومدها بما يلزم من المال، والاهتمام على الأخص بالجانب الاقتصادى والجانب الدفاعى من هذه الحركة.

٢ ـ لتحقيق الغرض الثانى تتبع وسيلتان محاذيتان للوسيلتين المتقدمتين وهما :

١ ـ الالتجاء إلى الأمم الشرقية، لا الحكومات.

٢ ـ إيجاد نهضة لإحياء العلوم والمدنيات الشرقية. وسبيل ذلك اللغة والشريعة والجنسية والتاريخ. ثم الالتجاء إلى الحكومات الشرقية (متى تكونت أحزاب برلمانية على مثال الحزب المصرى فى الدول الشرقية الأخرى) لحملها على الارتباط بعضها بالبعض ارتباطا اقتصاديا وسياسيا، وذلك بإنشاء جمعية الأمم الشرقية[1].

* **المسألة الشرقية** : اسم كانت تفهم منه أوروبا ـ حتى الحرب العالمية الكبرى ـ تنازع الدول الغربية على اقتسام بلاد الشرق (التابعة للإمبراطورية العثمانية) فالفكرة

(١) الأهالى ـ فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٤م.

الأساسية هى فكرة تنازع ومخاصمة بين هذه الدول على نصيب كل منها فى الغنيمة، ومن هذا كان إذا ذكرت المسألة الشرقية اقترن معها ذكر المنازعات التى قامت بين هذه الدول بشأن هذا التقسيم. . أما اليوم فقد آن لأوروبا أن تفهم أن هذه الفكرة وإن كانت باقية إلا أنه زاد عليها أن تلك البلاد التى تنتهب ويقتسم أهلوها قد انتبهت وهى تطالب الآن باحترام حقوقها وبردها إليها، فلم تعد المسألة الشرقية اليوم تنازعا بين دول الغرب فحسب؛ بل هى أيضًا سلسلة من مجهودات قوية تقوم بها أمم (إسلامية) كبيرة فى سبيل تحريرها[1].

* إن تقوية الروابط الاقتصادية بين الدول الشرقية (الإسلامية) مسألة تحتاج إلى بحث دقيق، فمن الممكن تصور عقد مؤتمرات عامة لبحث المسائل الاقتصادية. وكذلك عقد معاهدات تجارية بين هذه الدول، وإنشاء المصارف بفروعها فى البلاد الشرقية، ولكن كل هذا غامض ويحتاج إلى تحديد دقيق، وتحديده يحتاج إلى بحث اقتصادى دقيق؛ ولكن من المفيد جداً التفكير فى هذا، فإن للمسائل الاقتصادية أهمية كبرى فى تسيير السياسة وفى توطيد العلاقات الودية وفى توحيد المصالح. والدعوة للمسائل الاقتصادية، تروج فى الغالب أكثر من رواج الدعوة للمسائل الأدبية والعلمية، وكذلك نجاحها أسرع وأكثر إنتاجا[2].

* قد تكون السياسة العملية للمصريين: أن يعملوا على تقوية بلادهم (الجيش والبحرية والطيران والتعليم والصناعة والزراعة والتوسع الاقتصادى) يستطيعوا بعد ذلك أن يعملوا على تحقيق الاتحاد العربى وجمعية الأمم الشرقية[3].

* * *

الإسلام والشرق[4]

طلب منى «السيد فتحى رضوان» ـ وهو شاب يحقق الصورة التى أحب أن يكون عليها الشباب الشرقى ـ أن أكتب كلمة فى عدد «السياسة» الخاص بمؤتمر الطلبة

---

(١) لاهاى ـ فى ١ سبتمبر سنة ١٩٢٤م.

(٢) لاهاى ـ فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٤م.

(٣) باريس ـ فى ١٠ أبريل سنة ١٩٢٤م.

(٤) للدكتور عبد الرزاق السنهورى. الأستاذ بكلية الحقوق المصرية [مقال بملحق جريدة السياسة الأسبوعية ـ القاهرة ـ العدد ٢٩٣١ ـ الجمعة ١٤ جماد الثانى ١٣٥١هـ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢م].

تتبعت باهتمام ما يقوم به هذا الشاب المتوقد عزما وأملا، من الدعاوة للشرق، ولمؤتمر الطلبة الشرقيين، وكنت أحس فى نفسى - عند تتبعى لهذه «الحركة الجديدة» - بقية من جذوة عرفتها أشد ما تكون توقدا أيام الشباب، عندما كنت فى سن السيد فتحى. كنت إذ ذاك ممتلئ النفس إيمانا بمستقبل الشرق، وبأن الرسالة التى أداها للإنسانية - على ألسنة الأنبياء والفلاسفة - لن تتم حتى يقوم الشرق من جديد، وينهض فى مستقبله بالأعباء التى اضطلع بها فى ماضيه.

وأطالع نفسى اليوم، فأرى النار التى زكا أوارها لم تخبُ، ولكنها كَمُنَتْ فى الأعماق تترقب وقودا لتزكو من جديد، وأرى الإيمان الذى امتلأت به نفسى لم يتزعزع، ولكنه انحدر إلى إيمان القلب، وإيمان القلب أضعف الإيمان.

مرت سنون مذ فرغت من وضع كتابى «الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية» - وهو كتاب وضعته بالفرنسية عقب أن قوض الترك صرح الخلافة العثمانية - وتلفت العالم الإسلامى أشد ما يكون حيرة واضطرابا، يتلمس بصيصا من النور يهتدى به وسط هذه الظلمات، وهو باق إلى اليوم يتفقد ذلك النور.

أخذت كتابى - بعد أن نفضت ما عليه من تراب - وأردت أن أستلهم منه تلك الروح التى كانت تهز أوتار نفسى، وتملك علىّ مشاعرى، وأنا أكتب الساعات الطوال فى موضوع الخلافة والشرق والإسلام، فلفت نظرى بضعة أسطر جاءت خلال المقدمة التى وضعتها للكتاب، هذه هى ترجمتها:

«لم أتردد فى أن أتطلع فى مسألة الخلافة إلى حلّ جرىء، هو أن يتطور ذلك النظام فيصبح عصبة أمم شرقية، وكان إيمانى بمستقبل الشرق أشد رسوخا من أن يتزعزع أمام جرآة هذا الحل، فإنى قوى الإيمان بما هو مقدر للشرق فى مستقبله من عظمة وجلال، وقد يكون حلم اليوم حقيقة فى الغد، وكم كثر الحالمون - فى أوروبا فى القرن الثامن عشر - يتمنون تنظيم جامعة تضم شتات الأمم الأوروبية، وها نحن اليوم فى القرن العشرين نرى هذا الحلم قد أصبح يقينا، وهذا الخيال يتحقق فى جامعة الأمم بجنيف، وما هى السنون، بل ما هى القرون فى حياة الأمم؟

على أن الشرق فى حاجة إلى رجال قادرين ذوى عزيمة، وهو يتطلب - إلى جانب القدرة - العزيمة والتضحية والإيثار، فالرجال الذين يعملون لفكرة جليلة، هى إحياء

الشرق من جديد، يجب أن يكونوا عند حد قول الشاعر الفارسى: «ونار تضىء للناس وهى تحترق».

وإنى كثيراً ما أذكر الإسلام فى خلال هذا الكتاب، ولا أقصد من هذه الكلمة مجموعة من المعتقدات الدينية، وإن كنت أشعر نحو هذه المعتقدات باحترام المسلم الخالص الإيمان، ولكنى أقصد بالإسلام تلك الثقافة الإسلامية التى أنارت جوانب العالم فى ظلمات العصور الوسطى، فالثقافة الإسلامية، لا الدين الإسلامى، هو الذى يعنينى.

لقد وُلد الإسلام فى جوار دينين عظيمين سبقاه إلى الوجود ـ المسيحية واليهودية ـ فكان دين الأخلاق الكريمة، وكان من أطهر وأنبل الأديان البشرية التى عمت العالم.

ولكن الدين فى الإسلام ليس كل شىء، فإلى جانب الدين توجد المدنية، فأما الذين يؤمنون بتعاليم الدين فأولئك هم المسلمون، وأما الذين ينتمون إلى الثقافة الإسلامية، فأولئك هم أولاد ذلك الوطن الإسلامى الكبير، وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود، عاشوا جميعا تحت علم الإسلام طوال هذه القرون.. بهذا المعنى الأخير يكون الإسلام والشرق شيئا واحدا؛ فإذا تحدثت عن أحدهما فكأننى أتحدث عن الآخر.

ولقد عاش فى الحظيرة الإسلامية ـ جنبا إلى جنب ـ رجال أحرار فى معتقداتهم الدينية، وفلاسفة كبار، وفقهاء وعلماء، حملوا لواء العلم واضطلعوا بأمانته، هذا الجو الإسلامى، الذى أوجد ابن سينا كما أوجد الغزالى، هو الجو الذى أريد اليوم أن يعود، هذا هو إسلام الأمس، وإسلام الغد.

فهل آن لهذه الظلمات التى تحيط بالشرق أن تنقشع عن هذا العهد الجديد؟ وهل يستعيد الإسلام قوته وصفاءه ليقوم بما قام به من قبل فى تخليد مجد الشرق وعظمته؟ وهل آن لنا أن نقول:

«الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق»؟.

وقفت عند هذه العبارة الأخيرة: (الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق) فازدحمت فى خاطرى المعانى تتداعى بعضها وراء بعض.

أية علاقة للإسلام بالشرق؟ وهل الشرق ـ وقد تعددت فيه الأديان، وازدحمت الملل ـ تقوم له قائمة إذا اتخذ الإسلام طريقا ينفذ منه إلى ما يطمح إليه من مجد؟ بل هل يجوز التحدث عن الشرق كمجموع من الأمم، وكل أمة شرقية شقت لها طريقا في جهادها القوى، وهى وإن كانت تعطف على جاراتها، فإن لها من شأنها ما يصرفها عن أكثر من هذا العطف القلبى؟ أليس من الخير ـ وقد علمنا من تاريخ المدنية الأوروبية ما علمناه ـ ألا نتكلم عن الشرق إلا كما نتكلم عن أوروبا: مجرد تعبير جغرافى يشمل مدلوله أمما متفرقة، من جنسيات مختلفة، ولغات متفاوتة، وأديان شتَّى. وألا نتكلم عن الإسلام إلا كما نتكلم عن المسيحية: دين سماوى كريم، نزل من عند الله ليطهر الوجدان، فعرشه فى القلوب، وحكمه على الضمير، ولا يعنى بشئون الدنيا، ولا ينظر إلا إلى علاقة العبد بمولاه؟

أوَهل يكون الإسلام شيئا غير المسيحية، وتكون رسالة محمد غير رسالة المسيح؟ هل تمثل محمد قيصر فى غرور الدنيا وزخرفة الملك، فهان عليه أمره، وفصل ما بينه وبين الله؟! أم أن الإسلام دولة إلى جانب الدين، وملك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر؟!..

إذا كان أمر الإسلام هو هذا ـ وكل ما عندنا منه يثبت ذلك ـ فمن تكون رعايا تلك الدولة الإسلامية؟ أهم المسلمون وحدهم؟ أم هم كل من استظل براية الإسلام، وانتمى إلى الثقافة الإسلامية، ولو كان غير مسلم؟

وما عسى أن تكون تلك الثقافة الإسلامية؟ أليست هى روح الشرق تمثلت علوما وفنونا وفلسفة؟ ألم يَبْن صرح هذه الثقافة عقولٌ شرقية تنتمى كلها إلى الإسلام، وإن كان ليس كلها مسلما؟ أليست الشريعة الإسلامية ـ بعد أن تكون شريعة الله ـ هى شريعة الشرق، منتزعة من روح الشرق وضميره، أوحى بها الله إلى عبد شرقى، فى أرض شرقية؟ ألم يكن الفقه الإسلامى ـ كالفقه الرومانى ـ شريعة إمبراطورية مترامية الأطراف، متباعدة النواحى، قام عليها أمر الدولة، واستقام بها السلطان والملك؟

من يعيد لهذه الشريعة جدتها بعد أن خلقت؟ ومن يهيب فيها بالحركة بعد السكون؟ أليس من المستطاع أن تتخطى الشريعة الإسلامية أعناق القرون، فتصبح شريعة العصر، تتسع لمقتضيات الحضارة، وتصبح شريعة الشرق، دون تمييز بين دين ودين؟

تعالى الله أن يكون الغربيون أقدر منا على فهم شريعته، وهم غير مسلمين، فيرون أنها تصلح أن تكون مصدرا عالميا للقانون[1].

ثم، أيكون من الخطل التحدث عن الشرق كمجموع من الأمم تربطهم أواصر من الجنس واللغة والدين؛ بل يربطهم ما هو أشد من ذلك وأوثق: ماض مزدحم بجلائل الأعمال، مملوء بالذكريات المجيدة، حافل بما تقدسه الإنسانية من بطولة وما تمجده من سمو، ذلك هو الماضي الذي يرتد إليه الشرقي فيلقى فيه المنبع الصافي الذي يبل غلته، والنار المطهرة تذكو في القلوب فتزيل ما فيها من رجس ودنس. تلتقي عنده الأبصار، وتتقابل فيه العزائم، فترى فيه مشكاةً تبعث النور والأمل.

أليس الشرقي ابن الفراعنة الذين كتبوا مجدهم على صفحات الخلود؟ أليس الشرقي ابن الفرس الذين تغلغلوا في صميم الحضارة ورفعوا لواء المدنية؟ أليس الشرقي ابن العرب الذين قاموا أوصياء على الدنيا فأدوا الأمانة ونقلوا إلى الخلف خير ما ترك السلف؟ أليس الشرقي ابن الترك الذين أقاموا دولة كان لها من الصولة ما اهتز له الدهر؟ أليس كل هذا تراث الآباء والأجداد، تلقيناه ذكريات تهتز لها نفوسنا، وتشتد بها عزائمنا؟

أنستبدل بذلك الماضي المجيد حاضراً لا نملك فيه من أمرنا شيئا، ثم لا نتطلع بعد ذلك إلى النهوض؟ أي طريق للتضامن لا نسلكه، وأي نوع من الوحدة لا نحققه، إذا كان في هذا التضامن وفي هذه الوحدة ما يدنينا من الأمل؟

الشرق يتحفز للنهوض، ولكنه ينهض لا ليناهض الغرب؛ بل ليتعاون معه على خير الإنسانية، فالغرب قد بقي وصيا على الشرق هذه السنين الطوال، وقد آن لهذه الوصاية أن ترتفع، وآن للإنسانية أن ترى أحد شطريها يتحرك بعد أن كان مشلولا.

ولكن، أنَّى لنا أن نتحدث عن وحدة الشرق، وأي نوع من الوحدة يضم شتات هذه الأمم؟ وهل توجد في الواقع أمم شرقية؟ أليست القوميات في الشرق في أول عهدها من التكوين؟! وأليس من تعجيل الحوادث أن نتكلم عن جمعية من الأمم الشرقية قبل أن

---

(١) هذا هو ما قرره مؤتمر القانون المقارن، الذي انعقد أخيرا في مدينة «لاهاي» ـ من ١ إلى ٦ أغسطس من هذا العام. وسيفسح هذا المؤتمر ـ في انعقاداته المقبلة ـ مكانًا خاصا لدراسة الشريعة الإسلامية، باعتبارها مصدرا للقانون المقارن.

تستكمل كل أمة مقوماتها وذاتيتها؟ وهذا هو الغرب لم يبدأ التفكير فى الوحدة إلا بعد أن نهضت فيه القوميات وسارت شوطا بعيدا؛ فالشرق إنما يسير فى أثر الغرب، ومثله مثل الغرب فى القرون الوسطى؛ إذ تسقط الإمبراطورية الرومانية المقدسة كما تسقط الخلافة اليوم؛ وإذ يقوم على أنقاض هذه الإمبراطورية التاريخية عدد كبير من القوميات، كما تقوم الآن القوميات الشرقية وتتكون؛ وإذ يضيء فى أوروبا نور إحياء العلوم والفنون كما ينبثق الآن فى الشرق فجر هذه الحركات العلمية الجديدة.. فعلى الشرق أن يتتبع خطوات الغرب، ويواصل السير فى نهضته العلمية حتى يرتكز منها على أساس متين، ويتفرق أمما، كل أمة لها لغتها وجنسيتها وتقاليدها وقوميتها، حتى تشتد هذه القوميات وتبلغ الرشد، عند ذلك يمكن التفكير فى نوع من الوحدة فيما بين هذه الأمم بعد أن تكون قد أصبحت أمما؟

يخيل لمن يستسيغ هذا النوع من المنطق أن هذا هو الترتيب الطبيعى للأمور، يمليه استقراء التاريخ، ويحتمه ما سار عليه الشرق من تقليده للغرب.

ولكن، أيجوز أن نغفل - فى سبيل هذه المقارنة السطحية - ما بين الشرق والغرب من فروق:

الغرب فى القرون الوسطى، سار بقدم بطيئة، لا يستحثه إلى التقدم إلا العوامل الكامنة فيه، ولم يكن بجانبه أمم شرقية يخشى على كيانه من سطوتها؛ فإن العرب والترك لم يصلا فى الفتح إلى حد استعمار أوروبا (عدا جزء منها) كما تستعمر أوروبا الشرق اليوم. لذلك، ما لبث الغرب أن تفرق أمما، كل أمة تتلهى بقوميتها عن جارتها، وتعتز بهذه القومية، وتغير على القوميات الأخرى، حتى إذا تكاملت هذه القوميات بدأت حركة التحرير الداخلى من استبداد السلطات وتعسفها، فقامت الثورات، ونشبت الحروب، حتى إذا تم لكل قومية كيانها، وتوافرت لها حرياتها الداخلية، كان من الطبيعى أن تفكر هذه القوميات المختلفة فى التعاون والتضامن، على أساس نوع من الوحدة لا يزالون حتى الآن يتلمسون إليه السبيل.. أما الشرق فهو فى نهضته يختلف عن الغرب فى أمرين جوهريين يحملانه على أن يسير بخطى أوسع نحو الغاية التى ينشدها من الوحدة:

الأمر الأول: يجد الشرق أمامه طريق التقدم معبدا، سبقه فيه الغرب، فهو يسير على هدى، ولا يتحسس جوانب الطريق ليعرف أين يضع قدمه، لذلك ترى الحركات التى كان طبيعيا أن تتوالى فى الغرب دون أن تتعاصر، تقترن فى الشرق إحداها بالأخرى، وتسير خببا، فالنهضات القومية، وحروب الاستقلال، والحركات الدستورية، والثورات الفكرية، كل هذه تجتمع فى الشرق فى العصر الواحد، وفى الأمة الواحدة؛ بينما هى فى الأمم الغربية لم توجد إلا واحدة بعد الأخرى، وفى مدى قرون.

والأمر الثانى: أن الشرق ليس أمامه فسحة من الوقت يضيعها فى التأمل والتفكير، فهو مهدد من الغرب بما لم يكن الغرب فى بدء نهضته مهددا به من الشرق. نهض الغرب؛ إذ كان الشرق قد جنح إلى الخمول، وأفَلَت شمس مجده، أما الشرق فهو ينهض اليوم والغرب فى أوج عزه وقوته، وليس فى هذا إلا ما يستحث عزيمة الشرق، فهو إذا أجاب داعى العوامل الداخلية الكامنة فيه فلبى نداءها، يكون أسرع فى تلبية هذه العوامل الخارجية المحيطة به من كل جانب، تستنهضه للعمل فى معترك لا يعيش فيه إلا الصالح للحياة؛ لذلك ترى بعض الأمم الشرقية ـ كمصر وتركيا ـ ترتفع فى عشرات من السنين مدارج من الرقى لم تجتزها الأمم الغربية إلا فى قرون.

ثم، أيحسن أن تترك الأمم الشرقية تسير كل أمة فى طريقها، حتى تصبح القوميات الشرقية بعد حين من الزمن متنافرة متحاسدة، على النحو الذى نرى عليه القوميات الغربية اليوم؟ أليس علينا أن نتلقن درسا مما نراه من التباغض فيما بين الأمم الغربية، فنتعلم أنه ليس من الصواب ترك القوميات الشرقية تنمو كل منها بمعزل عن الأخرى حتى تصبح هذه القوميات غريبات متباعدات؛ فنعدم فى الغد ما يسهل علينا الوصول إليه اليوم: روح المجموع التى يشكو الغرب من فقدها لما طال عليه الأمد فى تكوين قومياته.

هذه مسألة اجتماعية كبرى لا يزال علماء الاجتماع يدرسونها. أيحسن التفكير فى تكوين المجموعة قبل استكمال الأجزاء لمقوماتها؟ أويحسن ترك الأجزاء تستكمل ذاتيتها، ثم التفكير بعد ذلك فى تكوين المجموع؟

ومهما بدا من مسحة الصواب على الحل الثانى ؛ فإن الصعوبات الحقيقية التى تعترض الغرب فى لمّ شعثه بعد التفرق، لا تنهض دليلا على صحته.

فلتترك الشرق تستكمل كل قومية فيه مقوماتها، ولكن لننفخ فى هذه القوميات روحا شرقية واحدة، تسترشد بها كل أمة فى نهضتها الوطنية، حتى يسود التآخى والتعاون فيما بين هذه الأمم، ويسهل بعد زمن - قريب أو بعيد - أن نحقق نوعا من الوحدة فى الشرق لا تزال أوروبا تتلمس إليه الطريق حتى اليوم.

هذه هى الأفكار التى ازدحمت فى خاطرى وأنا أعيد قراءة المقدمة التى وضعتها لكتابى، استعرضتها فكرة بعد الأخرى، وأنا مأخوذ بما لمسائل الإسلام والشرق من خطر وجلال، وما زلت أفكر فيها، وما زلت مستغرقا فى التفكير....

***

المراجع

د. عبد الرزاق السنهورى: [عبد الرزاق السنهورى فى أوراقه الشخصية] ـ إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشادى. طبعة الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة سنة ١٩٨٨م.

د. محمد عمارة: [إسلاميات السنهورى باشا] طبعة دار الوفاء ـ مصر ـ سنة ٢٠٠٦م.

[مجلة قضايا الدولة]: عدد خاص عن «الفقيه الإمام عبد الرزاق السنهورى» ـ القاهرة ـ يونيه سنة ١٩٨٨م.

[مجلة القانون والاقتصاد]: عدد خاص ـ فى مجلدين كبيرين ـ مقالات وأبحاث للسنهورى، وعنه ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م.

من أعلام الإحياء الإسلامى

- إذا كان (الإحياء) هو التعبير الأدق عن رسالة الإسلام (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) فإن هذا الكتاب هو « ديوان الإحياء الإسلامى» فى عصرنا الحديث.
- فمن رشيد رضا الذى حمل (منار) الإحياء الإسلامى إلى العالم على امتداد أربعين عامًا .. وكان أول من تصدى للعلمانية والصهيونية فى فكرنا الحديث.
- إلى حسن البنا الذى تسلم الراية .. واستدعى الأمة، لتواجه تحديات التخريب بالإسلام الشامل لكل ميادين الحياة.
- إلى البشير الإبراهيمى الذى حمل إلى المغرب العربى رسالة الإصلاح بالإسلام.
- إلى الشيخ شلتوت الذى مثّل قمة الإحياء الفقهى فى عصرنا الحديث.
- إلى فقيه الشريعة والقانون الدكتور السنهورى باشا الذى وهب حياته لإحياء الشرق بالإسلام، حتى تعود الأمة لموقع الريادة بين العالمين.
- إنه كتاب جامع يحمل رسالة الإحياء الإسلامى إلى الباحثين عن معالم مشروع التقدم والنهوض.

